موقع فلسطيني falestiny.com

جميل خرطبيل

جدلية

التراث والتحديث والتحرير

في

النهوض العربي

* * *

دار الرواد – بيروت

* * *

الفهرس

المقدمة.
الفصل الأول: التراث والتحديث.
التحديث والمعاصرة.
الدين والعلم.
الفصل الثاني: المرحلة الأولى من النهوض.
الفصل الثالث: المرحلة الثانية من النهوض.
الفصل الرابع: المرحلة الثالثة من النهوض.
الفصل الخامس: تيارات الفكر المعاصر في المرحلة الثالثة من النهوض.
1- التيار الديني التحديثي: د. حسن صعب، د. محمد شحرور.
منهج المعتزلة، منهج ابن رشد.
2- التيار التراثي العلماني: د. زكي نجيب محمود، د. أدونيس، د. محمد أركون.
3- التيار الديني الثوري: حزب الله، حماس، الجهاد الإسلامي.
الفصل السادس: نقاط اللقاء في جدلية الأفكار.
الخاتمة.
المصادر والمراجع.

* * *

المقدمة

التراث والتحديث والحرية بكل أنواعها هي القضايا المركزية في الفكر العربي بكل تنويعاته، فالتراث هو التاريخ والحضارة والذاكرة والهوية، وتحديث الفكر لا يستطيع القفز فوق تلك الحقيقة وتغييبها، والحرية لا تنفصل عنهما كهدف أسمى في النهاية. وإخفاقات النهوض نتيجة تغييب ركن من أركان الجدلية الثلاثية: التراث، التحديث، التحرير بكل أبعاده.

وقراءة تلك الجدلية، تصل بنا إلى القواسم المشتركة لتكوين أرضية للحوار من أجل صياغة نظرية المعرفة التحديثية للفكر العربي.

ودراسة وتحليل أفكار مراحل النهوض تلتقط النقاط المشتركة وتضعنا أمام سيرورة النهوض في حركته الصاعدة والهابطة والجامدة والمكررة، وأيضاً مراحل الانتقال من جدل الأفكار مع بعضها إلى جدلها على أرض الواقع/ الممارسة، فالفكر لا ينفصل عن الممارسة، وأهمية أي فكر هي بقدر إمكانية ممارسته على أرض الواقع. والفكر لا ينفصل عن السياسة، فالسياسة هي ممارسة الأفكار.

والمشروع النهضوي صدام مع الواقع لتجاوزه، مشروع حلم، أمل، تفاؤل، لما يجب أن يكون، وهو مسار تاريخي تسلم فيه كل مرحلة ما تستطيع إنجازه إلى المرحلة بعدها.

***

لقد بدأ النهوض في العالم العربي منذ القرن التاسع عشر [1] ومر بمراحل عدة متشابكة ومتداخلة. والمرحلة الأولى وصلت إلى نقطة مفصلية تمحورت حول إبراز الكيان العربي المرتبط جدلياً بالتخلص من العثمانيين، ونجح الاستعمار الغربي في الحرب الأوروبية الأولى (1914 - 1918م) [2] في إطلاق الثورة العربية الكبرى في حزيران عام (1916م) خادعاً المسمى الشريف حسين باستقلال العرب ووحدتهم في المشرق العربي (الجزيرة العربية) [3] بعد طرد الأتراك، وبتنصيبه ملكاً على العرب (محادثات حسين - مكماهون عام 1915م) في الوقت الذي خطط فيه من خلال

اتفاقية سايكس - بيكو (1916م) [4]، لاقتسام إرث البلاد العربية التي سيطر عليها الأتراك في آسيا (تركة الرجل المريض/ المحتضر)، كما خطط لزرع القاعدة الاستعمارية الصهيونية (وعد بلفور 1917م)، والمرتبطة جدلياً مع تقسيم البلاد إلى دويلات لمنع قيام أي كيان للأمة العربية أو النهوض. فالثورة العربية الكبرى لم تكن إلا أداة في يد الغرب لتعجيل الانتصار على الأتراك في الحرب!

ولتثبيت تلك المخططات سعت بريطانيا لإقامة جامعة الدول العربية في آذار عام 1945م لتكريس التجزئة، ففي ميثاق الجامعة ضرورة احترام كل دولة عربية لاستقلال الدول الأخرى، وقد ورد في المادة الثانية عشرة والخامسة عشرة التأكيد على احترام سيادة كل دولة واستقلاليتها.

***

وخاض الشعب العربي معارك التحرر الوطني في الأقطار المجزأة ضد المستعمرين وهو مدرك لقيمة الحرية السياسية، وأنها لن تكون هبة أو صدقة فتحقيقها يتم من خلال الثورة.

وتحقق استقلال بعض الدول العربية، وأدت كارثة إقامة الكيان الصهيوني على أرض فلسطين عام 1948م بتآمر من الغرب والنظام العربي، إلى نمو وعي سرّع عملية الدخول في المرحلة الثانية من النهوض والتي انطلقت من مصر عقب ثورة عام 1952م، وامتد تأثير أفكارها إلى الوطن العربي على امتداد الخمسينيات والستينيات، فقويت الحركة القومية وانتشر الفكر الاشتراكي، ونهضت الثقافة: الفكر والعلوم والآداب والفنون.. لكن نكبة حزيران عام 1967م جاءت متناقضة مع القفزة النوعية التي تحققت، فتزعزعت ثقة الجماهير الشعبية بالأنظمة، لأن ما حدث لم يكن بالنسبة لها مجرد هزيمة عسكرية أو نكسة بعد ذاك النهوض الكبير، فقد تحطمت أحلامها وآمالها في مشروع النهوض القومي والتحديث.

إلا أن تلك الجماهير المغلوبة على أمرها وهي تراقب وتبحث عن قشة للنجاة، تجاوزت كبرياءها المجروح وأصرت على المتابعة والتحرير، ولم يكن أمامها بديل آخر للخروج من الانهيار. ومع أنها ليست مسؤولة عن النكبة،

ولكنها تتحمل جزءاً من المسؤولية لأنها لم تطالب بالمشاركة الفعلية في السلطة والقرار والمحاسبة، ووجدت في الاتكال على خطابات أصحاب القرار الاطمئنان والراحة!

وبدأت المرحلة الثالثة من مراحل النهوض وفي أولوياتها متابعة مشروع تحرير الأراضي التي احتلت عام 67م، فكانت حرب تشرين عام 1973م التي أعد لها بجدية منذ أواخر المرحلة السابقة، وقد أثبتت بأن الجيوش النظامية العربية إذا امتلكت النية والإرادة والعمل بإخلاص تستطيع مواجهة الجيش الصهيوني الأقوى في التسليح والتكنولوجيا والإمكانيات اللامحدودة والمدعومة أمريكياً وأوروبياً.

وكادت النتائج أن تخط معالم جديدة، أن تكون منعطفاً جوهرياً في الصراع العربي الصهيوني إلا أن ما تم إنجازه من الإيجابيات وظفه الرئيس المصري السادات للتسوية والصلح والسلام مع الكيان الصهيوني، بدلاً من أن يكون انطلاقة حقيقية لحرب طويلة مع العدو الصهيوني والإمبريالية الأمريكية، فغاصت الأمة العربية في انحدار جديد!

لقد أجهضت النتائج وخرج النظام المصري من الصراع العربي الصهيوني، وجمدت جدلية معركة التحديث ومعركة التحرير وبناء الأمة، وتكرس الواقع التجزيئي الذي صنعته مؤامرة المستعمرين والاتجاهات القطرية، وتقزمت خريطة فلسطين.. وانتهى الأمر فيما بعد إلى المشروع العربي للسلام واعتراف معظم الأنظمة العربية بما فيها منظمة التحرير الفلسطينية بالقاعدة الاستعمارية، منفذة ما تمليه عليها الإمبريالية الأمريكية.

إن أدبيات الثورة والقوى الوطنية العربية والقومية كانت تتحدث دائماً عن الإمبريالية وقاعدتها الاستعمارية بؤرة الشر الهادف إلى منع النهوض العربي والوحدة والتقدم.. وقد رضع الأطفال العرب والفلسطينيون تلك المقولات مع حليبهم، وإذ بالمفاهيم تقلب رأساً على عقب!

والمقاومة الفلسطينية التي كسبت ثقة الشارع العربي عقب نكبة حزيران، وتصدرت دور الطليعة في الثورة العربية، جرتها قيادة المنظمة نحو

التسوية، كما أن الأنظمة العربية التابعة لأمريكا ساهمت في تحويل المنظمةَ إلى عمل مؤسساتي يخضع لشروطها.

***

كان الغرب قبلة لأقطاب الإصلاح والتجديد والنهضة منذ بعثات محمد علي باشا الأولى في المرحلة الأولى من النهوض، ولم يأخذ الغرب هذه القضية بالحسبان ليبني علاقة سليمة مع من اطمأنوا إليه ولجأوا إلى الاستعانة به للنهوض، ولم تتغير عقليته المبنية على الجشع والأنانية والعدوانية والنظرة المتعالية التي تحتقر شعوب العالم في القارات الثلاث الآسيوية والإفريقية وأمريكا اللاتينية!

صحيح بأن الغرب خان فكره وفلسفته وعلمه، ليحقق أهدافه الاستعمارية القائمة على استغلال خيرات الشعوب، ولكن الغرب له وجهان الأول حضاري متقدم بالعلم والتكنولوجيا والفكر صنعه المفكرون والفلاسفة والعلماء خلال قرون من المعاناة، وقد ساهمت أيضاً في التقدم الثروات الطائلة التي جناها وجهه الثاني الاستعماري، وهذا الوجه الثاني السيئ لا تحد مطامعه أية قيم يدعيها ويصدرها للعالم ليخفي طبيعة النظام الرأسمالي الليبرالي الذي وصل إلى مرحلة الإمبريالية المتوحشة، في بحثها عن مصادر الطاقة والمواد الأولية، والأسواق لتصريف منتجاتها، وجعل العالم غير الغربي مزرعة تابعة لها تدور في فلكها اقتصادياً وسياسياً وثقافياً..

وقد انخدع الرواد في المرحلة الأولى من النهوض بالوجه الأول لأن الفكر ملك للإنسانية كلها، ولم يدرس معظمهم بعمق حقيقة الوجه الآخر فوقعوا في شباك الغرب ومؤامراته، ولو كان لهم موقف واع وحاسم تجاه التمييز بين الوجهين لتغيرت أمور كثيرة، ولكن بقي عدم التمييز بين الوجهين مستمراً حتى عصرنا!

***

لقد شهدت البلاد العربية في مرحلة النهوض الأولى تحولات كثيرة تم فيها الانتقال النسبي من قرون الجهل والتخلف والظلام إلى مقدمات

المعاصرة. وطُرحت أفكار لم تكن معروفة سابقاً كالحرية السياسية والديمقراطية.. وحدثت في خضم معركة التحديث هزات وجدالات واسعة بين الأيديولوجيات وتبودلت التهم بالتحريف والتكفير والعمالة، ولم تجر محاولة جادة للحوار والتفاهم!

وقد طرح رواد تلك المرحلة السؤال المنهجي: كيف ننهض؟! فتعددت الرؤى والأطروحات الفكرية، وبقيت تلك الأطروحات مستمرة خلال مراحل النهوض كلها حتى الآن، وأدت إلى تنويعات وتلونات وتعديلات. وقد حاولت بعض التيارات والاتجاهات نفي المغاير والمناقض لها بتغييبه أو إقصائه أو إضعافه، ولكنها لم تستطع أن تلغيه أو تحذفه أو تقضي عليه، وإذا ما اشتد الضغط على تيار فكري ما كان يتحول إلى العمل السري، أو يعيد تشكيل نفسه بتسميات جديدة، لذلك بقيت التيارات الفكرية تتصارع إلى جانب بعضها سراً وعلانية.

وفي المرحلة الثالثة خاضت التيارات والاتجاهات والأحزاب المتعددة غمار معركة النهوض، ولكنها عادت لمناقشة ما تجاوزته المرحلة الثانية وحسمتها أطروحاتها النظرية، فقد استعادت طرح السؤال المنهجي الذي طرحته المرحلة الأولى منذ أكثر من مئة وخمسين عاماً وهو: كيف ننهض؟ وكان عليها أن تطرح السؤال المنهجي: لماذا لم ننهض، لتبحث عن المعوقات والأسباب، ولتستفيد من النقاط الإيجابية لأفكار المراحل السابقة التي ساهمت على امتداد العقود الماضية في تحقيق إنجازات هامة.

فطرح الأسئلة منهجياً بشكلها الصحيح يؤدي إلى الأجوبة الصحيحة. وما إعادة تكرار أطروحات قيلت منذ القرن التاسع عشر ورددتها مئات الألسن كفتح باب الاجتهاد، وعقلانية المعتزلة وخط ابن رشد.. إلا نتيجة الخطأ المنهجي في طرح السؤال!

***

وفي الوقت الذي استمر فيه المفكرون في حلبة الجدالات والنقد والاحتجاج اللامجدي مهملين الممارسة ومغيبين التحرير من الجدلية، بقيت الأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية تزداد سوءاً،

وبقي الشعب العربي خارج حلبة الجدال يعيش في ضياع واغتراب نتيجة النكبات المتوالية والتبعية والتخلف والجهل والفقر والضعف والذل والمهانة وفقدانه القيم التي حلم بها، لذلك فقد الأمل بالشعارات وبالأيديولوجيات المطروحة وبالقيادات والأنظمة، وقوي حنينه إلى الدين، فقويت الحركات الإسلامية وانتشرت!

وفي خضم صراع الثنائيات وتغييب الركن الثالث التحرير، أعاد تيار المقاومة الإسلامية، جزءاً من ذاك المغيب من الجدلية محدثاً خرقاً كبيراً في جدلية الأفكار باستعادة بؤرة الصراع المركزية في هذه المرحلة، وذاك الطرح أعاد إلى الجماهير العربية الثقة بالخروج من المستنقع!

والجماهير التي ذاقت الأمرين باستثارة مشاعرها بالشعارات والخطب وانجرافها بعواطفها مخدوعة من حفرة إلى حفرة، ما عادت تؤمن بالشعارات والخطب إن لم تتحول إلى آليات للعمل الصادق والمخلص، لذلك سلمت رايتها لتيار المقاومة الإسلامية بعد معاينتها لنتائج ملموسة على الأرض.

وقد أخذت المقاومة الإسلامية بعدها عقب نجاح المقاومة الوطنية اللبنانية والإسلامية بقيادة حزب الله في تحرير جنوبي لبنان في أيار عام 2000م وإجبار المسماة "إسرائيل" على الانسحاب من الجنوب. وقد حققت بذلك انتصاراً تاريخياً لم تصنعه أية دولة عربية قبلها قط، نتيجة تبني حرب التحرير الشعبية التي حققت التوازن الإستراتيجي.

لقد انسحب الصهاينة دون قيد أو شرط على عكس ما جرى مع مصر إذ كان الانسحاب السياسي مشروطاً بالاعتراف بالكيان الصهيوني وإقامة العلاقات الديبلوماسية والتطبيع معه.

والمقاومة الإسلامية في لبنان ساهمت إلى جانب عوامل أخرى في انطلاق الانتفاضة في فلسطين التي قادتها الحركتان الدينيتان حماس والجهاد الإسلامي، وتبنتا التحرير الكامل كبرنامج مناقض لبرنامج قيادة منظمة التحرير القائم على التنازل والصلح والاعتراف. كما انتقلت فكرة المقاومة الإسلامية إلى المقاومة الوطنية العراقية ضد الاحتلال الأمريكي.

وجاء النصر الثاني التاريخي لحزب الله في 12/ 7 - 14/ 8/ 2006م، على العدو الصهيوني الذي شن حرباً همجية مدمرة على لبنان جواً وبحراً وبراً. وعلى الرغم من إصرار الإمبريالية الأمريكية على استمرارية الكيان الصهيوني في عدوانه بكل أنواع التدمير، عساه أن يحقق شيئاً يقلب الوضع برمته ويبشر بميلاد (شرق أوسط جديد/ كبير)، لكن الكيان الذي أنفقت عليه الإمبريالية ملايين المليارات من الدولارات ليمارس دور القاعدة العسكرية المركزية في المنطقة، والمخفر والعصا الغليظة، لم يستطع الاستمرار فأوقف عدوانه خشية المزيد من الخسائر والانهيار، وفشل في تحقيق أي هدف من أهدافه المخطط لها أمريكياً/ صهيونياً، وعلى رأسها القضاء على المقاومة [5].

لقد أسس حزب الله خطاباً جديداً مقاوماً في المنطقة، واستطاع هو والمقاومة الإسلامية في فلسطين أن يغيرا الصورة التي رسمها الصهاينة عن العربي وأقنعوا العالم بها، وهي أن: (العرب لا يفهمون سوى لغة القوة، ولذلك فاتباع سياسة الردع والعنف معهم هي الأسلوب الأمثل. وهم قوم فرديون، مفككون، يميلون إلى الكذب والمبالغة وخداع الذات. وهم بالمقارنة بالإسرائيليين كسالى وجبناء وخونة، ومستوى ذكائهم منخفض، وعلى الجملة هم أدنى من الإسرائيليين) [6].

وفي الساحة العراقية فشل المشروع الأمريكي الصهيوني أيضاً، فالمقاومة العراقية الشعبية المسلحة وضعت الإمبريالية الأمريكية في مأزق وأفقدتها هيبتها وقدرتها على حسم الصراع، فصارت تبحث عن مخرج ما!

وزاد في تعميق ذاك المأزق الموقف الإيراني الصلب في وجه أمريكا والحض على إزالة الكيان الصهيوني، وكذلك عدم انصياع سورية للإملاءات الأمريكية ووقف دعم المقاومة، وتوسع دائرة التحدي للإمبريالية الأمريكية في أفغانستان وبعض دول العالم حتى في أمريكا اللاتينية مثل كوبا وفنزويلا..

ونحن الآن نعيش في هذه المرحلة التي يتصارع فيها التيارات المتناقضان الأول تيار المقاومة، والثاني تيار الاستسلام الذي يشكل أتباعه خطراً كبيراً لأن هدفهم القضاء على برنامج المقاومة وتصفية القيادات الشعبية الوطنية لتنفيذ مشروع أمركة وصهينة المنطقة، وقد دفعوا باتجاه الصدام كما في لبنان وفلسطين والعراق، وسيبقون عائقاً أمام المشروع النهضوي التحرري، لذلك لا حل إلا في فرض برنامج المقاومة وتعميمه!

***

إن الإيمان بأهمية الحوار النقدي الجاد وعدم تغييب الآخر، يدفع باتجاه الاعتدال والانفتاح على التيارات الأخرى، مما يسهل عملية اللقاء والتفاهم على القضايا الهامة في عصرنا.

والبحث عن سبل النهوض والتحديث يعني الخروج من الدوران في الحلقة المفرغة إلى الرؤية الجامعة في الممارسة والتطبيق، أي الانتقال من الكلمة الجامعة إلى الفعل!

والتفكير المنهجي العلمي هدفه البحث عن فكر عربي جديد مبني على جدلية الثلاثية (التراث والتحديث والتحرير)، يناسب التحديث وقابل للتنفيذ، وله هويته وكينونته في بناء الإنسان العربي والأهداف الثابتة الوطنية والقومية، وليس مبنياً على المصالحة المؤقتة أو الهدنة والتهدئة أو التلفيق، وإنما على رؤية فكرية إستراتيجية مستفيدة من إخفاق الرؤى السابقة التي كانت تغيب ركناً من الأركان.

* * *

الهوامش

(1) لا يمكن تحديد بدء اليقظة بتاريخ محدد فالنهوض والجمود متداخلان في الزمن، نعم نستطيع بدقة أن نحدد زمن قيام ثورة ما أو استلام زعيم ما السلطة، ولكن حركة مسار الشعوب والحضارة لا تحددها لحظات زمنية محددة. وقد قسمنا مشروع النهضة إلى ثلاث مراحل تقريبية لتحديد رؤية المفاصل الأساسية، مع أنها في الحقيقة مرحلة واحدة مسارها تقدم وتراجع وتكرير، وتلك المراحل متداخلة مع بعضها ومتعايشة مع بعضها أيضاً.

(2) الأصح القول الحرب الأوروبية الأولى وكذلك الثانية، ودوافعهما السيطرة والتنافس، ولم تكونا على الصعيد العالمي، وقد جر العرب وغيرهم إليهما.

(3) الجزيرة العربية في المصادر العربية القديمة تشمل السعودية والخليج واليمن وعمان إضافة إلى بلاد الشام والعراق، وتمتد غرباً لتشمل سيناء وشرقي النيل.

(4) معاهدة سرية عقدت بين فرنسا وبريطانيا وقعها مارك سايكس عن بريطانيا وجورج بيكو عن فرنسا في أيار 1916م، وقد فضحها لينين بعد قيام الثورة البلشفية عام 1917م، وأرسل الألمان نسخة عنها إلى العثمانيين الذين أوصلوها إلى المسمى الشريف حسين. ولما استفسر الشريف من الإنكليز عن المعاهدة، استطاعوا خداعه مرة ثانية بالمراوغة وبالاستناد إلى عدة أمور منها عمومية جزء من البند الأول من الاثني عشر بنداً التي تتألف منها المعاهدة وهو: "فرنسا وبريطانيا مستعدتان أن تعترفا وتحميا دولة عربية مستقلة، أو حلف دول عربية تحت رئاسة رئيس عربي"!

ولكن الشريف حسين ونتيجة إصراره على التخلص من الأتراك، وطمعه بتنصيبه ملكاً على الدولة العربية الموحدة، وعدم قدرته على أن ينقلب على بريطانيا لأنها ليست حليفته الند للند، لم يكن أمامه خيار آخر سوى المضي مع الإنكليز حتى النهاية!

واستطاع الجيش العربي التقدم نحو الشمال محرزاً الانتصارات تلو الانتصارات على القوات التركية حتى تحرير الشام في 3 تشرين أول عام 1918م. وفي 23 من الشهر نفسه احتفل العرب برفع العلم العربي، كخطوة لإقامة السلطة العربية المستقلة في الشام والعراق والجزيرة العربية تحت لواء العلم الهاشمي، لكنها لم تتحقق!

لقد أسس الشريف حسين فكرة الاتكالية على القوى الخارجية للمساعدة في تنفيذ المشاريع الداخلية، وهو ما تكرر في التاريخ المعاصر دون الاهتمام بالوجه الآخر المخادع، كما هو الحال في العراق، لبنان..

(5) انخفضت أهداف العدو من القضاء على حزب الله، إلى سحب سلاحه، إلى إضعافه، ثم إلى مجرد إبعاده عن الشريط الحدودي..

(6) السيد ياسين: الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر - ص 141.

* * *

الفصل الأول:

التراث والتحديث

التراث تاريخ وفكر وحضارة وهوية، فيه الجيد والسيئ، وفيه المقيد والنسبي، وهو حقيقة موجودة وباقية شئنا أم أبينا لأن له أنصاره، يقول د. زيعور: (حفاظاً على الصحة النفسية والعقلية، لا يجوز للعربي ولا يقدر على التخلي عن تراثه والانسلاخ عن ثقافته. إذ بذلك يستأصل جذوره وينفصل عن حقله التاريخي. حتى التشكيك بقيمة الموروث الحضاري عملية تزعزع الثقة بالنفس وبالنحن لأنها تخل بالتوازن بين الأنا وحقلها الحضاري الذي يعطي الإنسان عمقاً، وقيمة، وشعوراً بالانتماء ومن ثمت بالأمن والاطمئنان أي بالقدرة على الاستمرار والتكيف) [1].

والجدل حول القديم والجديد أو الثابت والمتغير، أو (الصراع بين الحداثة والقيم التراثية المتوارثة) [2] سيبقى مستمراً إلى ما لا نهاية.

التراث والتحديث ليسا ضدين ولا خصمين حتماً لأنهما حياديان، وإنما الإشكالية في أنصارهما. فالقديم يركن إليه الفكر التقليدي لأنه يمنحه الاطمئنان والراحة، بينما الجديد يبعث فيه التوتر والخوف من المجهول، والاختيار فيه صعوبة وقلق ومعاناة.

الجديد يريد أن يخرج من عباءة القديم في كثير من القضايا التي يشعر بغربة تجاهها، يريد استقلاليته من فرض بعضهم هيمنة القديم المطلقة، يريد شخصيته وحريته وحياته الخاصة به المناسبة له ولمعطيات العصر، يريد أن يكتشف ذاته بعيداً عن القوالب الجاهزة والنماذج المستنسخة. ولا يريد أن يحمل الأجداد أكثر من طاقتهم، فقد عاشوا عصرهم ولم يُنظّروا لكل العصور وإلى الأبد!

وفي خضم الصراع بين أنصار التراث والتحديث حقق أنصار التحديث أموراً كثيرة مختلفة عما كانت عليه في التراث سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وحقوقياً وأدبياً..

***

لقد صنع العرب حضارتين على المستوى العالمي: الحضارة الأولى القديمة ما قبل الإسلام والتي امتدت آلاف السنين في عمق التاريخ: الحضارة الكنعانية الفينيقية، والسومرية والآشورية والبابلية، والمصرية إضافة إلى حضارة تدمر والأنباط وجنوب الجزيرة سبأ وحضرموت.. وقد أنتجت الفكر والعلوم المتنوعة كالهندسة والفلك والزراعة والصناعة والتجارة، واللغة والأديان ومن ضمنها الديانتان اليهودية والمسيحية.. والثانية: الحضارة العربية الإسلامية الغنية والمتنوعة والتي امتدت حتى القرن الثالث عشر الميلادي، ثم بدأت بالانحدار.

وكل ما وصلنا من الحضارتين هو تراث، لكن بعض المفكرين الإسلاميين الأصوليين لا يقبل إدراج القرآن الكريم في التراث، لأنه يرى أن التراث هو من صنع بشري، أما القرآن الكريم فهو من عند الله. وتلك الرؤية لمفهوم التراث خاطئة لأن المقصود من التراث هو كل ما وصلنا عن طريق الأجداد بما في ذلك القرآن والسنة النبوية فهما قد وصلا إلينا أيضاً عن طريق الأجداد، وكذلك الديانة المسيحية، أما أصل مصدر ما وصلنا فهو موضوع آخر ديني/ تاريخي، وهو ليس موضوع بحثنا، لذلك الفصل بين التراث البشري والإلهي خارج عن موضوع البحث.

وفهم التراث على أنه الدين الإسلامي فقط، وجعله هو التاريخ والهوية والماضي والحاضر، وتغييب آلاف السنين التي قبله فيه إجحاف لتاريخ الفكر العربي.

فهناك تراث عربي عام امتد منذ الحضارات القديمة وحتى العصور الوسطى، وتراث عربي إسلامي خاص يشمل الفترة الإسلامية فقط.

واستخدام مصطلح التراث بشكل عام دونما تحديد يشمل المرحلتين معاً، ولكن عندما يتطلب الأمر التحديد يجب التوضيح أهو تراث الحضارة العربية الإسلامية أو تراث الحضارة العربية قبل الإسلام. ومعظم المفكرين الذين يتحدثون عن التراث يعنون بالضبط التراث الإسلامي، ولا يفصلون بين مفهومي الفكر العربي العام والفكر العربي الإسلامي الخاص؛ ففي نقد

بعضهم للفكر العربي إنما هو في الحقيقة نقد للفكر الإسلامي، فالعناوين مثل (نقد العقل العربي) إنما هي حقيقة (نقد العقل الإسلامي) كما عند محمد عابد الجابري ومحمد أركون الذي يذكر في كتابه (الفكر العربي) أن مرحلة تشكل الفكر العربي بدأت سنة 632م وحتى حوالي سنة 950م، أي تكوين الفكر العربي بدأ من الفترة الإسلامية وفي هذا تجاهل للمكونات ما قبل الإسلام، وتجاهل للعرب غير المسلمين في التكوين. فالدين الإسلامي مفصل رئيسي وهام من التراث، ولكن هناك مفاصل أخرى يجب ألا تُغيّب.

كما أن دراسة تكوين الفكر العربي بشكل عام تتطلب دراسة جدلية التطور التاريخي والاجتماعي والاقتصادي والحقوقي والسياسي والديني.. ومنذ أقدم العصور.

وإذا كنا لا نستطيع أن نلوم أجدادنا العرب المسلمين لتغييبهم حضارات أجدادهم من قبلهم لجهلهم بها، عدا ما نقلوه عن تراث الدينين اليهودي والمسيحي وبعض الحضارات كحضارة سبأ.. لكن من البديهي الآن بعد معرفة الكثير عن تلك الحضارات القديمة، ألا يغيبها عربيّ لأنها حضارة العرب وليست حضارة الآخرين.

إذاً بنية الفكر العربي تمتد جذورها لآلاف السنين، وليس جوهرها التراث الديني وحده. بينما بنية الفكر العربي الإسلامي هي في جوهرها دينية، والعرب هم حاملو الفكر الإسلامي، وبالتالي لا يمكن تصور أحدهما بمعزل عن الآخر.

وبما أن الدين الإسلامي مرحلة فاصلة في تاريخ الحضارة العربية فالافضل أن يُستخدم مصطلح ما قبل الإسلام وما بعده، وليس ما قبل المسيح وما بعده، لأن التراث المسيحي جزء من التراث العربي قبل الإسلام، وهناك حضارات عربية بين فترة المسيح والإسلام. ولكن كتاريخ عام يمكن أن يستخدم ميلاد المسيح "قبل وبعد" لشيوعه العالمي، وهو تاريخ عربي.

***

إن دراسة الفكر العربي في المرحلة العربية الإسلامية تتحدد في موضوعين: بنية الفكر وتكوينه: فالبنية هي دينية/ النص، أما التكوين فهو ما بني على النص. ودراسة البنية هي دراسة النص فقط، بينما دراسة التكوين هي أوسع دائرة بسبب ما أفرزته البنية من فضاء ثقافي واسع.

وقد تكونت في الحضارة العربية الإسلامية حلقات من البناء الفكري حول النواة القرآن الكريم، فالحلقة الأولى شملت التفسير والحديث النبوي واللغة والفقه والنحو، والحلقة الثانية علم الكلام والفلسفة والمنطق، والحلقة الثالثة العلوم المختلفة والأدب ولا سيما الشعر..

وما كتب من شرح وتفسير للدين/ النص فيه رؤى مختلفة، وليس هو الدين ولا المساوي له في المكانة.

ودراسة الحضارة الإسلامية بموضوعية تتطلب دراسة المصادر المتنوعة وتحليلها ونقدها في العمق والكشف عن جدلية العلاقات بين المعطيات التاريخية/ السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وفكر المذاهب والطوائف والفلسفات كلها حتى الذين اتهموا بالزندقة أو الكفر أو الخروج عن عصا السلطان.. جزء من التراث العربي الإسلامي، جزء لا يتجزأ مما قدمه الأجداد، ولا يحق لأحد تهميشه أو تغييبه.

وتحليل تاريخية تكوّن الفكر، يرينا أن كثيراً من الأفكار والأخلاق والعادات والتقاليد القديمة بل وكثيراً من الخرافات المعششة حتى الآن تمتد جذورها إلى ما قبل الإسلام!

وهناك كثير من الأفكار الإسلامية تتقاطع مع الفكر العربي القديم، ففي دراسة الفكر الديني المقارن مثل: "العين بالعين.." ترينا أنها وردت في شريعة حمورابي والتوراة والإنجيل والقرآن، فالفكر العربي عرف ذاك القصاص قبل الإسلام. وكذلك بعض القصص كالطوفان فقد تحدثت عنه ملحمة جلجامش، ثم التوراة ثم القرآن الكريم..

وكذلك اللغة العربية فما هي إلا نتاج تطور يضرب في أعماق التاريخ منذ اللهجات القديمة المصرية والبابلية والكنعانية والآرامية والسريانية.. وإن كثيراً من كلمات اللهجات القديمة ما زالت حية حتى الآن..

فالتراث العربي القديم هو المؤسس لما جاء بعده فلا شيء يأتي من الفراغ، وإنما تراكمات عبر عصور تسلم نتاجها إلى بعضها.

واحترام التراث العربي الإسلامي والاعتزاز به شيء، وعدم النظرة الموضوعية له شيء آخر، ولكل إنسان الحق في اختيار ما يراه مناسباً له من التراث كما يقول د. عبد الله العروي: (التراث هو في متناول الجميع، ولكل شخص الحرية في أن يأخذ منه ما يعطيه التوازن وإرادة العمل) [3].

***

إن التاريخ العربي الإسلامي كُتب من وجهة نظر السلطة المركزية والطبقة المهيمنة في المجتمع "الاتجاه السني"، لذلك صورت المعارضة بأبشع الصور، وهذا يتطلب إعادة كتابة التاريخ (كتابة تاريخ من لا تاريخ له) كما يقول د. أركون، لأن المنتصر هو من يكتب التاريخ من منظار أحادي يكفر فيه جميع معارضيه ويشوه ثقافتهم وتاريخهم وحياتهم.

وقد بدأ البعض بكتابة التاريخ النقدي العلمي وأعاد الحق لمن أقصي وجعل خارج فضاء التاريخ.

يقول د. حسن صعب: (إن تاريخنا الاجتماعي والاقتصادي وتاريخ مؤسساتنا الاجتماعية والسياسية، وتاريخ علومنا الاجتماعية لم تكتب كتابة علمية موضوعية بعد)، و(لذلك يعاني فكرنا العلمي والاجتماعي من هوة بين ماضيه وحاضره. وتهدد هذه الهوة صحة استطلاعاتنا المستقبلية. لأن استكشافنا الجديد المستقبلي لا يمكن أن يجري في فراغ بل في سياق التطور الخلاق من الماضي إلى الحاضر فالمستقبل) [4].

وكتابة التاريخ بمنهجية علمية نقدية تجعلنا نميز بين التاريخ الديني والتاريخ العلمي؛ فالتاريخ الديني محاط بهالة مقدسة، بينما التاريخ العلمي يبعد تلك الهالة عنه ولكنه لا ينفي أثرها. وهو يعرض الحقائق بوضوح كما صنعتها على أرض الواقع الدوافع المتعددة ومنها الدين، ولكنه ليس الدافع الوحيد.

كما أن تلك المنهجية العلمية تبعدنا عن المعايير المزدوجة في إطلاق الأحكام، وعدم الوقوع في التناقضات والغموض، فكثير من الباحثين إذا كان

يتحدث عن الصراعات من أجل السلطة لا يوضح كيف يكون الطرفان المتصارعان كلاهما على حق، ويكتفي بالقول أحدهما اجتهد فأخطأ فله أجر، والآخر اجتهد فأصاب فله أجران، ويتهرب من السؤال الأهم وهو من الذي أصاب ومن هو الذي أخطأ؟ ثم كيف يكون أحد الطرفين مخطئاً وله أجر، وفي رقبته آلاف القتلى الأبرياء الذين جرهم إلى القتال، وهذا يناقض حديث النبي عن مصير المسلمَين إذا التقى سيفاهما!

ونشير هنا إلى أن كتب المؤرخين المسلمين القدماء مليئة بالأخطاء نتيجة الخلط بين التاريخ الديني والعلمي، وعلى سبيل المثال كتابة تاريخ بلاد الشام وعلى الأخص فلسطين قبل الميلاد، اعتمدت على الإسرائيليات، وقد أثبت علم التاريخ والآثار أن النبي موسى لم يخرج من مصر ولم يأت إلى فلسطين وبلاد الشام، وأن يشوع لم يدخل أريحا ولا أية بقعة في فلسطين، وأن مملكة داود وسليمان أكاذيب وأساطير لا صحة لها ..[5]

***

العصر الأموي كان عصر الفتوحات واتساع رقعة الدولة وتراكم الثروات ووضع أسس بناء الحضارة. والسلطة الرسمية التي سادت طوال حكم الأمويين، استطاعت ترسيخ الدولة العربية الإسلامية، ذات الطابع السني [6] والتي استمرت حتى العصر العثماني.

وإذا ما استثنينا الخليفة عمر بن عبد العزيز فإن كثيراً من خلفاء الدولة الأموية وأيضاً العباسية خرقوا التعاليم الدينية وكان الأهم عندهم الكرسي والسلطة والدولة. وهنا يجب التمييز بين نظرة السلطة الإسلامية إلى الدين ونظرة المسلمين، فالمسلمون كانوا متمسكين بالدين ولا سيما الشعائر، وخرج منهم العلماء والمفكرون والفلاسفة والأتقياء والمتصوفة.. بينما السلطة لم تكن كذلك. وساهم المفهوم الخاطئ لأولي الأمر بتحمل الوضع، كما ساهم مفهوم انتظار المنقذ والخلاص، في تحمل المعارضة المعاناة والفقر والقهر والقمع!

وقد قامت السلطة الحاكمة على مبدأ التوريث، ومعاوية هو أول من أقام نظام الوراثة وفصل بين الدين والدولة، والمعارضة كانت تطلب السلطة لنفسها كحق وراثي، فلا فرق بين الطرفين من حيث الجوهر، والخوارج وحدهم من طرح ديمقراطية السلطة وكانوا يقبلون بالحاكم دون النظر إلى قبيلته أو كونه ذكراً أو أنثى، كما رأوا ضرورة الخروج على الإمام الجائر.

وتلك الخلفية انعكست على الرؤى الدينية المكونة للتراث فهي لم تشكل في بداياتها هوة بين الأطراف المتصارعة، وكل إشكالياتها جاءت بعد أن تجذر التعارض بين المتخاصمين؛ فأفكار التكتلات/ الأحزاب/ التيارات المتناقضة تبلورت عبر الصراع السياسي/ الاجتماعي/ الاقتصادي..

وساهم الصراع بين السلطة المركزية والمعارضة، إلى امتداد الخلافات والنزاعات لتغطي الساحة العربية الإسلامية. وقد لجأت السلطة إلى قمع المعارضة ونفيها، ولم تكن هناك عملية مصالحة/ توفيق على الإطلاق عبر عصور اعتمدت السيف لغة للحوار.

وفي العصر العباسي نهضت الحضارة التي جوهرها الدين، وتألفت من حلقات امتدت حول النواة/ القرآن والحديث ثم ابتعدت عنهما. واستفادت من الروافد اليونانية والرومانية والفارسية والهندية، وصهرت كل ذلك وتمثلته وأضافت إليه فكرها ورؤيتها الإسلامية.

ومفكرو تلك العصور لم يحاولوا الحوار لحل إشكاليات البنية والتكوين وما تولد عنهما من مفاهيم، بل دفعوا الأمور باتجاه أدلجة فكرهم، وكان كل فريق يفسر الأمور ويؤولها رامياً الآخر المخالف والمساواة والتسامح خلف ظهره. فالصراعات أدت إلى انغلاق المنظومات الفكرية على نفسها ورفضت استيعاب جدلية الأنا والآخر على أرض الواقع المشترك.

ولم يكن الدين - تاريخياً- رادعاً للصدام والتنافس والهيمنة والسيطرة والقتل، لأن الدين كفكر، حيادي، ولكن معتنقيه لم يكونوا حياديين، وما زالت المعاناة من تبعات ذلك القديم حتى الآن!

***

وبدأ انحدار العالم العربي الإسلامي سياسياً واقتصادياً واجتماعياً.. منذ العصر العباسي الثاني (النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي) وكانت له أسبابه المتعددة منها: استبداد الحكام في سلطانهم، والصراعات الداخلية على السلطة، وسيطرة العنصر غير العربي، والتجزئة والانفصال عن الدولة المركزية.. حتى باتت الدولة العربية الإسلامية دولتين، ثم دويلات. وكذلك صار مركز الخلافة رمزاً شكلياً لا أكثر، وأضحت الخلافة خلافتين العباسية والفاطمية. وفي العصر الأيوبي كانت إلى جانب الخلافة السنية الرمزية في بغداد، الخلافة الفاطمية الإسماعيلية في مصر؛ فصلاح الدين الأيوبي في بداية عهده في مصر، دعا باسم الخليفة الفاطمي، بينما هو أي صلاح الدين تابع لنور الدين الزنكي الذي كان يدعو باسم الخليفة العباسي في الشام. ولما توفي الخليفة الفاطمي العاضد ألغى صلاح الدين الخلافة الفاطمية في مصر، وصار يدعو باسم الخليفة العباسي.

كما أن انهيار الحضارة العربية الإسلامية له أيضاً أسبابه المرتبطة جدلياً مع الانحدار السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وليس مجرد انعكاس آلي مباشر.. فالبيئة غير الآمنة ودوائر البحث المغلقة وانعدام حرية الفكر والتعبير، يؤدي إلى توقف البحث والإبداع ويجمد الفكر ويختنق العقل. وقد استمر انحدار الفكر العربي الإسلامي، إلى أن انتهى عهد العقل، وسيطر النقل الذي أسسه الفقهاء ثم الغزالي (توفي 1111م). ومع أن التيار الفلسفي العقلاني وصل إلى ذروته عند ابن رشد (توفي 1198م)، لكن منهجية النقل كانت قد انتشرت وسادت هيمنة الفقهاء التقليديين، وانتهى الاتجاه العقلاني نهاية مأساوية بطرد ابن رشد وحرق مؤلفاته!

وفي القرن الثالث عشر الميلادي حاول ابن تيمية (توفي 1328م) الذي وُصف بمحيي السنة، إصلاح التدهور والانحطاط وانتشار الخرافات في الأوساط الشعبية والبدع بالعودة إلى الأصول "القرآن وأحاديث النبي الصحيحة" ومذهب ابن حنبل، فثبت النص والظاهر، وعطل المنهج العقلي والفكري العلمي، وكفر الفلاسفة وبقية الطوائف غير السنية حتى التصوف

الفلسفي.. وظن ابن تيمية أن ما فعله هو إصلاح ديني ينهض بالمسلمين، ولكن إصلاحه أغلق دائرة البنية الفكرية الدينية وفق رؤيته السلفية المكفرة لكل ما عداها. وفي الوقت نفسه أغلق الفقهاء دوائرهم، مما أدى إلى تحويل المسلم إلى آلة جامدة تكرر نموذجاً سلفياً رسم له مسار حياته في كل صغيرة وكبيرة، وما عليه سوى التطبيق ليكون في الصف الأول مع ذاك السلف، فشل عقله عن الإبداع والتفكير لأن الأولين ما تركوا للآخرين شيئاً. وكان هناك هامش للتفكير أو الكتابة ولكن ضمن سيطرة صياغة القولبة الأحادية، وهي محصورة في الشرح أو الاختصار للدائرة المغلقة في الفقه والتفسير والنحو والبلاغة.. وليس الفلسفة وعلم الكلام لأن (من تمنطق فقد تزندق)، ويجب (إلجام العوام عن علم الكلام)..

وبما أن البيئة الدينية في عصور الانحدار همها استمرارية الطقوس الدينية والحياة الاقتصادية، واجهت المذاهب الدينية المختلفة مشكلات عصورها الاجتماعية والاقتصادية والحقوقية.. وحاولت أن تجد لها الحلول ضمن دوائرها، وصار الفقيه التقليدي المرجعية في أمور العقائد والعبادات والسوق.. وارتبط بالسلطة الحاكمة وأدلج لشرعيتها، ومنهم من قبل بالحاكم وإن كان فاسداً ما دام مسلماً لا يعيق شعائر الدين، بل منهم من أفتى بقبول حكم الفاجر أو الزنديق إن كان الأمر يتعلق ببقاء شعائر الدين وحفظ أمن العباد لأنه - بزعمهم- خير من البقاء بلا حاكم أو الوقوع في الفوضى. ومن الفقهاء من فضل الحاكم العادل وإن كان كافراً، أي إطاعة الحاكم الكافر العادل أفضل من الحاكم المسلم غير العادل كما يقول د. حسن حنفي.

كل تلك العوامل وغيرها أدخلت العرب والمسلمين في غيبوبة فكرية، واستمر الغرق رويداً رويداً في الانحطاط حتى عصر النهضة، لكنها لم تخل من إشراقات مضيئة كظاهرة ابن خلدون!

***

وجاءت النهضة بأفكارها المتعددة والمتناقضة، ونظر معظم المفكرين الإسلاميين إلى التراث والتحديث من خلال بوابة الدين فقط، وصارت دعوة

السلفيين إلى الأصالة حتى الآن تعني المحافظة والعودة لتقليد السلف في كل شيء، أي تحويل الإنسان المعاصر إلى نسخة كربونية عن السلف؛ يفكر بعقلهم ويرى بعيونهم.. يقول د. عبد الله العروي: (الدفاع عن الأصالة هو في آخر التحليل دفاع عن المحافظة) [7]، وهو بعد أن أسهب في الحديث عن الضياع والاغتراب في اللغة والتراث والتاريخ القديم.. قال: (إن السلفي يظن أنه حر في أفكاره، لكنه في الواقع لا يفكر باللغة العتيقة وفي نطاق التراث، بل إن اللغة والتراث هما اللذان يفكران من خلال فكره) [8].

وقد تمحور الصراع بين التيارات والاتجاهات المتعددة حول التراث والتحديث في ثلاثة مواقف بشكل عام:

1- اتجاه متطرف أراد استعادة التراث الديني كله.

2- اتجاه تلفيقي حاول التوفيق بين الدين والتحديث بالبحث عن المقاربات العقلانية. وقد ذكر د. محمد جابر الأنصاري في كتابه (تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي) أن عقلية الصراع الفكري عبر التاريخ هي (الظاهرة التوفيقية)؛ بين القديم والحديث، بين المحافظة والتجديد، بين العقل والنقل، بين المحافظة على التراث والتغريب.. وفي النهضة هناك جدلية التوفيقية بين معارضيها السلفي والعلماني..

3- اتجاه رأى أن التراث الديني تاريخ مضى وانتهى، ولم يعد يسعف في حل إشكاليات الحاضر. والعقل العربي ليس بعاجز عن حل إشكالياته في التحديث وقضايا الحرية والعدالة والأخلاق.. إذا امتلك آلية النقد المنهجي، واستوعب روح العصر على الصعيدين النظري والعملي.

وتلك الاتجاهات تبلورت في أفكار ومفاهيم وتكتلات وتيارات وأحزاب تصارعت فيما بينها خلال مراحل النهوض كلها وحتى الآن على النحو التالي:

في المرحلة الأولى من النهوض كان هناك صراع قديم/ جديد، بين: دعاة العقل × دعاة النقل ← وهو مستمر حتى الآن!

ولكن الصراع الأقوى كان بين تيار الرابطة الإسلامية/ الجامعة تحت السيادة العثمانية × تيار القومية العربية والانفصال عن الدولة العثمانية، وانتصر التيار الثاني ← الثورة العربية الكبرى.

والانتصار أفرز التجزئة والاستعمار، فبدأت الصراعات من جديد: التيار العروبي/ القومي × الاستعمار، بهدف تحقيق التحرر. وتجاوز تيار الجامعة الإسلامية الشماتة إلى الانخراط في المعركة التحريرية: التيار الديني × الاستعمار.

وبدأت معارك التحرير تعطي بعض ثمارها وساد التيار القومي وعاد صراع المرحلة السابقة: التيار القومي × التيار الديني الأممي، وانتصر التيار القومي في معركته الثانية. ولكن ضعف التيار الديني الحزبي ورجال الدين والفقهاء، لم يوقف استمرار الصراع في معركة التجديد بين: دعاة العقل × دعاة النقل.

ورافق سيطرة التيار القومي بعد التحرر من الاستعمار سؤال: كيف النهوض من التخلف الاقتصادي والاجتماعي فكانت ← الاشتراكية بصيغة عربية لتناسب التكوين التاريخي والثقافي والنفسي للعرب × النمذجة الآلية للشيوعيين والماركسيين، وضد التيار الديني الرافض للاشتراكية.

وبقيت الرابطة القومية في صراع × فكرة الرابطة الإسلامية/ الأمة الإسلامية/ الأممية الإسلامية.. وفي الوقت نفسه صراعها × الفكرة الأممية البروليتارية/ الشيوعيين.

واستمر صراع التيار القومي الاشتراكي × التيار الديني، والشيوعي، والليبرالي.. حتى جاءت نكبة حزيران عام 67م، لتفرز ← التيار الليبرالي المتحالف مع التيار الديني، ولكن ما لبث أن وقع الانشقاق بينهما عندما ذهب التيار الليبرالي باتجاه التسوية.

ونتيجة الانحطاط والانهيار والضياع نشط البحث عن الحل، وعاد الصراع من جديد كما في مراحله الأولى:

التيار الديني × تيار القومية (الرابطة الإسلامية × الرابطة القومية)، والتيار الديني × تيار العلمنة، و × تيار الاشتراكية، و × التيار الإلحادي، و × تيار التحديث..

وضمن التيارات الدينية استمر الصراع بين دعاة العقل × دعاة النقل.

وفي الوقت الذي استمر فيه الصراع التقليدي بين التيار التراثي المحافظ/ النقل × التيار التراثي التحديثي/ العقل، وقف كلاهما × التيار الرافض للدين.

وحدثت تفاوتات واسعة بين دعاة التجديد حول الاجتهاد ما بين معتدل ومتطرف، وقد نشأت ضمن التيار الديني التحديثي والعلماني قراءات جديدة للبنية/ القرآن الكريم وكانت في صراع × دعاة رفض القراءة التحديثية للبنية/ القرآن.

وحدث صراع آخر بين أنصار الحديث النبوي "المصدر الثاني للتشريع" × دعاة رفض الحديث كمصدر للتشريع..

وقد دار الصراع الفكري الحاد في عصرنا بين التراثيين والتحديثيين حول الموقف من الدين والدائرة المغلقة التي أسسها الفقهاء والغزالي ثم ابن تيمية. فالتحديثيون اخترقوا الدائرة ومسوا المحظورات الدينية التقليدية على مستوى النص البنية والحديث.. وطرحوا أفكاراً دينية جريئة وفهماً جديداً للدين/ القرآن/ الحديث/ الفقه.. ورفضوا فهم الأوائل والمعاصرين السلفيين للإسلام ورؤيتهم التي صنعتها المخيلة المثالية بأسطورية [9] غير حقيقية/ فوق التاريخ، والتي تختلف عن حقيقته التاريخية.

لكن بعض أطروحات التحديث، هي تنظير آخر ولا تمت إلى الرؤية الدينية بأية صلة!

وعلى صعيد الصراعات السياسية حول القضية الوطنية/ القومية ومشاريع الإمبريالية والصهيونية، تبلور الصراع في برنامجين متناقضين، ولكنهما لم يلغيا الصراعات الفكرية السابقة:

برنامج المقاومة والتحرير × برنامج الاستسلام والسير في العجلة الأمريكية الصهيونية!

وقد انتمت إلى كل برنامج تيارات واتجاهات متنوعة ومختلفة من كل التيارات السابقة مما يؤكد ضرورة ارتباط جدلية الثلاثية (التراث والتحديث والتحرير) لتحديد الرؤية الصحيحة، ولو أخذنا لبنان نموذجاً نرى:

1- تيار المقاومة وقفت معه قوى: دينية إسلامية "سنية وشيعية ودرزية"، ومسيحية "من كل الطوائف"، وقومية ويسارية اشتراكية وشيوعية وعلمانية "من كل الطوائف"..

2- تيار الأمركة والصهينة وقفت معه أيضاً قوى: دينية إسلامية "سنية وشيعية ودرزية"، ومسيحية "من كل الطوائف"، ويسارية اشتراكية وشيوعية وعلمانية "من كل الطوائف"..

ونلاحظ أن القوميين "العرب والسوريين" لم ينضموا إلى التيار الثاني!

وهناك اصطفافات مختلفة حول البرنامجين في الدول العربية الأخرى.

***

التحديث والمعاصرة:

هناك فرق بين التحديث والمعاصرة، فالمعاصرة تسير بخطى وئيدة وتثبت أقدامها، وهي تلعب دوراً ما في التحديث ولكنها ليست هي التحديث.

لقد دخل العرب المعاصرة وبشكل نسبي، والجميع في طريقهم إليها وهذه سنة الحياة الطبيعية في التطور، حتى المتمسك بالتخلف والظلامية صار معاصراً؛ فهو يركب السيارة والطائرة ويستخدم الكمبيوتر والإنترنت، ويمتلئ بيته بكل الآلات الحديثة، ويحمل شهادات في الهندسة والطب والتكنولوجيا.. [10].

فالحياة المعاشة معاصرة وبحسب الوضع الاقتصادي؛ ففي دول البترول هناك تقدم شكلي كبير في الشوارع والأبنية والحدائق والمكاتب والبيوت والكماليات والرفاهية.. وبعضها وصل إلى مراحل تطور شكلية هائلة وتشيع فيها بعض التكنولوجيات قبل أن تشيع في الغرب. وكل ذاك تقدم ونهوض شكلي يتم ضمن التبعية للإمبريالية، ولم يصل إلى بناء الدولة الحديثة والإبداع ومنهجية العقل العلمي والصناعة الثقيلة.. ولم يرتبط بمشروع بناء الأمة العربية، وبناء الإنسان العربي المالك لحريته، حرية الفكر والتعبير عنه في المنهج والممارسة، يقول د. محمد أركون: (أحب أن أميز بين نوعين من الحداثة: الحداثة المادية/ والحداثة العقلية أو الفكرية، فالحداثة المادية متوافرة في مجتمعات إسلامية عديدة، خصوصاً الغنية منها، ولكن الحداثة العقلية هي التي تنقصنا بشكل موجع. يمكن لمجتمع إسلامي غني أن يستورد كل أنواع التكنولوجيا والتجهيزات المخبرية والطبية وأجهزة الكومبيوتر والمعلوماتية. ومع ذلك فلا يمكن أن نعتبره حديثاً، لماذا؟ لأن تحديث العقليات لم يتم، أو لم يصب إلا نخبة أقلية من المثقفين) [11].

والحياة المرفهة على موائد الغرب كطفيليين استهلاكيين مرهونة بما يقدمه الغرب، ويسمح بتصديره وفق رؤيته الإستراتيجية ووفق أيديولوجيته الإمبريالية. لذلك تلك النهضة هي على السطح وليدة سوق استيراد التكنولوجيا الغربية والاستثمارات ورجال الأعمال..

إن كثيراً من المعاصرين لم يتجاوزوا عقلية القرون الوسطى حيث ما زالت تسود مفاهيم الإقطاع والمجتمع الزراعي وقيمه وعقليته، العقلية العشائرية والعائلات الكبيرة، وسلطة الأب الذي بيده ملك كل شيء وهو الآمر الناهي وهو الأعظم والأقدر والأقدس، كما تسود الخرافات وتفاهات الأمور..

وأولئك يعانون من انفصام/ ثنائية: فكر موروث في اللاشعور مختزل في الأعماق (بإيجابياته وسلبياته وأخطائه) منذ قرون طويلة، وتلك المعاصرة الشكلية، الجسد المعاصر في فكر مغاير، أو ثوب معاصر بمضمون متخلف وقصور في الرؤية والتحليل، وانحطاط الفكر والذوق والفن والأدب..

والشكل المتطور لن ينهي إشكالية التخلف، ولن يصنع التحديث الحقيقي القائم على المنهج العلمي واستيعاب روح التطور التكنولوجي الناتج عن تطور بنية الفكر نفسها.

***

لقد تم استيراد العلم وبعض التكنولوجيا من الشرق والغرب، وأرسلت البعثات للخارج وحصلت على أعلى الشهادات الأكاديمية منه، ولكن ذلك لم يحقق التحديث ولم يحول الدول العربية إلى دول علمية منتجة للعلم التطبيقي/ التكنولوجيا. فإذا جردنا العالم العربي من التكنولوجيا المستوردة من الشرق ومن الغرب، فما هو وضعه؟!

يقول د. زكي نجيب محمود: (لولا علم الغرب وعلماؤه، لتعرت حياتنا الفكرية على حقيقتها، فإذا هي حياة لا تختلف كثيراً عن حياة الإنسان البدائي في بعض مراحلها) [12].

وهنا يتساءل د. عبد الله العروي: (هل استوطن العلم الحديث في البلاد العربية كما استوطن في اليابان أم لا؟) [13].

والجواب بالطبع لم يستوطن، فمعظم الأكاديميين العائدين من الغرب ما هم إلا نسخ عن الكتب النظرية في العلوم ينتهي بهم الأمر كمدرسين في الجامعات، أو العمل في غير اختصاصهم وهو نوع من البطالة المقنعة!

إن الغرب لن يمنع العرب وغيرهم من العلم والتكنولوجيا المحدودة لأن طبيعة بنية النظام الرأسمالي القائمة على الإنتاجية المعدة مسبقاً للسوق والربح، جعلت العلم والتكنولوجيا منتجين/ سلعتين تنتظران الشاري. ولو أوقفت الرأسمالية الغربية التصدير لأفلست هي، لذلك تبحث دائماً عن أسواق لتصريف منتجاتها، وقد تصل بها الأمور إلى درجة إشعال الحروب من أجل إنفاق بضائعها الفائضة والمخزنة!

فالغرب يصدر السلع والتكنولوجيا كما يصدر العلوم والنظريات الفلسفية والمذاهب والأيديولوجيات والفن.. وهنا تستطيع البشرية كلها امتلاك العلوم بالمال، ولا سيما بعد أن ساهمت ثورة الاتصالات في تقريب المنتج من المستهلك.

ولكن حاجة النهوض لا تكمن فقط في جلب العلوم، وإنما في العلوم التطبيقية/ التكنولوجيا، في الصناعة الثقيلة، في الاستغناء عن صناعات الغرب ومنتجاته.. لذلك في الدول التابعة تروج الصناعات المحلية الخفيفة الاستهلاكية، الغذائية، التحويلية، التجمعية، الترفيهية.. التي لا تؤدي إلى خلق صناعة حقيقية تنهض باقتصاد البلاد!

الغرب لا يريد العرب أن يكونوا دولة علمية قوية قادرة على التطور والنهوض، ولا يريد أيضاً انتشار التفكير العلمي المنهجي في الوطن العربي، فمصلحته أن تبقى الدول العربية دولاً متخلفة ومجزأة ضعيفة تعتمد عليه، وقد نجح في ذلك إلى حد كبير وجعل الأنظمة العربية التابعة له تبني مجتمعاتها على المعاصرة وليس التحديث، وتلك الأنظمة لا تريد أكثر من ذلك!

***

الدين والعلم:

إن الدين لم يطرح نفسه بأن مهمته علمية يشرح فيها الوجود المادي للكون والبشرية وتقديم النظريات العلمية، فالقرآن الكريم كتاب ديني وليس كتاباً في العلوم.

والعلم ليس هو فقط علم الطبيعة كالفيزياء والبيولوجيا والفلك والطب.. بل هو أوسع وأشمل فهناك العلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية والقانونية.. والتعامل مع تلك العلوم المتعددة يتعلق بالإنسان خلال جدله مع الوجود والآخر.

والمشكلة ليست في النص لأن النص يطرح مفاهيم عامة إرشادية وتوجيهية للمسلم، وقد طرح الوجود للتأمل والاستدلال على وجود الله. والخطأ يكمن في محاولات إسقاط النظريات العلمية على خطاب تأمل الوجود كما فعل د. زغلول النجار وغيره في المرحلة الثالثة من النهوض، وما هو إلا تكرار لما فعله أسلافهم في مرحلة النهوض الأولى كطنطاوي جوهري، وقد وصل بعضهم في طرحه إلى شطحات خيالية [14]، ومنهم من بالغ فادعى بأن أفكار الغرب وعلومه قالها القرآن والمسلمون قبلهم، وهذا الكلام غير المسؤول يدين القائل والعقل الإسلامي وليس مفخرة لهما، فأين العقل الإسلامي الذي لم يكتشف ذلك، بينما العقل الغربي استطاع أن يكتشفه؟!

ولماذا لم يتحدث أحد التراثيين الإسلاميين عن بعض العلوم قبل معرفتها من الغرب، وكذلك النظريات العلمية التي يراها في القرآن الكريم؟!

لِمَ لمْ يدرس الغيورون التراث الإسلامي ليستخرجوا منه العلوم والنظريات قبل أن يكتشفها الآخرون، فتكون سابقة يفتخرون بها، ولكن هل يستطيع أولئك أن يكتشفوا شيئاً جديداً لم يقله العلم الغربي بعد!؟

إن تبني فكرة أو نظرية قادمة من الغرب تبقى لحساب الغرب، فإن لفق أحد ما وجودها في التراث فلن يغير من الأمر شيئاً لأن تبنيها كان عن طريق الغرب، فالغرب يكتشف ويبدع، بينما بعض الإسلاميين لشعور النقص

لديهم يسقطون ذلك قسراً على النص ظناً منهم بأنه مطابقة سليمة، وبأنه يخدم إعجاز النص ونسبته!

يقول د. هشام شرابي بأن الشعور بالنقص تجاه الغربي ولد الاعتزاز بالتراث والتمثل بحضارتنا وأن الغرب نهض عليها، وهو يرى أن تاريخنا المعاصر منذ عصر النهضة: (حلقات من ردود أفعال متتالية على التحدي الغربي) [15].

الدين ليس مقابل العلم، وقوانين الوجود والنظريات العلمية تستنتج من قراءة الوجود وليس من قراءة النص القرآني.

خاطب د. أركون المسلمين قائلاً: (القرآن ليس كتاب علوم طبيعية ولا كتاب علوم رياضية أو فيزيائية أو بيولوجية. القرآن هو كتاب ديني عظيم يستمد عظمته ومكانته من كونه، أولاً وآخراً، أحد الكتب الدينية الأساسية في تاريخ البشرية. فلماذا تحاولون أن تحشروا فيه كل علوم الأرض وتحملونه ما يطيق وما لا يطيق؟ إنه ليس بحاجة إلى ذلك. إنكم تسيئون لقيمته الدينية والروحية ولفكرة التعالي المطلق التي طالما ركز عليها القرآن الكريم وشكلت ميزته الأساسية) [16].

وقال أيضاً: (ينبغي أن يستيقظ المسلمون، أن يفتحوا عيونهم، أن يقرأوا القرآن بعيون جديدة، أن يتموضعوا في عصره وبيئته لكي يفهموه على حقيقته. وعندئذٍ لا يعودون يسقطون عليه أفكار عصرهم وهمومه، أو نظرياته وأيديولوجياته. فالقرآن ليس كتاباً في علم الفيزياء أو الكيمياء، ولا في علم الاجتماع والاقتصاد. وهو لا يفرض نظاماً اقتصادياً محدداً دون غيره، ولا نظاماً سياسياً معيناً. هذه أشياء متروكة للبشر لكي يحلوها طبقاً لقوانين علم الاقتصاد والاجتماع والسياسة. القرآن هو أولاً وقبل كل شيء خطاب ديني يتحدث ببلاغة عالية عن موضوعات أساسية تخص البشر أينما كانوا: كالحياة، والموت، والآخرة، والعمل الصالح، والعدل، وحب الجار.. إلخ. وفيه مبادئ أخلاقية ذات طابع كوني كتلك الآية التي تقول: "من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره". ألا يكفي هذا المبدأ

الأخلاقي وحده لكي يوجّه كل سلوكك وكل حياتك الشخصية في المجتمع؟) [17].

إن الحل يكمن في خروج البعض من عقد الشعور بالنقص تجاه العلم الغربي، فنحن لسنا ضد العلم الغربي وفكره إن كان إنسانياً وأخلاقياً فهو ملك البشرية جمعاء، ولكننا ضد الغرب المنفعي/ البراغماتي لأنه لا يحمل قيم الإنسان، وقد انقلب باتجاه الاستعمار المتوحش والاستغلال الظالم والنهب والانحطاط اللاأخلاقي وهو محكوم عليه بالسقوط كما يرى كثير من المفكرين الغربيين مثل ولسون وإشبنغلر..

والمنهجية العلمية والعلم التجريبي لا علاقة لهما من قريب أو بعيد بالدين. والغرب العلمي والعلماني فيه ملايين المتدينين [18] ولم يمنع ذلك من التقدم والإبداع، لأن العلم والفكر العلمي والتجربة العلمية ليس في المعبد وإنما في المخبر!

فإذا أُعطي العلم والتجربة المكانة الأولى، لا يزعزعهما أي شيء. وعندما يقول المتدين بسم الله قبل التجربة كقضية معنوية لتمنحه الثقة والاطمئنان، يعرف تماماً بأنها لن تؤدي إلى نجاح التجربة إن كان هناك خلل تقني، وأيضاً لن تؤدي إلى فشل التجربة إن كانت الأمور التقنية صحيحة!

وقد أثبتت تجربة إيران أن الدين لا علاقة له بمسار تطور الدولة الصناعي والتكنولوجي لأنهما يقومان على العلم والتفكير العلمي.

***

الاعتزاز بعلماء العرب وفلاسفتهم ومفكريهم وما قدمه العباقرة منهم أمر لا ينكره أحد، وتبقى لهم المكانة الكبيرة عربياً وإسلامياً وعالمياً، حتى في الغرب فهناك الكثيرون الذين أنصفوا الحضارة العربية الإسلامية وفضلها على العالم ونهضة أوروبا من جهلها وظلامها. ولا يستطيع أحد أن ينكر ذلك إلا إن كان جاهلاً أو متعصباً ومتشنجاً ضد العروبة والإسلام!

لكن العلوم الحديثة والمعرفة والثقافة تجاوزت كل ما قدمه أولئك، وردم الهوة الزمنية بين العرب والعالم المتقدم تنطلق من النقطة التي وصل إليها العالم المتقدم في العلوم والاختراعات.

وكل شعب مهما صغر أو كبر يأخذ ويعطي وهو في عملية جدلية مع الآخر لأنه جزء من العالم الذي صار قرية صغيرة. ولا يعيب العرب الاعتماد على الغرب أو الشرق في نهضتهم، فهذه طبيعة الحياة وللدول أعمار كما قال ابن خلدون، ولكن العيب ألا يتابعوا باتجاه الإبداع والتصنيع والتطوير في المجالات كلها، وأن تكون لهم شخصيتهم وهويتهم واستقلالهم.

***

ليست القضية صداماً مع التراث، فهو أحد أركان الجدلية، ولكن المهم إعادة النظر فيه بروح علمية موضوعية، لتوظيفه في النهضة والتحديث، وتوحيد رؤية جوهر الصراع ضد الأعداء، والتخلي عن مفاهيم ليست جامعة كالمصطلح القديم صراع المؤمنين والكافرين، وبلاد الإسلام وبلاد الكفار/ الصليبيين/ النصارى، دار السلم ودار الحرب.. لأن الصراع الآن هو صراع العربي (المسلم والمسيحي) ضد المشروع الإمبريالي الصهيوني. وهذا الصراع لا يواجه بالشعارات والأدلجة بل بفكر علمي متكامل وبرنامج ملموس على الصعيد السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

والصراعات الفكرية بين التراثيين والتحديثيين، لم تصل إلى صياغة الفكر العربي الجديد ونظرية المعرفة الحديثة لأسباب متعددة دوافعها تشنجية أو نرجسية أو أصولية عند الكثيرين، والأصولية ليست أصولية دينية فقط عند قسم من المسلمين أو المسيحيين، وليست أصولية طائفية فقط، بل هناك أصولية علمانية وأصولية يسارية وأصولية ليبرالية.. وكل واحدة تريد نفي الأخرى، ولا تبحث عن نقاط يلتقي فيها الجميع لمواجهة الخطر الحقيقي على الأمة العربية والإسلامية في المعادلات الجديدة التي تريد إعادة بناء المنطقة وفق منظور المصالح الأمريكية الصهيونية!

* * *

الهوامش

(1) د. علي زيعور: التحليل النفسي للذات العربية "أنماطها السلوكية والأسطورية" - ص 114، 115.

(2) راجع كتاب د. نور الدين طوالبي "في إشكالية المقدس".

(3) د. عبد الله العروي: الأيديولوجية العربية المعاصرة - ص 83.

(4) د. حسن صعب: الإنسان العربي وتحدي الثورة العلمية التكنلوجية - ص 103.

(5) راجع كتاب: "فلسطين والمؤرخون العرب القدماء" لجميل خرطبيل.

(6) معاوية وأنصاره كانوا من السنة وإن لم يسموا وقتها بذلك، مقابل الشيعة في المعارضة وغيرها..

(7) د. عبد الله العروي: العرب والفكر التاريخي - ص 37.

(8) المصدر السابق - ص 186.

(9) راجع كتاب د. محمد أركون: قضايا في نقد العقل الديني - ص 49، وكتاب "الفكر الأصولي واستحالة التأصيل" - ص 66.

(10) يقول د. فؤاد زكريا بأننا كلنا نعيش المعاصرة حتى العظم، وفي أحدث ما توصلت إليه التكنولوجيا الحديثة، حتى المتخلفين والرجعيين. "راجع مقالته: وهم الأصالة والمعاصرة - العربي - العدد 316 - مارس 1985..

(11) د. محمد أركون: قضايا في نقد العقل الديني - ص 289.

(12) د. زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي - ص 61.

(13) د. عبد الله العروي: ثقافتنا في ضوء التاريخ - ص 117 وما بعد.. ويذكر مقاييس تغلغل العلم التجريبي: عدد المتخرجين، براءات الاختراع، المساهمات الإبداعية..

(14) راجع كتاب د. رشاد خليفة: عليها تسعة عشر "الإعجاز العددي في القرآن الكريم".

(15) د. هشام شرابي: مقدمات لدراسة المجتمع العربي - ص 120.

(16) د. محمد أركون: الفكر الإسلامي - ص 297.

(17) د. محمد أركون: قضايا في نقد العقل الديني - ص 285، 286.

(18) في الولايات المتحدة أكثر من 60 % من الأمريكيين متدينون، وبعض الإحصائيات أوصلت النسبة إلى 80 %. كما أن ربع الأمريكيين تقريباً يؤمن بهلوسات الألفية السعيدة وارتباطها بإقامة الكيان اليهودي. وفيها من يؤمن بالخرافات بشكل عام وقراءة الغيب كأي شعب متخلف.. وهناك عشرات المذاهب والطوائف المتفرعة عن المسيحية وغيرها أو المبتدعة ولم تكن عائقاً أمام التقدم المادي. وتلك الصورة نجدها عند الشعب الأوروبي ولكن بنسب مختلفة.

وديانة اليابان البوذية والكونفوشوسية لم تكن عائقاً أمام تطورها الحضاري المذهل!

* * *

الفصل الثاني:

المرحلة الأولى من النهوض

بدايات اليقظة العربية:

ليس الهدف هنا الدراسة التفصيلية لتاريخ اليقظة الأولى فقد أشبعها الدارسون المعاصرون تحليلات ونقداً، ولكن الهدف التقاط أفكارها ومفاهيمها الأساسية التي طرحتها، لمتابعتها عبر مراحل النهوض القادمة.

لقد مثل شيوخ المساجد والفقهاء الوجه الثقافي في عصور الانحدار، وكانت صرخات احتجاج الشيوخ وبعض الكتب التي ظهرت، تشير إلى واقع الفساد والجهل والخمول والخرافات والبدع.. ولكن محاولات الوعظ والإصلاح كانت تذهب أدراج الرياح. وما حركة الإصلاح الديني التي قادها محمد بن عبد الوهاب (توفي 1787م) [1] في الجزيرة - وهي أشد تخلفاً من مصر في ذلك الوقت- إلا نموذج تحولت فيها أفكار الإصلاح الديني إلى ممارسة عملية حاربت الخرافات والشعوذات وكل أنواع البدع التي لم ترد في النصوص الصحيحة.

وعندما غزا نابليون مصر عام (1798م) لم يكن هدفه نشر مفاهيم الثورة الفرنسية والتحديث، وإنما جاء ليحتل وينهب كطبيعة استعمارية. وقد كانت الهوة سحيقة بين المصريين والمستعمر في كل شيء بدءاً من الأسلحة واللباس والعادات والتقاليد والعلوم والفكر والمسرح والمطبعة.. وانتهاء بإصلاحات نابليون الإدارية (دواوين تنظيم الشؤون الإدارية والمجمع العلمي المصري لنشر العلوم والمعارف..)، وكل ذاك ولد انبهاراً ولكن استيقاظ المشاعر الوطنية الدينية ضد الوافد الفرنجي/ الصليبي (كما سمي) كانت أقوى من الانبهار، وكانت النتيجة عودته مدحوراً إلى فرنسا عام (1801م) بعد هزيمته على أسوار عكا بفعل عوامل عدة!

إن صاحب المشروع النهضوي الأول في مصر لتحديث الدولة والجيش والاقتصاد والتعليم هو محمد علي باشا (توفي 1849م) [2]، الذي كان على صلة بالغرب مباشرة قبل مجيئه إلى مصر. وقد سعى لبناء جيش قادر

على حماية مزرعته (مصر) من الخطر الخارجي، وبدأ بإنشاء مؤسسات عديدة لخدمة تلك الفكرة وبمعنى ما صنع دولة لجيشه العصري وكان هو على رأسه كقائد عسكري ورجل دولة. ومع أن النهوض والمعاصرة والتحديث في ذلك الوقت كان يعني عملياً الخروج من عقلية العصور الإقطاعية إلى عقلية العصر الليبرالي الرأسمالي على النمط الغربي، لكن مشروع محمد علي لم يلتفت إلى تحديث الفكر العربي وتحقيق الحرية والديموقراطية للشعب، بل لم يكن الشعب في حسابه سوى عبيد لمشروعه!

وطموحه السياسي دفعه إلى التوسع الإمبراطوري في بلاد الشام فوجه إليها ابنه إبراهيم لتحريرها من الأتراك، واضطر السلطان العثماني محمود إلى قبول تعيين إبراهيم والياً على سورية. وتابع إبراهيم طموح أبيه الذي بينه والسلطان عداوة، وكانت الطريق سالكة أمام جيشه إلى عاصمة الإمبراطورية العثمانية، إلا أن بريطانيا وروسيا خشيتا من طموحات محمد علي، ففرضتا عليه إعادة جيشه إلى مصر على أن تبقى مصر له ومن بعده لأولاده بمقتضى معاهدة لندن عام 1841م.

إن ما صنعه محمد علي عملياً توحيد مصر والسودان وقسم من الجزيرة وبلاد الشام، وكان المشروع الوحدوي الأول في عصر النهضة لبناء الدولة العربية المستقلة عن الأتراك والغرب (تأسيس مملكة عربية عاصمتها القاهرة)، ولكن لم يكن قصده إقامة مشروع قومي عربي فهو أمي ولم يكن يعرف العربية، وقد شجعه الفرنسيون بهدف ضرب السلطنة ولمنع الإنكليز من السيطرة على المنطقة. فمشروعه مشروع قائد عسكري إقطاعي حلم بإمبراطورية تكون له مزرعة واسعة الآفاق!

لقد اعتمدت خطة محمد علي في النهوض على ما وصل إليه الغرب في شؤون الإدارة والعلوم والصناعة في تلك الفترة، وقد أرسل البعثات إلى أوروبا في كافة الاختصاصات لتنهل من شتى أنواع العلوم منها، ولكن دون العادات والتقاليد المخالفة للإسلام.

والرواد الذين صنعوا مشروع النهضة الفكرية والثقافية تأثروا كثيراً بالثورة الفرنسية وبحركة التنوير الفرنسية العقلانية (Enlightenment)، وسيطرة العقل التجريبي الوضعي النقدي، فالإنسان سيد نفسه وسيد الطبيعة ولا سيد آخر (لا سلطان على العقل إلا للعقل). وقد أطلقوا على التنوير العربي تسمية النهوض أو الإصلاح أو التجديد.. ودعوا إلى تحديث الدين وأكدوا على ضرورة الاجتهاد والتأويل في النص الديني ليتوافق مع معطيات عصرهم، والتأويل عملياً هو نقد للفهم التاريخي للنص.

وقد ترجموا النظم السياسية والفكرية ومفاهيم الحرية والديموقراطية ومفهوم الدولة القائم على عقد اجتماعي بين الدولة والمواطن "جان جاك روسو" تكون بموجبه الدولة لشعبها/ لمواطنيها، ويكون انتماء المواطن إليها وليس لأي دين أو طائفة أو مذهب، وهي الضمان له ولحياته وأمنه وحريته من خلال القوانين.

لكن مقولات الحرية والديموقراطية والعدالة لم تكن واضحة المعالم في البدايات، فمفهوم الحرية لم يكن يعني الحرية السياسية في الرأي والانتماء والتعبير عنهما دون قيود، ومفهوم العدالة كان يعني رفع الظلم الاجتماعي وليس تحقيق العدالة الاجتماعية. والديموقراطية كانت تقابل المصطلح القديم "أهل الحل والعقد"، "الشورى".. ولكن الشورى ككلمة عامة ليست هي المساوية لمفهوم الديموقراطية، وليس الإجماع بين علماء الدين هو المساوي للرأي العام، فأهل الحل والعقد هم الصفوة/ النخبة وليس عامة الشعب.

ثم فيما بعد أخذت تلك المفاهيم مدلولاتها الصحيحة فطالب كثيرون بحكم الشعب من خلال تمثيله في البرلمانات المنتخبة.

يقول د. محمد أركون، بعد أن يذكر بأن بذرة الديمقراطية موجودة في كلمة "الشورى": (ولكن هناك فرقاً كبيراً بين الديوقراطية بالمعنى الحديث للكلمة وبين الشورى. فالشورى محصورة بالفئة العليا من كبار المسلمين، في حين أن الديمقراطية تشمل جميع البشر في المجتمع دون استثناء وبغض النظر عن أديانهم ومذاهبهم وأعراقهم وقبائلهم..) [3].

كانت مصر الحلقة المركزية في النهضة لتحررها من سيطرة السلطة العثمانية التركية الإقطاعية الاستبدادية، مع أن لبنان كان الأسبق في النهضة من منها بسبب البعثات التبشيرية التي عملت على بناء الكنائس والمدارس ونشر الكتب والتعليم، إضافة إلى صلة المسيحيين الدائمة بأوروبا.

وقد أثرت مصر في رواد النهضة في الشرق العربي وغربه، فخير الدين التونسي تأثر بالطهطاوي، كما أن الكواكبي من سورية ومحمد بن باديس من الجزائر تأثرا بمحمد عبده، وتأثر المهدي في السودان بالأفغاني ومحمد عبده..

وعلى الرغم من تحرر مصر من السيطرة العثمانية إلا أنها بقيت تدور في فضاء السلطنة وانعكس ما كان يجري هناك في معظم أطروحات رواد النهضة في مصر ولا سيما في عهد السلطان عبد الحميد والانقلاب عليه، ثم في عهد مصطفى كمال "أتاتورك" وعلمانيته التي ارتبطت بإلغاء الخلافة عام 1924م والشريعة الإسلامية، وإحلاله القانون السويسري مكان المحاكم الشرعية وتعديل قانون الأحوال الشخصية في الإرث ومنع تعدد الزوجات وحصر الطلاق في المحاكم المدنية..

ودعا إلى تقليد الغرب في كل شيء حتى سفور المرأة واللباس كالقبعة "البرنيطة".. وعلى صعيد اللغة ألغى استخدام الحروف العربية وفرض الكتابة بالحروف اللاتينية.

وعمل الرواد على نشر تلك الأفكار وتعميمها، ولعبت المطبعة [4] والصحافة دوراً أساسياً في ذلك، يقول د. محمد أركون: (وفي جو النهضة الليبرالي كثرت المجلات والصحف على اختلاف ميولها ويسرت اتساع المناظرات السياسية - الدينية والمنازعات العلمية والمحاولات الانتقادية والأدبية ذات المدى التربوي الكبير. ولا يمكن المبالغة في تبيان أهمية دور الصحافة هذا في الانفتاح على العالم الخارجي..) [5].

***

لقد تبلورت بشكل عام قواسم مشتركة بين التيارات والاتجاهات الإصلاحية كالدعوة إلى العلم وتشغيل العقل وتحقيق العدالة والمساواة بين الجميع أمام القانون والحرية والديموقراطية..

وضمن التيارات الدينية كان هناك تناقض حاد بين الأصوليين التقليديين السلفيين والإصلاحيين يمكن حصرها منهجياً في قضيتين جوهريتين: 1- الاجتهاد، 2- النقل/ الوحي، والعقل/ الرأي.

ومقابل القواسم المشتركة كانت هناك أفكار لم تحظ بالإجماع كالعلمنة والفكر الاشتراكي والتحديث المبني على الفكر والنظم الغربية وقضية المرأة.. وأنصار تلك الأفكار كانوا أقلية أمام الاتجاهات الدينية "السنية" الأقوى والتي رأت أن النهوض يكمن في إحياء الدين والأخذ بالعلوم الغربية إلا ما تعارض منها مع الدين.

وقد تصارعت الأفكار والمفاهيم المتناقضة في فضاء ليبرالي إلى حد ما بشرط ألا تنتهك الخطوط الحمر الدينية، فإن انتهكت بمقاييس التيار الديني المتشدد يتدخل بما له من تأثير على عقول الناس وعلى الرأي العام والقدرة على تحريك الشارع، فعندما نشر د. زكي مبارك (توفي 1952م) كتابه (النثر الفني في القرن الرابع) عام 1934م، كفره التيار وجيش الشارع ضده ولاحقه فهرب [6]. وكذلك فعل مع طه حسين كما سيأتي. وهذا الأمر سيتكرر في المراحل اللاحقة ضد من يمس المحظورات!

لقد لعب الدين دوراً كبيراً في تاريخ المسلمين وحياتهم، وعندما احتل المستعمر الغربي البلاد العربية ومارس القتل والتدمير والاضطهاد والقمع والظلم والنهب.. ولا سيما في الحرب الأوروبية الأولى، ثم الحرب الأوروبية الثانية وما نتج عنهما من ازدياد الفقر والجوع والانحلال والفساد.. كان الدين الإسلامي ملاذاً للمسلمين للاحتماء به كتعويض وعزاء ودافع لمقاومة الاستعمار وجرائمه الفظيعة وسوء الأنظمة..

وفي هذه المرحلة ونتيجة الامتداد الديني نشطت الحركات الإسلامية والمؤسسات والجمعيات وانتشرت معها الكتب والمجلات الدينية ولا سيما خلال الثلاثينيات والأربعينيات.

وقد انخرط كثيرون في الكتابة عن الإسلام من التيار الديني وغير الديني كطه حسين الذي كتب "على هامش السيرة" و"الفتنة الكبرى" و"الشيخان" و"علي وبنوه"، وكتب محمد حسين هيكل "توفي 1956م" عن "حياة محمد"، وألف العقاد العبقريات..

ولكن عد بعض الباحثين الإسلاميين الأصوليين أن ما كتبه طه حسين وآخرون من غير التيار الديني نفاقاً ليسايروا تأجج المشاعر الدينية وامتداد الوعي الديني بين الناس [7]، متجاهلاً مساهمة ما كتبه أولئك إلى جانب عشرات الكتب لغيرهم في إحياء التاريخ العربي الإسلامي وحضارته لمواجهة التحدي الحضاري الغربي. ولم يكن الهدف منها التملق والنفاق ولا صد الامتداد الديني، ومن حق الكاتب في كل عصر قراءة التراث وإبداء وجهة نظره فيه!

***

إن تقسيم الاتجاهات الفكرية المتنوعة إلى تيارات أساسية إنما هو لتسهيل البحث ولا يعني حدية التعريف، لذلك يمكن أن نجد مفكراً مذكوراً في تيارين أو أكثر، فالكواكبي من التيار الإصلاح الديني وهو في الوقت نفسه من التيار العروبي فقد دعا إلى الانفصال عن الدولة العثمانية، وأيضاً هو علماني فقد دعا إلى فصل الدين عن الدولة. ومحمد عبده من تيار الإصلاح الديني ولكن له رؤى تقربه من العلمانيين. وهناك عروبيون إسلاميون وعروبيون علمانيون..

وذاك الفرز العام التقريبي سنجده في المرحلة الثالثة من النهوض مع تعديلات تعكس طبيعة المرحلة وتطورها.

وتحليل الرواد للواقع العربي الإسلامي بكل جوانبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية كان متنوعاً ومتفاوتاً بين مفكر وآخر، وكذلك رؤاهم التحديثية، فهم في مناقشاتهم للموضوعات العديدة لم يكونوا في مستوى واحد، ولم يكونوا متجانسين في أطروحاتهم المشتركة حول الموضوع الواحد.

***

آ- التيار الديني الأصولي السلفي التقليدي:

هذا التيار عملياً يتألف من تيارات متعددة لأنه ليس متجانساً وفيه اختلافات في وجهات النظر، لكن في هذه المرحلة سنكتفي ببعض الأفكار العامة التي يلتقي حولها معظم السلفيين، أما في المرحلة الثالثة فسنصنف التيارات الدينية بحسب رؤيتها.

السلفيون التقليديون رفضوا فكرة تحديث الإسلام، لأن الإسلام كامل ومطلق كما ذكر شيخ الإسلام مصطفى صبري (توفي 1954م)، وحسن البنا مؤسس حركة الإخوان المسلمين [8] والسلفيون الوهابيون/ أتباع ابن تيمية [9]..

وقد رأوا أن الاجتهاد يرتبط بالأمور المستجدة فقط، وهو لا يمس الأصول نفسها.

وقد أعطوا الأولوية للفهم الظاهر للنص ما دام نقله صحيحاً، فالنقل قبل العقل. ويعللون رأيهم بأن العقل قاصر عن إدراك وفهم بعض الأمور التي قد تظهر مخالفة للعقل. وهناك مواضيع خارج نطاق العقل كالغيبيات ومصدرها النصوص الصحيحة فقط.

وقد انتقدوا معظم الأفكار الإسلامية الإصلاحية لخروجها على التمسك الحرفي بالنص، وأدانوا انفتاح المرنين على الاجتهاد واتهموهم بأنهم يريدون تجميل الدين في عيون الغرب، فالإسلام مقبول كما هو وليس بحاجة للتزلف إلى الغرب.

كما رفضوا الفكر المعتزلي والأشعري أيضاً لأنه أي الأشعري حاول التوفيق العقلي بين الاعتزال وأهل السنة.

وكفروا الفلسفة لأنها وضعت العقل فوق النقل، والمتصوفة لقولهم بظاهر النص وباطنه، ومنهم من قال بالحلول أو الاتحاد، ومنهم من تهاون بأمر العبادات وتجاوزها أو عدها للعوام.

وقد عدّوا الفصل بين الدين والدنيا كفراً لأن الإسلام شمولي وهو ليس مجرد فقه العبادات، بل تشريع أيضاً لنظام الحكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع..

واتهموا أفكار العلمنة والقومية والتحديث بأنها غريبة حملها المتفرنجون/ التغريبيون/ المتغربون، بتوجيه من الغرب "الكافر/ الصليبي/ النصراني/ الاستعماري.." لضرب الإسلام، والقضاء على الدين وتغييب التاريخ والهوية. والحل لا يكون إلا بقيام دولة إسلامية تستند إلى الشريعة في الدين والدنيا.

والتيار يرى نفسه الفرقة الوحيدة الناجية استناداً لحديث ورد عن النبي بصيغ مختلفة: (ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة)، (تفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة، قالوا ومن هي يا رسول الله قال ما أنا عليه وأصحابي) [10].

* * *

ب- تيار الإصلاح الديني:

رواد الإصلاح الديني كانوا يمارسون الشعائر الدينية ولم يكن بينهم خلاف حول العبادات، وقد أجمعوا على الاهتمام بالعلم وإصلاح المجتمع من البدع والخرافات والفساد والظلم والعادات السيئة المخالفة للدين..

وقد تبنى الرواد منهج المعتزلة كالطهطاوي والأفغاني ومحمد عبده.. وقدموا العقل على النقل للتوفيق بين الإسلام والتحديث. فإذا تناقض النقل مع العقل فللعقل الأولوية، وهذا يعني تأويل النص بما يناسب العقل.

وقد عدّ أحمد أمين (توفي 1954م) القضاء على المعتزلة من أكبر مصائب المسلمين: (في رأيي أن من أكبر مصائب المسلمين موت المعتزلة) [11].

ومن مفكري هذا التيار:

- **رفاعة الطهطاوي** (توفي 1873م): أرسله محمد علي باشا إلى باريس على رأس البعثة الأولى كمشرف عليها عام 1826م. وهناك تعلم الفرنسية ودرس الآداب والعلوم واطلع على مختلف أنواع الثقافة، واتصل بالعلماء والمفكرين الفرنسيين، وترجم من مختلف العلوم، وعاد إلى مصر بعد ست سنوات، وأنشأ مدرسة الألسن الشبيهة بالجامعة لتعليم اللغات

الفرنسية والإنكليزية والإيطالية والتركية والفارسية، وعلوم التاريخ والجغرافيا والشريعة الإسلامية والشرائع الغربية.. وقد تولى فيها منصب الترجمة، وفي عهد إسماعيل عام 1863م ترجم القوانين الفرنسية.

يعد الطهطاوي أول من صاغ فكر النهضة كما يقول د. معن زيادة: (الرائد الأول لمجمل الفكر العربي الحديث)، وقد: (وضع المعالم الأولى لمركب ثقافي جديد يجمع بين الحداثة والتراث) [12].

فهو أول مفكر ليبرالي دعا إلى أخذ العلوم عن الغرب وإعمال العقل والفكر، ففي كتابه (مناهج الألباب المصرية في مباهج العلوم العصرية) تحدث عن أهمية العلوم والتكنولوجيا والاختراعات في النهضة. وفي كتابه (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) حاول التوفيق بين الدين والعلم، والتوفيق بين بعض ما ورد في الدين عن السياسة والحكم والأنظمة الوضعية الفرنسية. وقد رأى أن مفهوم الحرية الغربي يقابله في الإسلام "العدل والإنصاف"، وعد العدل في مفهوم الفقه الإسلامي أساس النهضة: (وما يسمونه الحرية في فرنسا ويرغبون فيه هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والإنصاف. وذلك لأن معنى الحكم بالحرية، هو إقامة التساوي في الأحكام والقوانين بحيث لا يجور الحاكم على إنسان، بل القوانين هي المحكمة والمعتبرة) [13]. وهو أول من دعا إلى مشاركة الأهالي في إدارة بلديات المدن والقرى "أي الإدارة المحلية في مفهوم العصر".

لقد أثارت فرنسا إعجابه في كل شيء كما أثارت غيره من الذين زاروا أوروبا، وأحب بدوافع وطنية أن ينقل فكرها كله إلى العقل العربي المسلم حتى الاقتصاد فقد أعجب بالحرية الاقتصادية الغربية القريبة من الإسلام، إلا أنه عدّ العمل القيمة الحقيقية في الإنتاج وهو أهم من رأس المال، لذلك اتهم بأنه اشتراكي مع أنه رفض أفكار سان سيمون الاشتراكية (الطوباوية) وهاجم القرامطة والمزدكية لدعوتهما شبه الشيوعية!

دعا الطهطاوي إلى تفسير القرآن تفسيراً معاصراً، وتجديد الدين بفتح باب الاجتهاد، وهو أول داعية إلى ذلك: (كان أول من خطا خطوة في هذا السبيل) [14]، وكان يرى أن الشرائع تتغير بتغير ظروف الزمان والمكان [15].

والطهطاوي أول نموذج في عصر النهضة لارتباط المفكر بالسلطة، فهو وإن تمكن من تحقيق بعض أفكاره نتيجة علاقته بمحمد علي باشا، ولكنه لم ينتقد محمد علي باشا الإقطاعي الديكتاتوري، الذي أرهق الشعب بالتسلط والضرائب والفقر!

والمفكرون من بعده ساروا على دربه فكانوا يستمدون الدعم من سند سياسي كالسلطة أو الحزب لتقوية موقفهم وتعزيزه إن لم يكونوا هم رجال سياسة، والدعم له ثمنه المطلوب من المفكر!

وارتباط المفكر بالحاكم عرف خلال التاريخ العربي على مر العصور، وهناك نماذج كثيرة عن دوران المفكر والأديب والشاعر في فلك الحاكم والسلطة.

- **خير الدين التونسي** (توفي 1899م): دعا في كتابه: (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك) الذي نشره في تونس عام 1886م إلى الإصلاح والتجديد، والأخذ بالنظريات السياسية الغربية وإعمال العقل والتفكير، ولكنه ربط التحديث بالدولة/ السلطة/ الحاكم، فهو مؤدلج لنهوض السلطنة العثمانية، وليس إضعافها أو استبدالها، ونهوض السلطنة في رأيه سيتبعه نهوض الأمة!

- **جمال الدين الأفغاني** (توفي 1897م): عاصر الطهطاوي، وهو أكثر المصلحين شهرة في دعوته للنهضة القائمة على تحديث الإسلام، وكذلك تلميذه محمد عبده. وقد شن أعداؤه عليه حملات كثيرة بسبب جنسيته غير العربية واتهم بأنه شيعي متستر بالتقية، وبأنه اشتراكي لكونه دعا الفلاح لأن يشق بمحراثه قلب الإقطاعي الذي يستغله. كما اتهمه بعضهم كمصطفى صبري شيخ الإسلام في ذلك الوقت بأنه ماسوني أسس فرعاً للماسونية في مصر "محفل كوكب الشرق" [16]، والماسونية أُتهم بها كثيرون من الإصلاحيين كمحمد عبده!

لقد رأى الأفغاني أن الفساد السياسي والجهل وراء ضعف المسلمين وتخلفهم، وأن المدخل لإصلاح السياسة هو الإصلاح الديني فدعا إلى نهضة إسلامية وإصلاح الشرق (لا نهضة بغير ديننا) بفتح باب الاجتهاد واستخدام العقل والعلم الغربي. كما دعا إلى الإصلاح الأخلاقي لإعادة

تربية الأمة بالعودة إلى الدين والتمسك بفضائل الصحابة وأخلاقهم، وأكد على أهمية العمل والابتعاد عن التواكل.

وآمن بالحرية فهاجم الاستبداد والتفرد بالسلطة، وعد قوة وعدل الحاكم من أسباب النهضة. والحاكم/ الملك العادل في نظره يجب أن يخضع للشريعة وللدستور فليست صلاحياته مطلقة. وقد رفض فكرة المستبد العادل لأنه لا خير في الضعيف العادل ولا في القوي الظالم.

وطالب بأن يشارك الشعب في الحكم عن طريق نوابه الذين ينتخبهم.

والأفغاني أول من دعا إلى تكوين رابطة لشعوب الشرق المسلمة "الجامعة الإسلامية" [17] (وحدة العالم الإسلامي)، لمواجهة الاستعمار الغربي ومحاربته. فرابطة الدين أقوى من أية رابطة: (لا جنسية للمسلمين إلا في دينهم). وقد ذكر السلطان عبد الحميد الثاني في مذكراته: (قال لي السيد جمال الدين: يمكن توحيد السنة والشيعة إذا أظهر كل منهما حسن النية تجاه الآخر. لقد قوى هذا الشيخ أملي في التقارب فإذا تحققت هذه الأمنية تحقق به إنجاز عظيم للإسلام) [18].

والرابطة الإسلامية عند الأفغاني اختلطت بالعروبة لا بالمفهوم الإثني وإنما كثقافة وحضارة قامت على اللسان العربي (لغة القرآن). وكانت أمنيته أن يتعرب الأتراك، فتكون اللغة العربية هي لغة الدولة الرسمية.

- **محمد عبده** (توفي عام 1905م): تابع رسالة أستاذه الأفغاني في الإيمان بالعقل وحرية التفكير والانتماء، وحاول التوفيق بين الدين والعقل والعلوم الغربية. فالدين لا يتعارض مع العلم بل في القرآن أحدث النظريات العلمية كما رأى، والإسلام دين مرن متجدد ويمكنه أن يكون أساساً للنهضة لكن لا بد من الاجتهاد والتأويل ليناسب المعاصرة.

ولما استلم منصب الإفتاء في الأزهر بدأ بإصلاح التعليم فيه، وأصدر الفتاوى العصرية العديدة، والتي منها ما خالف الفتاوى المتعارف عليها في الفقه الإسلامي كتجويزه لفن التصوير والنحت ومعاملات البنوك، والتوزيع العادل للثروة..

وله مقاربته بين الشورى والديموقراطية. ودعا إلى إلغاء مفهوم الردة في الإسلام ففي كتابه (تفسير المنار) فسر الآية القرآنية (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) "الكهف 29" بحرية الدخول في الدين أو الخروج منه.

وقد فرق بين الحكم الشرعي، والفتاوى الاجتهادية الحديثة التي هي تطبيق للحكم الشرعي آخذة بعين الاعتبار الظروف الزمانية والمكانية. وهو يرى أن تشريعات القرآن الكريم الدنيوية مبادئ عامة توجه التشريع الدنيوي بحسب تطوره الزماني والمكاني، أما العقائد والأخلاق فهي أمور ثابتة لا تتبدل. ودعا إلى توحيد المذاهب الإسلامية (مذهب موحد) يختار الأفضل والأصلح من كل منها.

وهاجم الخرافات والبدع، وشعوذات الطرق الصوفية المنتشرة في العالم الإسلامي ومشايخ الطرق الصوفية، وعدّ التصوف المقبول هو الذي يؤدي إلى السمو الخلقي والروحي.

ويختلف محمد عبده عن أستاذه في ثلاث نقاط أساسية: 1- دعوته إلى التدرج في الإصلاح لأن التغييرات السريعة تؤدي إلى ردود فعل عنيفة، بينما الأفغاني كان يلح على تسريع الإصلاح والنهضة، 2- كان يؤمن بفكرة المستبد العادل [19] (لا يصلح الشرق إلا مستبد عادل) يحكمه 15 سنة، بينما رفض الأفغاني فكرة المستبد العادل كما مر، 3- محمد عبده تعاون مع الإنكليز وكان صديقاً للورد كرومر البريطاني، بينما الأفغاني كان يدعو بقوة إلى محاربة الاستعمار، وقد أدى تحريضه ضد الاستعمار البريطاني في مصر إلى قطيعة مع تلميذه!

ومن تلاميذ محمد عبده: عبد العزيز جاويش وطنطاوي جوهري وقاسم أمين وسعد زغلول ومحمود سامي البارودي.. وكلهم سار على نهجه في تقريب الإسلام من قيم الغرب ومفاهيمه وعلومه. فقد قدم جاويش تفسيراً زمنياً للقرآن على طريقة أستاذه محمد عبده. وحاول الشيخ طنطاوي جوهري التوفيق بين نظرية دارون والإسلام، وكتابه: (القرآن والعلوم العصرية) محاولة للتوفيق بين القرآن والعلوم.

لكن محاولات أولئك في إسقاط العلم على النص الديني في كل شيء لم تنجح، لأنهم عند التعارض بين النص الديني والعلم الغربي لجأوا إلى ليّ عنق النص الديني ليسقطوا عليه العلمَ، وما فعلوه عملياً هو تحميل النص أكثر مما يحتمل!

- **محمد أحمد المهدي** (توفي 1885م) [20]: تأثر المهدي بالأفغاني ومحمد عبده وبالوهابية، وقد ربط النهضة بالعودة إلى أصول الدين وفتح باب الاجتهاد، وعد القرآن والحديث هما المقبولان فقط وحرم المذاهب الفقهية، وحارب الطرق الصوفية كلها إلا طريقته.

وكانت دعوته بين الفقراء، واستغل مفهوم فكرة المهدي فادعى عام 1881م بأنه المهدي المنتظر الموحى إليه من الله ليجلب الأتباع، كما ادعى بأنه خليفة رسول الله وبأنه معصوم!

***

تحرير المرأة، تعلمها، عملها، التعدد، الحجاب.. :

لقد دعا كثيرون إلى إصلاح وضع المرأة، وطالبوا بتعليمها وتثقيفها وحقها في العمل.. بدءاً من الطهطاوي الذي ذكر في كتابه (المرشد الأمين للبنات والبنين) عام 1873م عدة قضايا منها تعليمها، وتحقيق مساواتها مع الرجل في العمل والميراث، وإلغاء تعدد الزوجات، والحد من الطلاق، وموضوع النقاب اللاشرعي الحجاب المملوكي "غطاء الوجه"..

كما فكر السلطان عبد الحميد بالحد من التعدد: (أما تعدد الزوجات في الإسلام فقد كانت له لدى العثمانيين نتائج عكسية إذ انصرف أكثرهم إلى الحياة الجنسية فلم تتحقق بذلك الغاية المرجوة من هذا التشريع الإسلامي. أما العاقل فيهم فلم يتزوج إلا واحدة. والإسلام عندنا سمح بتعدد الزوجات ووضع شروطاً تجعل هذا التعدد ممكناً نظرياً، والواقع أن أكثر الرجال يفضلون العيش بزوجة واحدة فالظروف المعاشية صعبة وقاسية وكثرة النساء تضر الإنسان في صحته وفي ثروته. هناك أمر آخر يحدث ضرراً بالغاً في مجتمعنا وهو كون الطلاق أمراً سهل الإيقاع، فبهذا النوع من

الطلاق قد يتزوج المرء بأربع نساء دفعة واحدة وعلى هذه الحال لا بد أن يأتي يوم نضطر فيه إلى الحد من التعدد) [21].

إلا أن من ارتبط اسمه بتحرير المرأة هو قاسم أمين (توفي 1908م) الذي رأى بأن الشريعة الإسلامية إنما هي كليات وحدود عامة، وأن الإصلاح يجب أن يبنى على العلوم الحديثة.

في كتابه (تحرير المرأة) الذي ظهر عام 1899م، دعا إلى تحرير عقل/ فكر المرأة المحصور في خدمة البيت والرجل، فليس التفكير والفكر من مهمات الرجل وحده. وانتقد المفاهيم السائدة بأن المرأة إن تحرر عقلها ستكون منافسة لسيادة الرجل، بينما الهدف هو مساهمتها إلى جانب الرجل في القضايا الجوهرية، وجهلها وتهميشها يؤدي إلى فساد الأسرة. وهاجم رجال الدين الذين ساهموا في تخلف المرأة والحد من قدراتها. كما دعا إلى التدرج في خلع الحجاب غير الإسلامي بعد التربية وتهيئة النفوس له.

وقد أثار الكتاب زوبعة كبيرة وهاجمه كثيرون من الشيوخ التقليدين وبعض المفكرين، وفي الوقت نفسه ناصره كثيرون كسعد زغلول وأحمد لطفي السيد ومحمد عبده وهو شريكه في الكتاب فقد كان وراء تأليفه، وقيل بأنه هو الذي كتب فصوله الأولى.

ورد قاسم أمين على منتقديه بعنف في كتاب آخر بعنوان (المرأة الجديدة) عام 1900م، ولم يتراجع عن آرائه: (إن إلزام المرأة بالحجاب هو أقسى وأفظع أنواع الاستعباد)!

وقد انتصر دعاة تحرير المرأة في تلك المعركة وخطوا خطوات كبيرة من أجل حقوقها كتعليمها وعملها.. والتيار السلفي التقليدي وإن انفتح على بعض القضايا كالتعليم، لكنه وقف حازماً تجاه عدة قضايا تمس الشرع برأيه كدخول المرأة الحياة السياسية والوظائف القيادية، والحد من التعدد، وما يتعلق بالزواج والطلاق والإرث، والسفور والاختلاط..

***

ج- التيار العروبي (القومي) والانفصال عن السلطنة:

لقد كان هناك موقفان رئيسيان متناقضان من السلطنة:

1- موقف دعاة الرابطة الإسلامية/ الجامعة الإسلامية (الأمة الإسلامية):

دعا هؤلاء إلى التمسك بالخلافة كتقليد إسلامي له مدلول معنوي عند المسلمين السنة، يتعلق برمز يجمعهم ويشعرهم بعزتهم في مواجهة الغرب. وقد رأى الأفغاني ضرورة الالتفاف حول الخليفة العثماني لمواجهة الاستعمار الغربي. وكذلك دعا مصطفى صبري شيخ الإسلام إلى الارتباط بالسلطنة والخلافة.

كما دعا مصطفى كامل (توفي 1908م) زعيم الحزب الوطني إلى الرابطة مع الدولة العثمانية، ولكن ليس من منطلق الجامعة الإسلامية وإنما من منطلق وطني إسلامي، فقد ذكر في كتابه (المسألة الشرقية) عام 1898م، أن هدف بريطانيا القضاء على تركيا والخلافة لتستولي على مصر، لذلك لا بد من الاتحاد حول الراية العثمانية (الجامعة العثمانية) لحماية مصر من أطماع الإنكليز، وقال بأن مصر (مصرية عثمانية)، وقد منحته السلطنة لقب الباشا تقديراً لآرائه.

والشعور الوطني عند مصطفى كامل لم يكن منفصلاً عن الدين ككثيرين غيره، وقد ربط حب الوطن والدين معاً فالوطنية والدين توءمان كما قال. وهو الذي دعا للاحتفال برأس السنة الهجرية عام 1910م.

2- موقف دعاة العروبة/ القومية العربية:

فكرة العروبة والاستقلال التام عن تركيا ولدت في الشام ولا سيما في لبنان، ولعب المسيحيون دوراً رئيسياً في الدعوة لها لأنهم عانوا كثيراً من الاضطهاد الديني والقمع التركي ولا سيما المذابح الطائفية عام 1860م التي أدت إلى هجرتهم من جبل لبنان إلى بيروت، ومصر وأوروبا وأمريكا.

وقد استغل الغرب الأقليات الإثنية والطائفية بشكل بشع لتثبيت أقدامه في البلاد العربية. وتحت شعار (حماية المسيحيين) تدخل في كل مكان فيه تجمع مسيحي، لذلك طالب السلطنة أن يتولى رعاية المسيحيين العرب ولا سيما في لبنان، وأدت تلك الرعاية إلى استقلال الجبل وبيروت سياسياً عن السلطنة. كما أن المستشرقين كانوا أدوات الاستعمار الغربي

إلا ما ندر كماسينيون الذي عمل لمصلحة الاستخبارات الاستعمارية الفرنسية في بداياته، ثم انتقد نفسه فيما بعد!

لقد أنشأ دعاة الاستقلال والتحرر الجمعيات والحركات العربية العديدة ونشروا أدبياتهم السياسية في الصحف، وقد ساعدهم الغرب في نشاطاتهم كلها لأن نشر فكرة القومية بين العرب يساعده في إضعاف السلطنة وضرب الخلافة، ولم يكن هدفه مساعدتهم في تحقيق الوحدة القومية، بل عملت مؤامراته على خلق قوميات متعددة لتفرق العرب.

ولم تأخذ فكرة القومية بعدها في وحدة الأمة العربية، إلا في الأربعينيات من القرن الماضي.

لقد ربط دعاة العروبة فكرة الانفصال عن السلطنة بموضوعي القومية والاستبداد العثماني الذي جمع بين السلطتين الزمنية والدينية/ الخلافة. وعدوا الاستبداد والظلم سبب تخلف العرب والمسلمين. وكانوا يرون السلطان عبد الحميد (خليفة المسلمين دينياً وزمنياً) رمز الاستبداد لرفضه الدستور والحياة الديموقراطية. وقد علل السلطان عبد الحميد في مذكراته موقفه بالقول: (الحكم المقيد 1905: لم تتطور بلادنا التطور الكافي لتقبل الحكم الدستوري، فإن هذا الطراز من الحكم خطر كبير علينا إذ بمقتضاه يكون جميع الرعايا متساوين في الحقوق والواجبات، وهذا أمر يستحيل تطبيقه في بلادنا فالإمبراطورية العثمانية تشكلت من الأتراك والعرب والروم والأرمن والبلغار والأولاخ والأرناؤوط واليهود، فهل ترضى العناصر والمذاهب غير المسلمة أن تستغني عن كنائسها بنفسها وعن استقلالها القضائي، ثم إنه ليس هناك من لسان يجمعنا فهل ترضى هذه الأقوام أن تهجر لغاتها وتقبل التركية لغة رسمية، فإذا كانت هذه حالنا فكيف تتأصل فينا القومية العثمانية).. ورأى أن الدستور هو القرآن: (آمل أن يتحد جميع العثمانيين ولو في آخر لحظة للعمل على بقاء دولتهم والسير على هدي دستورهم المقدس القرآن الكريم مؤمنين به ممتثلين لأوامره، وإلا فالمصير الأسود ينتظرنا حيث تتأهب الدول النصرانية لتمزيق أشلائنا وتقاسم الممالك العثمانية فيما بينها) [22].

وبعد عزل السلطان عبد الحميد عام 1908م عن السلطة، واستيلاء الاتحاديين الطورانيين (جمعية الاتحاد والترقي) على السلطة عام 1909م، وجد العرب أنفسهم أمام عنصرية الاتحاديين المتمثلة بالغطرسة والصلافة والعنجهية والتتريك، فتجذرت فكرة التحرر من الأتراك، وإقامة إمبراطورية عربية برئاسة سلطان عربي ونظام دستوري.

وقد وصلت شراسة الاتحاديين واستبدادهم وقمعهم إلى ذروتها في المجازر التي ارتكبها جمال باشا ضد الرموز البارزة من العروبيين الأحرار المطالبين بالاستقلال [23]، مما أدى إلى تعجيل انطلاق الثورة العربية الكبرى.

ومن الرواد الذين دعوا إلى الرابطة القومية والانفصال عن السلطنة العثمانية:

- **عبد الرحمن الكواكبي** (توفي 1902م): رأى أن اللغة هي الأساس في تمييز أمة عن أخرى، والعرب أمة لأنهم يتكلمون العربية، فالأمة العربية هي (عرب) قبل كل دين ومذهب.

وقد شرح في كتابه (أم القرى) أسباب ضعف الأمم الإسلامية وتخلفها، ودعا إلى فصل الخلافة العربية عن السلطنة العثمانية وجعل مركزها في الحجاز لتكون للعرب وحدهم، فالخلافة العربية تجمع العرب وتوحدهم تحت قيادة خليفة عربي، قادر على صنع النهضة ومواجهة الاستعمار الغربي.

وفي كتابه (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) الذي صدر قبل وفاته بسنة، هاجم الاستبداد العثماني وبين أن الاستبداد هو سبب انحطاط الشرق فهو يفسد الأخلاق والدين، ويضعف العقل ويجعل الإنسان في مستوى البهائم. وهاجم رجال الدين الذين ربطوا أنفسهم بنظام المستبد والقوة الأجنبية التي تناصر المستبد وتعود الناس على الاستبداد وقبوله .. [24]

وعلى الرغم من عنفوانه واستيعابه لبنية الاستبداد (الإرهاب والقوة المسلحة والقوة المالية)، إلا أنه لم يكن من أنصار المواجهة بعنف فقد

قال: (الاستبداد لا ينبغي أن يقاوم بالعنف كي لا تكون فتنة تحصد الناس حصداً) [25].

- **نجيب عازوري** (توفي 1916م): يعد المؤسس النظري الأول لفكرة القومية العربية وقد ذكر ساطع الحصري بأن القومية ابتدأت به.

نشر عازوري عام 1905م كتابه (يقظة الأمة العربية) وقال فيه بأن القومية العربية حركة علمانية لأنها تضع الروابط القومية فوق المعتقدات الدينية، وهي الأساس لنهضة العرب ووحدتهم.

وهو أول من نبه في كتابه إلى الخطر اليهودي؛ فقد تحدث عن خطر اليهود على الشعب الفلسطيني والعرب، فاليهود يسعون لإنشاء (مملكة إسرائيل القديمة) من جديد على أرض فلسطين وعلى مقياس أوسع. وذكر بأن مصير الحركة القومية والحركة اليهودية هو الصراع المستمر إلى أن تغلب إحداهما الأخرى [26].

ومن دعاة القومية البارزين أيضاً: ناصيف اليازجي (توفي 1871م)، وابنه إبراهيم اليازجي (توفي 1906م)، وبطرس البستاني (توفي 1883م)..

وإلى جانب دعاة القومية الشاملة كان هناك دعاة القومية المحدودة:

1- **القومية السورية**:

نادى بها أنطون سعادة (أعدم 1949م) [27] مؤسس الحزب (السوري القومي الاجتماعي) عام 1932م، وهو يرى في كتابه (نشوء الأمم) أن الأمة السورية تعود جذورها إلى الفينيقيين، وحدودها تشمل جغرافية بلاد الشام "سورية ولبنان وفلسطين والأردن" مع أجزاء من العراق والسعودية والخليج العربي وصحراء سيناء حتى البحر الأحمر عند خليج العقبة إضافة إلى جزيرة قبرص (الهلال الخصيب - سورية الكبرى).

وهو من دعاة الدولة العلمانية الديموقراطية، والتخلص من حكم الأتراك الاستبدادي الطائفي.

ومعظم دعاة القومية السورية هم من المسيحيين السوريين ولا سيما في لبنان، ومنهم من تطرف فادعى بأن السوريين ليسوا عرباً بل هم فينيقيون!

2- **القوميات القطرية**:

سادت النزعات القطرية/ الإقليمية بتشجيع من الاستعمار الغربي لضرب الارتباط بالسلطنة العثمانية، ثم بعد التحرر والانفصال عن السلطنة عام 1918م، تابع الاستعمار تشجيعه تلك النزعات لترسيخ تجزئة الوطن العربي، مستخدماً كل الطرق ومنها بعثات التنقيب الآثاري. وقد لعبت المكتشفات عن التاريخ القديم الفرعوني والفينيقي والآشوري.. والدراسات عنها دورها المطلوب في ذاك الاتجاه!

وقد انتشرت الدعوات القطرية في عدد من الدول العربية كالفرعونية في مصر ومن دعاتها أحمد لطفي السيد وسلامة موسى وطه حسين، والآشورية في العراق، والفينيقية في لبنان، والرومانية في تونس..

وتلك الدعوات لا أساس لها من الصحة فالفينيقيون والكنعانيون والآراميون والسريان والبابليون والمصريون القدماء "الفراعنة".. كلهم عرب، ولغاتهم ما هي إلا لهجات عربية!

كما برزت دعوات لدويلات طائفية/ كانتونات، بتوجيه من الاستعمار: الدولة المسيحية والدولة الدرزية والدولة العلوية.. ولكنها لم تجد رواجاً بين العرب.

***

لقد قوي التيار الوطني/ القومي بعد أن تم الانفصال عن تركيا، ودخول المنطقة في مرحلة ثورات التحرر من الاستعمار الغربي، وقد واجه أيديولوجياً ثلاثة تيارات ضده على امتداد المراحل كلها بدءاً من الانفصال عن تركيا:

الأول: التيار الإسلامي السلفي دعاة الأمة الإسلامية، الذين اتهموا دعاةَ القومية بالعمالة للمبشرين والاستعمار، وبانتمائهم للماسونية. وأن الاستعمار هو الذي زرع وصنع القومية في مصر وسورية ولبنان، وأن هدف القوميين إضعاف الأمة الإسلامية والقضاء على الإسلام، لتحقيق مشاريع الاستعمار التي عجز عن تحقيقها في البداية بسبب صلابة السلطان عبد الحميد ودفاعه عن الإسلام وفلسطين.

وكان رد القوميين بأن استغلال الغرب قضية القومية لتحريك العرب ضد الأتراك لضرب السلطنة وتحقيق مشروعها في وراثتها، لا يعني خطأ الفكرة القومية نفسها.

وقد اعترف بعض القوميين بأن الشريف حسين والعروبيون ارتكبوا خطأ كبيراً/ جريمة، في قبولهم الاستعانة بالاستعمار البريطاني لتحقيق مشروع الانفصال، حتى بعد افتضاح مؤامرة سايكس- بيكو، ووعد بلفور، لم يغير الشريف حسين تحالفه مع البريطانيين، وسكت عن المشروع وهو يعلم به طمعاً في أن يكون ملك العرب [28]!

كما أن الأخطاء التي ارتكبها القوميون فيما بعد لا يعني أيضاً خطأ الفكرة، لأنها تعني كينونة ووجود الأمة العربية، مقابل مشروع إلغائها وحذفها من الوجود وخلق بدائل قطرية متنافرة متصادمة، وقد يكون الصدام ضمن القطر الواحد بإثارة الفتن العرقية والمذهبية والطائفية لمزيد من تفتيته. فالدولة القومية تجمع أبناءها جميعاً دون النظر إلى أديانهم أو مذاهبهم أو طوائفهم أو إثنياتهم.

والثاني: تيار دعاة القوميات الصغيرة التي كانت ضعيفة المنطق، فلم تأخذ مساحة واسعة في الجدل والنقاش. وقد فند القوميون أطروحاتها بالبراهين التي تثبت فكرة العروبة والأمة العربية التي تجمع كل الدول العربية.

والثالث: تيار الأحزاب الشيوعية [29] التي تذبذبت مواقفها تجاه القضايا الوطنية والقومية ولا سيما قضية فلسطين والتحرر العربي من الاستعمار.

فالشيوعية العربية رفضت مفهوم القومية العربية، وتبنت الرابطة الطبقية الأممية/ الأممية البروليتارية بدلاً من الرابطة القومية، بالاستناد إلى الفكر الماركسي اللينيني الذي يدعو إلى وحدة الطبقة العاملة الفقيرة على الصعيد العالمي ضد الطبقة الرأسمالية المالكة لوسائل الانتاج. وادعت الشيوعية العربية بأن الأمة العربية لا وجود لها وهي فكرة برجوازية تجب محاربتها، فالأمة نشأت بنشوء النظام الرأسمالي، والعرب مجتمعات زراعية لا تمتلك الحياة الاقتصادية الواحدة والسوق الواحدة، وليس هناك شعب

عربي واحد وإنما هناك شعوب عربية. لذلك تبنت القطرية، وبعضها ادعى بأن هناك أمماً عربية كالأمة السورية والأمة اللبنانية والأمة العراقية والأمة المصرية.. [30].

وعلى صعيد القضية الفلسطينية كانت الشيوعية العربية ذيلية للاتحاد السوفييتي تدور في فلكه، وقد كان موقف الشيوعيين السوفييت في عهد لينين ضد فكرة الأمة اليهودية بل كانوا يسخرون من الحديث عنها، ويطالبون يهود العالم بالاندماج في مجتمعات الدول التي يعيشون فيها، ولكن ستالين قلب المفاهيم السابقة وأيد قرار التقسيم والاعتراف بالكيان الصهيوني، وكذلك فعلت الأحزاب الشيوعية العربية حيث انقلبت مئة وثمانين درجة مع التحول السوفييتي، فتحولت من عدم إيمانها بأن اليهود يشكلون شعباً أو أمة والوقوف ضد الهجرة اليهودية إلى فلسطين وضد قيام دولة الصهاينة.. إلى الاعتراف بقرار تقسيم فلسطين ثم بقيام دولة الكيان الصهيوني، وأخذت تنظّر للأمة اليهودية ولدولة البروليتاريا اليهودية، وحقها في الحياة.. وهاجمت حرب الدول العربية على الصهاينة عام 48م!

والمفارقة أنه في الوقت الذي كانت فيه الأحزاب الشيوعية تنفي وجود الأمة العربية، ادعت بأن اليهود شعب، ثم، أمة في كون النشوء، ثم، أمة لها حق الحياة في فلسطين. وأن الصراع في فلسطين يجب أن يوحد البروليتاريا اليهودية والفلسطينية ضد اليهودية الرأسمالية!

وقد حاول ما يسمى اليسار الصهيوني اللعب على الورقة الاشتراكية والحديث عن السلام والمحبة بين اليهود والشعب الفلسطيني لجلب اليسار العربي وخاصة الفلسطيني إليه، في الوقت الذي كان يرتبط فيه بالإمبريالية البريطانية ومشروع إقامة الكيان، وبعد قيام الكيان اللاشرعي مارس على الأرض ليس تثبيت احتلال الأرض فقط، وإنما احتلال العمل والسيطرة على الإنتاج وقتل وتسفير وتشريد الشعب الفلسطيني.

فادعاءاته لم تكن سوى خداع وتضليل لا أكثر، وقد وقع اليسار العربي في شركه فنادى بأن على العربي التعاون مع الشعب اليهودي "وكأن اليهود شعب" ضد الصهيونية التي هي حركة رأسمالية عنصرية هدفها اليهود

والعرب المسحوقين، فالصراع صراع البروليتاريا العربية واليهودية ضد الرأسمالية اليهودية/ الصهيونية.

وذاك المفهوم الخاطئ بقي مرافقاً للأحزاب الماركسية حتى الآن. بينما كانت نظرة القوميين هي أن كل يهودي جاء إلى فلسطين إنما هو صهيوني يخدم مخطط إقامة الكيان الصهيوني الاستعماري المرتبط بالإمبريالية. فاليهود ليسوا شعباً ولا أمة، وكل يهودي قدم إلى فلسطين ضمن آلية المشروع إنما هو صهيوني عنصري مستعمر!

***

د- تيار العلمنة/ فصل الدين عن الدولة:

لم تكن ترجمة (Secularism) بالعَلمانية دقيقة في بدايات ظهورها في العالم العربي في القرن التاسع عشر، حيث شاع أنها فصل الدين عن شؤون الدولة، فالدولة هي المسؤولة وحدها عن الشؤون المادية الملموسة للحياة وأمور الناس والمجتمع وعلاقاته، وليس للكنيسة ولا لرجال الدين أي دور في الحياة السياسية والاقتصادية والحقوقية والاجتماعية..

ولكن دلالة المصطلح ومفهومه في الغرب أوسع من ذلك كما في المعاجم والموسوعات فهو يعني اللاديني، الدنيوي، اللامقدس، وهذا يعني تفسير الوجود علمياً بعيداً عن الدين والغيبيات أي سيادة العلم والعقل في كل شيء، وخضوع الأفكار المطروحة كلها للمناقشة والنقد..

ولربما أراد مترجمو المصطلح الايحاء بأن المقصود منه هو العِلم "العِلمانية" أي العقل والعلم حتى لا يثيروا إشكالية مع التيار الديني!

كانت هناك ثلاثة اتجاهات تجمع على الفصل، وتختلف في الدافع:

آ- اتجاه يكره السياسة ويراها تفسد الأخلاق لأنها تقوم على الكذب والخداع والغش، لذلك وجد طبيعياً فصل الدين عن السياسة/ الدولة حتى لا يختلط الدين كمفهوم مقدس بأعراض دنسة!

ب- اتجاه لم ير السياسة كذلك، ولكنه لم يجد خطأ في فصل الدين عن شؤون الدولة والحياة الدنيوية، وتشريع ما يناسب المجتمع زمانياً ومكانياً من النظم الوضعية.

ج- اتجاه رأى ضرورة منع رجال الدين من التدخل في أمور الدولة ونظمها لأن الدين يرتبط بالعبادة فقط، أما ما يتعلق بالأمور الدنيوية فهو من اختصاص الدولة.

والذين تبنوا العلمنة ينتمون إلى تيارات متنوعة:

1- من رواد التيار الديني الإصلاحي، 2- من رواد التيار الليبرالي، 3- من رواد التيار الاشتراكي.

- **الكواكبي**: دعا إلى الفصل بين السلطتين الدينية والسياسية، وذكر بأنه لا يوجد في الشريعة الإسلامية: (نفوذ ديني مطلقاً في غير مسائل إقامة شعائر الدين) [31]. وهو من دعاة الاجتهاد في الدين والتعليم والتربية الدينية الصحيحة والحرية..

- **عبد القادر حمزة** (توفي 1941م): دعا إلى فصل الدين عن الدولة كما فعلت أوروبا، لأن شؤون الدنيا كالسياسة والدولة والمجتمع خاص بأهل السياسة والاختصاصيين..

- **علي عبد الرازق**: (توفي 1966م) نشر في عام 1925م كتابه (الإسلام وأصول الحكم) بعد أن ألغى مصطفى كمال الخلافة في عام 1924م وعدها السبب في خراب الشعب التركي. وقد ذكر عبد الرزاق أن الخلافة ليست جزءاً من الدين ولم يأمر بها النبي، فرسالته دينية ولم يكن يهدف إلى إقامة سلطة وتأسيس دولة، والخلافة مصطنعة استحدثت بعد وفاة النبي.

وبين أن ربط الخلافة الزمنية بالدين (الروحية والزمنية) لا دليل عليها في أصول الشرع، وقد تم الربط ليفرض الحاكم سلطته بقوة الدين المعنوية [32]!

- **طه حسين** (توفي 1973م): دعا إلى فصل الدين عن الدولة في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) عام 1938م. ورأى أن العقل المصري ينتمي

إلى ثقافة البحر المتوسط، وصلات مصر بالغرب أقوى: (كانت مصر دائماً جزءاً من أوروبا في كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية على اختلاف فروعها وألوانها) [33]، لذلك يجب ربط مصر بالحضارة الغربية، وتقليد الأوروبيين.

ومن المعروف أن الخديوي إسماعيل هو أول من عدّ مصر جزءاً من أوروبا!

كما دعا طه حسين إلى منهجية العقل ففي كتابه (في الشعر الجاهلي) عام 1926م طالب بالاعتماد على منهج العلم والتحرر من المناهج القديمة وعدم التسليم إلا للعقل "منهج ديكارت": (يجب ألا نتقيد بشيء ولا نذعن لشيء إلا مناهج البحث العلمي الصحيح). ومن ذلك المنطلق ميز بين التاريخ الديني والتاريخ العلمي فقال: (للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً. ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها، ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعاً من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الإسلام واليهود والقرآن من جهة أخرى) [34].

وهو في الوقت الذي شكك فيه بالشعر الجاهلي لعدم إعطائه صورة عن الحياة الجاهلية، اعتمد على الصورة التي وردت في القرآن الكريم عن الحياة الجاهلية!

وقد هاجمه الإسلاميون السلفيون وكفروه، وحركوا الشارع المصري ضده ففر إلى فرنسا، وقد هاجمه صطفى صادق الرافعي (توفي 1937م) وهو من التيار الديني المتشدد، بعنف وقسوة متجاوزاً أخلاق النقاش وموضوعيته: (.. كفراً بالله وسخرية بالناس، فكذب الأديان وسفّه التواريخ) [35]. واستنتج بأن القضية هي معركة بين المؤمنين بالدين واللغة والتقاليد، والكفرة العائدين من أوروبا الذين تبنوا أفكارها المعادية للإسلام.

وقد أعاد طه حسين فيما بعد نشر كتابه بعنوان (في الأدب الجاهلي) مع شيء من التعديل الذي لا يمس الجوهر [36].

- **فرح أنطون** (توفي 1922م): دعا إلى علمنة الدولة، وقال بأن مهمة الدولة تحقيق الحرية والمساواة لشعبها جميعاً. وكان مؤمناً بمنهج ابن رشد العقلي وله كتاب عنه (ابن رشد وفلسفته).

- **شبلي شميل** (توفي 1917م): دعا إلى فصل الدين عن السياسة لأن الدين يفرق بين الناس، في حين أن السلطة اللادينية تهتم بكل رعاياها دون النظر إلى دينهم. وهاجم رجال الدين وعدهم سبب التخلف، ولكنه لم يهاجم الدين بل دافع عن القيم فيه، ولم يميز المسيحية من الإسلام.

ونادى بالوحدة القومية والوطنية العالمية "ضد القومية الشوفونية".

وهو أول من نشر الفكر الاشتراكي في العالم العربي، وعد الدولة مسؤولة عن تحقيق العدل والتقدم الاجتماعي كتأمين العمل للجميع والأجور المناسبة والرعاية الصحة.

وأول من نشر حقيقة نظرية دارون في النشوء والارتقاء، وطبقها على التطور الاجتماعي ونموذجه الثورة الفرنسية.

- **سلامة موسى** (توفي 1958م): دعا إلى العلمنة والعلم والاشتراكية، والحكومة البرلمانية الديموقراطية.

وذهب إيمانه بالدارونية إلى أبعد مما ذهب إليه دارون فقد تخيل شكل إنسان المستقبل بعد اكتمال تطوره كما في كتابه (نظرية التطور وأصل الإنسان).

في كتابه (اليوم والغد) الذي نشر عام 1929م، رأى سلامة أن النهضة لن تكون إلا في الالتحاق بأوروبا، وأعلن كفره بالشرق وإيمانه بالغرب فقط. ووصل به الأمر إلى التبعية وتقليد الغربي في كل شيء: مأكله ولباسه وقبعته..

وقضية التغريب كانت شائعة فقد دعا كثير من المسيحيين وقلة من المسلمين للأخذ بالحضارة الغربية، وتقليد كل ما هو غربي في الزي والمأكل والعادات واللغة.. قال ألبرت حوراني: (وقد برز من الطوائف المسيحية التي أنشأتها أو عززتها الإرساليات فريق من المثقفين، وعوا عالم أوروبا بل اعتبروا أنفسهم، بمعنى من المعاني، جزءاً منه) [37].

كما أن المسيحيين العرب لم يشغلهم السؤال الذي كان يشغل بال المفكرين المسلمين كالطهطاوي وخير الدين التونسي وهو: (كيف يمكن للمسلمين أن يصبحوا جزءاً من العالم الحديث، دون أن يتخلوا عن دينهم)[38]، فهم لم يجدوا ما يعزلهم عن الغرب ديناً وعادات ومفاهيم!

وعلى صعيد اللغة العربية دعا سلامة موسى إلى العامية، وتسكين الكلمات. وهناك كثيرون ممن شاركه رأيه في اللغة العربية وقواعدها كأحمد لطفي السيد بدعوته إلى العامية المصرية وقد صار فيما بعد رئيساً لمجمع اللغة العربية، وعبد العزيز فهمي "عضو مجمع اللغة العربية" دعا إلى الكتابة بالحروف اللاتينية، كما دعا طه حسين إلى تطوير اللغة وقواعدها لأن العربية الفصحى ليست دينية مقدسة لا يجوز مسها.

ومقابل تلك الدعوات كانت هناك مواقف معارضة ترفض مس اللغة وقواعدها وتدعي بأن هدفها تهديم القرآن والإسلام، ومن أصحاب تلك المواقف الرافعي وشكيب أرسلان.. ولكن دعاة التطوير نجحوا في التحديث على صعيد اللغة والأدب، أما القواعد فتم تيسيرها فقط، وما زال الصراع حول تطويرها مستمراً.

ودعوة سلامة موسى للارتماء في أحضان الغرب في كل شيء رفضها التيار الديني والتيار العروبي والقومي لأن لكل مجتمع تجربته الخاصة به، والغرب ليس نموذجاً يحتذى به إلا في العلم والمعرفة والتكنولوجيا، وهو لم يصل إلى ذلك بسهولة فقد خاض تجربة مريرة ليخرج من القرون الوسطى الظلامية، ونجح في النهاية في الانتصار على سلطة الكنيسة والإقطاع، وتحرر منهجه وفكره، وفصل الفلسفة عن العلم فانفتح أمامه فضاء جديد في ممارسة المنهج العلمي التجريبي الذي أدى إلى الاختراعات والتكنولوجيا..

***

لقد امتدت المرحلة الأولى من النهوض زمناً طويلاً، وتنوعت الاتجاهات والتيارات في التحديث، ولكن كثيراً من المفاهيم استقرت في النصف الأول من القرن الماضي. وكان محور الصراع الأساسي هو بين التقليديين

المحافظين على الدين وبين مجددي الدين من العرب ومن المسلمين غير العرب كالأفغاني والحركة الأحمدية والبهائية.. [39].

والجدالات والمعارك السياسية والفكرية والدينية والاجتماعية والأدبية التي كانت تدور بين الأطراف المتناقضة، أدت إلى تفتح العقل العربي وازدياد الوعي..

ولم تستفد التيارات الدينية من تكفيرها لكثير من المفكرين، ففي المرحلة الثالثة أعاد بعضُ المفكرين الإسلاميين كد. محمد عمارة، الاعتبارَ لهم وأشادوا بمنجزات علي عبد الرازق وطه حسين ورفاعة الطهطاوي والأفغاني ومحمد عبده والكواكبي..

لقد جرت معركة النهوض تحت هيمنة الاستعمار الغربي ولا سيما في مصر، وكانت محصورة إجمالاً ضمن دائرة المفكرين والمثقفين من جهة وبينهم والسلطة من جهة أخرى، أما الشعب فكان خارج القوس تعصف به رياح الأمية والجهل والتخلف والفقر..

وقد قاد الاستعمار الغربي عربة الصراع باتجاه العصرنة لخدمة أغراضه الاستعمارية لا باتجاه التحديث الحقيقي، لأنه سيدمره قبل غيره، فلا يمكنه أن يحفر قبره بيده وهو القادم للنهب والسيطرة ومصادرة حقوق الشعوب في الاستقلال والحرية الحقيقية والنهوض.

ولم تكن السلطة المسيرة لشؤون العباد، وغير المستقلة عن وظيفتها في خدمة المستعمر ترضى بديلاً جذرياً عن الواقع، ولكنها سمحت بهامش يظهرها بمظهر الديموقراطية، ومعظم الأطروحات الفكرية الإصلاحية للسلطة والنظام لم تتجاوز ذاك الهامش الذي سمحت به السلطة وهو نقد الأجهزة الإدارية في الدولة، وهذا يعني عدم المساس بالحاكم أو نقده، لأن الحاكم الفرد لا يرضى بمس شرعية سلطته وتصرفاته لأنه فوق النقد والشبهات، فعندما هاجم الأفغاني بذخ الخديو إسماعيل ومن بعده الخديو توفيق للسبب نفسه، كانت النتيجة سجنه فهرب إلى الهند!

ووجود بعض التناقضات الثانوية بين السلطة والاستعمار، استغلها كثيرون لتثبيت أقدامهم كمحمد عبده!

ومع أن هذه المرحلة انتهت إلى تجزيء الأمة العربية وزرع الكيان الصهيوني، ولم تنجز برنامج التحديث، ولم تصل إلى صوغ نظرية معرفية قائمة على المنهج العلمي، ولم تضع آلية العمل والبرامج القابلة للتحقيق، إلا أنها حققت قضايا كثيرة وأعطت ثمارها، وأنتجت مفاهيم جديدة ما عاد بالإمكان التراجع عنها إلى الوراء، وأسست للمرحلة الثانية من النهوض.

ويمكن إجمال أطروحاتها المتنوعة بما يلي:

1- القومية العربية.

2- التحرر من الاستعمار، ورفض الاعتراف باغتصاب فلسطين.

3- الإصلاح الديني القائم على تقديم العقل على النقل، والتأويل والاجتهاد المفتوحين والمستمرين.

4- العلمنة.

5- إقامة النظام الديموقراطي الدستوري، وفصل السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية.

6- الحريات المكفولة في القانون وأهمها حرية الرأي والفكر والمعتقد، والتعبير عنه من خلال الكتابة والصحافة والندوات والمسيرات، وتشكيل الحركات والأحزاب والمنظمات.

7- العدالة الاجتماعية والإنسانية.

8- الفكر الاشتراكي: ولكن لم ينضج الوعي الاشتراكي في هذه المرحلة بين الناس نتيجة ضعف الحركات الاشتراكية في الخطاب والممارسة، واهتمامها باللعبة البرلمانية.

كما أن رجال الدين كان لهم تأثير في تكفير الاشتراكية ونشر المفاهيم الخاطئة عن حقوق الملكية الخاصة والقضاء والقدر وأرزاق الناس وتوزيع الثروات، والتفاوت بين الناس..

9- العلم.

10- العصرنة ومتابعتها في جميع المجالات العمرانية والحياتية بما في ذلك الزراعية والصناعية..

11- تحرير المرأة: التعليم، العمل، المساواة، رفض التعدد والحجاب..

* * *

الهوامش

(1) اختلف في سنة ولادته ووفاته كما اختلف في غيره وهناك رأي بأنه توفي عام 1792م. وحركة محمد بن عبد الوهاب ظهرت في السعودية وانتشرت في الحجاز بدءاً من النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي. وعرفت "بالسلفية" وقد تأثرت بابن تيمية، ومرجعيتها الأصول ولا سيما مذهب أحمد بن حنبل. وقد استمر ذاك الفكر الأصولي "الحنبلي التيمي" حتى الآن في السعودية.

راجع المكتبة الشاملة: كتيب عبد العزيز بن عبد الله بن باز "الإمام محمد بن عبد الوهاب، دعوته وسيرته"، وكتاب "الملك عبد العزيز آل سعود أمة في رجل" لعبد الله بن عبد المحسن التركي.

(2) قدم محمد علي باشا من ألبانيا على رأس قوة عسكرية إلى مصر لإخراج نابليون منها بناء على أوامر السلطان التركي، واستلم السلطة في مصر عام 1805م، واستطاع تحقيق نصر على حملة فريزر الإنكليزية عام 1807م. كما لاحق المماليك حتى قضى على بقيتهم في مذبحة القلعة الشهيرة عام 1811م. وحارب الوهابيين باسم السلطنة وانتصر عليهم عام 1815م وضم الحجاز إلى حكمه عام 1819م.

(3) د. محمد أركون: قضايا في نقد العقل الديني - ص 168. وهو يضيف بأنه يمكن تطوير الشورى لتشمل الشعب كله فتصير كالديموقراطية وكذلك حقوق الإنسان..

راجع أيضاً كتاب "العرب والفكر التاريخي" للد. عبد الله العروي - ص 35 وما بعد حول الفرق بين الشورى في الإسلام والديموقراطية.

وأيضاً: "العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة" للد. عزت قرني.

(4) جلب نابليون معه المطبعة العربية لطباعة البيانات والمناشير الموجهة للشعب المصري.

وأول مطبعة في مصر هي المطبعة الأهلية "مطبعة بولاق" عام 1821م، بينما عرفت لبنان المطبعة منذ القرن الثامن عشر، وكذلك مدينة حلب السورية..

"راجع كتاب "تاريخ آداب اللغة العربية - جرجي زيدان- المجلد الثاني - الجزء الرابع".

(5) د. محمد أركون: الفكر العربي - ص 155.

(6) جاء في كتاب د. مبارك "الجزء الأول - ص 43" بأن القرآن نثر جاهلي: "ولا ينبغي الاندهاش من عد القرآن أثراً جاهلياً، فإنه من صور العصر الجاهلي: إذ جاء بلغته وتصوراته وتقاليده وتعابيره وهو - بالرغم مما أجمع عليه المسلمون من تفرده بصفات أدبية لم تكن معروفة في ظنهم عند العرب- يعطينا صورة للنثر الجاهلي، وإن لم يمكن الحكم بأن هذه الصورة كانت مماثلة تمام المماثلة للصور النثرية عند غير النبي من الكتاب والخطباء".

ونثره سماته السجع كما في ص 77: "ولا ينكر متعنت أن القرآن وضع للصلوات والدعوات ومواقف الثناء والخوف والرجاء سوراً مسجوعة تماثل ما كان يرتله المتدينون من النصارى واليهود والوثنيون.."، فالوثنيون العرب كانت لهم طقوس مشابهة لما كان يفعله أهل الكتاب في طقوسهم.. "والقرآن وضع لأهله صلوات وترنيمات تقرب في صيغتها الفنية مما كان لأهل الكتاب من صلوات وترنيمات. والفرق بين الملتين يرجع إلى المعاني ويكاد ينعدم فيما يتعلق بالصور والأشكال". والنتيجة أن القرآن يسجع لأن السجع كان فناً من فنون القول والدعاء عند الجاهلية..

فأسلوب القرآن الفني لم يخرج عن إطار ذاك العصر، وبلاغته الحقيقية تكمن في جديده الفكري والعقلي والوجداني كما يقول في "ج 2 - ص 85": "فالفن الكلامي لم يكن جديداً عند العرب، وإنما كان الجديد عندهم أن يأتيهم رجل منهم بأساليب من الفكر والعقل والوجدان غير التي كانوا يألفون".

وقال بأن النقاد القدماء لم يقدموا نقداً فنياً عن القرآن، لأن هدفهم كان إظهار عبقرية القرآن/ إعجازه البلاغي فهو المثل الأعلى في البلاغة والبيان.. وليس هذا نقداً، فالنقد أن يقف الباحث أمام الأثر الأدبي موقف الممتحن للمحاسن والعيوب..

كما تطرق إلى الحروف في مطالع بعض السور ليقول إنها عادة معروفة في المعابد الوثنية أو كنائس المتعبدين وخاصة في الحبشة والشام إذ كانت لهم ترانيم تفتتح بإشارات صوتية شبيهة بتلك الرموز "ج 1 - ص 47".

وتلك الأفكار هي نقد غير مباشر لمنهج الإسلاميين القائم على البلاغة لإثبات الإعجاز القرآني!

(7) ذكر غازي التوبة في كتابه "الفكر الإسلامي المعاصر - ص 279" رأي الإخوان المسلمين في مؤلفات العقاد وطه حسين الإسلامية بأن هدفها صد المد "الإسلامي الذي قاده الإخوان المسلمون"!

(8) حسن البنا أنشأ حركة الإخوان المسلمين أواخر عام 1927م باسم "جمعية الشبان المسلمين"، وفي ميثاقها القرآن أساس ومرشد ومرجع للنهضة.

وقد شاركت الحركة عام 1948م في الحرب ضد الصهاينة. وفي العام نفسه أصدر رئيس وزراء مصر محمود فهمي النقراشي قراراً بحل جماعة الإخوان المسلمين، فاغتيل النقراشي، واتهم الإخوان بذلك وطالب أنصاره برأس حسن البنا "رأس النقراشي برأس البنا"، واغتالوه عام 1949م.

(9) ترفض الحركة تسميتها بالوهابية وتسمي نفسها "أهل السنة والجماعة"، وتقول بأن تسمية الوهابية أطلقها عليهم أعداؤهم لتحمل معنى أتباع شخص خارج عن الإجماع السني، بينما هي ترى أن تنسب إلى أهل السنة الصحيحة، وليس إلى شخص، دفعاً للالتباس. لكن نحن في هذا الكتاب استخدمنا تسمية الوهابية كعلم يدل على مضمون فكرهم الأصولي المتشدد، والأصح تسميتها بالحركة الحنبلية أو التيمية لأنها عودة إحيائية لمنهج ابن تيمية. فمنهج الوهابيين أصّل الأصول الدينية على مذهب ابن حنبل أي الرؤية الأحادية القائمة على النقل ورفض العقل

وحرية التفكير، وهي نظرة تزمتية وتكفيرية للآخرين المخالفين لوجهة نظرهم. وتلك الرؤية تمثل راديكالية التشدد في التمسك بالمتأصل من الأصول.

من المكتبة الشاملة: "عقيدة الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة" لمحمد بن عبد الوهاب، ورسائل محمد عبد الوهاب المطبوعة في كتاب بعنوان: "مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب".

(10) في التراث هناك كتب كثيرة تكفر الفرق غير السنية الأصولية منها: "تلبيس إبليس" لابن الجوزي، "الفصل في الملل والأهواء والنحل" لابن حزم، "الملل والنحل" للشهرستاني، "الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية" لعبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي أبو منصور.

(11) أحمد أمين: ضحى الإسلام - ج 3 - ص207.

(12) د. معن زيادة: معالم على طريق تجديد الفكر العربي - ص 174.

(13) الطهطاوي: الأعمال الكاملة - تخليص الإبريز في تلخيص باريز - ص 80.

(14) ألبرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة - ص 99.

(15) المصدر السابق - ص 93.

(16) بقيت المحافل الماسونية في مصر حتى تبين ارتباطها بالصهيونية والتجسس لصالح الكيان الإسرائيلي فأغلقت عام 1965م.

(17) راجع كتاب د. محمد محمد حسين: "الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر"، وكتاب أنيس المقدسي: "الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث".

(18) السلطان عبد الحميد: مذكراتي السياسية - ص 176. وقد رفع السلطان عبد الحميد شعار "يا مسلمي العالم اتحدوا" ليواجه أعداءه الغربيين.

والدعوة إلى وحدة المسلمين ساهمت في ظهور أصوات في العالم الإسلامي تطالب بالتوفيق بين الأديان. وفي بدايات القرن العشرين ظهرت دعوات إلى توحيد الإسلام والمسيحية، ثم بدأت تعقد منذ مطلع

الخمسينيات مؤتمرات لحوار الأديان، ثم امتدت الفكرة حتى عقد "المؤتمر العالمي للأديان من أجل السلام" عام 1974م.. ولم يحقق شيئاً.

والجدير بالذكر أن رسائل إخوان الصفا في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي كانت من أنصار توحيد جميع الأديان والمذاهب الفلسفية بناء على المعارف العلمية والفلسفية.

وقد وقف كثير من الإسلاميين ضد تلك المفاهيم وعدوها مزيفة فالأديان لا يمكن توحيدها، لأنها تختلف فيما بينها وتنقض بعضها، فاليهودية "التلمود" تنفي المسيحية والإسلام، والمسيحية لا تؤمن بدين بعدها، والإسلام يتهم الديانتين بالتحريف ويرفض جوهر الدين المسيحي القائم على قضية الصلب..

وقد طالبوا بدلاً من ذلك أن يكون هناك حوار لاحترام الأديان، وإيقاف مفهوم الحروب الصليبية التي يشنها الغرب على المسلمين، وإعادة حقوق العرب والمسلمين المغتصبة ووقف استغلال ونهب خيراتهم، والتدخل في شؤونهم..

(19) هذه الفكرة بقي مفعولها سارياً حتى الآن، يقول د. علي زيعور في كتابه "قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية - ص 215": "كل رئيس يسعى، بلا وعي، لأن يكون مستبداً فعلاً وعادلاً كلاماً"، و"نحن الجماعة حتى في عصورنا القريبة لم نتخيل الرئيس خارج فكرة المستبد العادل أو صورة الأب الحنون بقساوة. دائماً الرئيس ماثل في تصورنا على أنه ذو قدرات كثيرة، ونحمله الرغبة في أن يرفعنا، ونطلب منه أن يقاتل عنا، ويجعلنا أبطالاً، ويؤمن لنا الحماية والرعاية والنجاحية إزاء العدو والمستقبل.."!

وتلك الفكرة أدت إلى تفرد الحاكم بالسلطة، وصار الحاكم هو نفسه الممثل للشعب فهو وحده الشعب والدولة، وعملياً هو وحده والشعب تابع له ولما يتبناه، وإن غير رأيه فالشعب التابع عليه أن يغير رأيه معه. وإذا ما ظهرت أخطاء وفساد يبرأ الحاكم وتتهم حاشيته بذلك!

(20) ورث قيادة المهدية عام 1880م، وهي حركة دينية سياسية صوفية. وبتأثير من ثورة أحمد عرابي في مصر، أعلن المهدي الجهاد ضد "الكفار الإنكليز" وأيضاً "الأتراك الكفار" كما سماهم. وحقق انتصارات على الإنكليز، واستولى على الخرطوم وأنهى سلطة العثمانيين في السودان، وأقام دولة مستقلة عام 1885م. ومع أنه مات في العام نفسه إلا أن الدولة التي أقامها استمرت في خلفائه عشر سنين من بعده، ثم استعاد الإنكليز سيطرتهم على السودان.

وقد شكل ابنه عبد الرحمن "توفي 1956م" في عشرينيات القرن الماضي حزباً سياسياً لحركة المهدية تحت رعاية الإنكليز سماه "حزب الأمة".

من المكتبة الشاملة: "دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي" لمحمد بن عبد الله بن سليمان السلمان.

وفكرة المهدي وعودته مقتبسة من العقيدة الشيعية ولكن جذورها تعود إلى التراث القديم، وهي تعبير رمزي عن قائد/ مخلص يأتي ليحقق العدل للمظلومين والمقهورين، فهو الأمل بمستقبل آت، وذاك الأمل يبعث الحياة واستمراريتها على الرغم من كل الاضطهاد والفقر والجوع..

(21) السلطان عبد الحميد الثاني: مذكراتي السياسية - ص 200، 201.

(22) السلطان عبد الحميد: مذكراتي السياسية - ص 105.

(23) تولى السلطة أحمد جمال باشا الملقب بالسفاح وهو قائد الجيش الرابع التركي الذي سيطر على سورية ولبنان وفلسطين والحجاز. وقد أعدم 11 شخصية وطنية في آب عام 1915م، وشنق 21 شخصية وطنية أخرى في أيار عام 1916م.

(24) الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد - ص 134.

(25) الكواكبي: المصدر السابق - ص 180.

(26) تابع المفكرون من بعده التنبيه إلى الخطر الصهيوني مثل نجيب نصار ورئيف خوري وخليل السكاكيني ومحمد رشيد رضا وقسطنطين زريق..

(27) في عام 1949م نسق سعادة "وكان لاجئاً في سورية لأنه مطلوب من السلطة اللبنانية" مع رئيس سورية في ذلك الوقت حسني الزعيم للقيام بانقلاب في لبنان، ولكن الانقلاب فشل، فقام حسني الزعيم بتسليمه إلى الحكومة اللبنانية، فأعدمته. وقد انتقم حزبه له باغتيال رئيس الوزراء اللبناني آنذاك رياض الصلح خلال زيارته للأردن.

(28) راجع كتاب بيان نويهض الحوت: "القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين 1917- 1948".

(29) عام 1920م تشكل الحزب الشيوعي المصري، وعام 1925م تشكل الحزب الشيوعي السوري اللبناني، ثم أخذت تتشكل الأحزاب الشيوعية في بقية الأقطار العربية.. وفي فلسطين ارتبط الحزب الشيوعي باليهود، إلى أن استقل العرب عام 1944م وسموا الحزب باسم "عصبة التحرر الوطني"..

(30) هناك كتب كثيرة ناقشت هذه القضية، منها كتاب: "الشيوعية المحلية وحركة العرب القومية" للحكم دروزة.

(31) الكواكبي: طبائع الاستبداد - ص 135.

(32) المؤلف من علماء الأزهر وقاض شرعي، وقد حوكم أمام هيئة كبار علماء الدين وفصلته من منصبه، ولكن وزير العدل رفض الحكم لاعتبارات حزبية فعزله الملك.. "راجع كتاب د. محمد محمد حسين: "الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر" - الجزء الثاني ص 86، 87".

لقد شهدت مصر حركة حزبية نشطة بعد الاستقلال الشكلي في شباط عام 1922م وظهور الدستور بعد عام، وإقامة نظام ملكي دستوري "نظرياً إلى حد كبير"، ولكن تلك الديموقراطية كانت تحت مراقبة وتدخل الاحتلال البريطاني من جهة، وموقف القصر منها.

(33) طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر - ص 22.

(34) طه حسين: في الشعر الجاهلي - ص 26.

(35) مصطفى صادق الرافعي: تحت راية القرآن، المعركة بين القديم والجديد - ص 6.

والجدير بالذكر أن الرافعي نظم الشعر في مدح الملك فؤاد لمدة أربع سنوات، حصل خلالها على امتيازات منها نشر كتابه "إعجاز القرآن" على نفقة الملك، وإرسال ابنه في بعثة لتعلم الطب في فرنسا!

(36) ذكر د. محمد أركون في كتابه "قضايا في نقد العقل الديني - ص 172"، بأن المثقفين الحداثيين في زمن مد الإخوان واكتساحهم الشارع المصري في ذلك الوقت خافوا وتراجعوا وقدموا التنازلات، فقد تم التراجع عن جملة هنا أو هناك، ولكن بقي المنهج سليماً وهذا هو المهم!

(37) ألبرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة 1798، 1939 - ص 77.

(38) المصدر السابق - ص 121، 122.

(39) الأحمدية والبهائية وفدتا من القارة الهندية، وقد ظهرتا في القرن التاسع عشر، وهدفهما تجديد الإسلام ولم يكن لهما تأثير في هذه المرحلة، بينما انتشرت أفكارهما وأنصارهما في المراحل اللاحقة وسنتحدث عنهما في فصل "تيارات الفكر المعاصر في المرحلة الثالثة"..

وهما لهما بعض الرؤى التي تختلف جذرياً عما شاع في الساحة الإسلامية. والتيار السلفي الأصولي لم يعترف بهما كمذهبين إسلاميين بل عدهما خارجين عن الإسلام وصدرت فتاوى من مراجع متعددة سلفية متشددة في العالم الإسلامي أفتت بكفرهما وردتهما عن الإسلام!

وقد قررت المحكمة الشرعية العليا في مصر عام 1925م رسمياً بأن الدين البهائي هو دين مستقل منفصل عن الإسلام.

وظهر أيضاً في القارة الهندية أحمد خان، الذي منحه الاستعمار البريطاني لقب سير. ومن آرائه أن القرآن الكريم لا السنة النبوية هو أساس التشريع. وقد أحلّ الربا البسيط في المعاملات التجارية، ونفى شرعية الجهاد لنشر الدين، إرضاء للاستعمار البريطاني الذي كان يعاني كثيراً من جهاد المسلمين الهنود له. وتلميذه سيد أمير علي أحلّ زواج المسلمة من المسيحي واليهودي، وأحل الاختلاط بين الرجال والنساء، ورفض عقوبة

الرجم.. وهذا ما تبناه بعض مفكري التيار الديني التحديثي في المرحلة الثالثة.

* * *

الفصل الثالث:

المرحلة الثانية من النهوض

الفكر القومي والاشتراكي:

إن الواقع المرير الذي انتهى إليه الوطن العربي في المرحلة الأولى من النهوض: الاستعمار والتجزئة وإقامة الكيان الصهيوني.. بلور فكرة أولوية التحرر السياسي من الاستعمار الغربي، والوحدة لإعادة لحمة الأمة المجزأة.

وقد عمت الثورات الوطنية العالم العربي للتحرر من المستعمر الغربي، وحققت دول عربية استقلالها في نهاية المرحلة الأولى من النهضة كسورية ولبنان. وفي مطلع المرحلة الثانية من النهوض حققت دول عربية أخرى استقلالها (الثورة المصرية 1952م، استقلال المغرب وتونس 1956م، الثورة العراقية 1958م، الثورة اليمنية 1962م، استقلال الجزائر 1962م..).

ولكن بقي حضور الاستعمار بمفهومه الحديث قوياً في كثير من الدول المستقلة من خلال عقد اتفاقيات اقتصادية أو ثقافية أو تحالفات أو قواعد أو امتيازات ما.. مع القيادات الوطنية البرجوازية التي استلمت القيادة. وقد التفتت تلك القيادات إلى مصالحها وتنمية ثرواتها على حساب الشعب، فقادت البلاد إلى التبعية السياسية والاقتصادية للاستعمار الغربي. مما يعني أن التحرر الأول من الاستعمار لم يكن نهاية المطاف، بل لا بد من استكماله بتحرير آخر للتخلص من تلك القيادات التي لم تعمل على إلغاء رواسب الاستعمار كالتخلف والجهل والفساد والفقر والاستغلال والظلم الاجتماعي.. وقد سمحت للاستعمار بالعودة إلى الاستغلال والامتيازات تحت شعار الاستقلال!

وقد ساهمت التراكمات الكمية لأطروحات المفكرين في المرحلة السابقة عن معاناة الفقراء والعدالة والاشتراكية.. في ظهور قيادات وطنية اهتم خطابها بمصالح الشعب ونهوضه، ونشر مفاهيم الثورة الاجتماعية الداعية

إلى تحطيم البنية التقليدية، وتشييد بنية جديدة لمصلحة الجماهير الكادحة والفقيرة، والتي هي صاحبة المصلحة الحقيقية في الثورة. وهنا تم الربط بين التحرر السياسي والتحرر الاقتصادي والاجتماعي من خلال الاشتراكية، وربطهما بالوحدة لبناء الأمة العربية الواحدة أي الحرية والوحدة.

وسنستعرض بإيجاز أهم منجزات هذه المرحلة، وما حققته من إضافة نوعية إلى منجزات مرحلة النهوض الأولى.

***

آ- الفكر القومي:

يعد ساطع الحصري أبو القومية العربية (1880 - 1968م)، وإن ولدت على يدي نجيب عازوري. لقد رأى الحصري أن الثقافة واللغة هما أهم عاملين في تكوين القومية العربية وليس الدين، فالعروبة لها الأولوية كما يقول في كتابه (العروبة أولاً). ولإنجاح الوحدة العربية دعا إلى فصل الدين عن الدولة لحل إشكالية الأديان والطوائف المتعددة.

لكن تلك العلمنة لم يدع لها كثير من أقطاب الفكر القومي فقسطنطين زريق في كتابه (الوعي القومي) الذي صدر عام 1939م ربط بين العروبة والإسلام. وزكي الأرسوذي رأى أن العروبة هي الإسلام [1]. وميشيل عفلق (1912 - 1989م) وهو من أعمدة مؤسسي حزب البعث [2] القائم على الفكر القومي لم يفصل العروبة عن الإسلام كما كان يذكر في محاضراته وكتبه مثل (في سبيل البعث) فهو يسميها: (العروبة المسلمة). والإسلام كما يراه هو التاريخ العربي/ الإسلامي وروح الحضارة في العلم والثقافة والفلسفة.. وهو المكون للشخصية العربية وللفكر العربي عبر التاريخ، ولا يراه معارضاً للفكر الاشتراكي. ونتيجة جدلية العروبة والإسلام في فكر عفلق رفض تبني فكرة علمانية الغرب الداعية إلى فصل الدين عن الدولة!

والمفكرون القوميون الأوائل في هذه المرحلة (الحصري، عفلق، زريق، الأرسوذي..) لم يقدموا برنامجاً فكرياً يستند إلى منهجية علمية في تحليل الواقع الملموس ووسائل تحقيق إعادة بناء الأمة الممزقة وإنجاز الديموقراطية والحرية، وما قدموه ليس سوى أدلجة وشعارات مثالية تحرك العواطف والمشاعر!

إن تطور الأحداث في مصر بدءاً من الثورة والخطاب القومي لجمال عبد الناصر، والإصلاح الزراعي في عام 1953م، وجلاء القوات الأجنبية في عام 1954م، ومؤتمر باندونج وتأسيس حركة عدم الانحياز كخط سياسي مميز للعالم الثالث في عام 1955م، وتأميم قناة السويس والعدوان الثلاثي الفاشل الذي أعقبه في عام 1956م [3]، ثم تمصير الشركات الأجنبية في

عام 1957م.. كل ذلك أجج المشاعر الوطنية والقومية، وأثمر في نهوض التيار القومي في هذه المرحلة وعلى امتداد الخمسينيات والستينيات في الشارع العربي.

لكن سياسة عدم الانحياز التي حاولت مصر من خلالها شق طريق خارج دائرة الحرب الباردة الدائرة بين النظامين العالميين "الشيوعية والرأسمالية"، لم تنجح لأن معاداة مصر للاستعمار التقليدي ولعب دور كبير في نصرة ومؤازرة قضايا التحرر العربي والعالمي، كدعم الثورة الجزائرية والثورة اليمنية.. وفضح الإمبريالية الأمريكية المعادية للقضايا العربية ودعمها اللامحدود للكيان الصهيوني. وتوجهها نحو الاتحاد السوفييتي لمساعدتها في قضايا كثيرة كالتسليح والسد العالي والتصنيع، وتبنيها للفكر الاشتراكي وإن كان ضمن منظور خاص ومستقل عن التبعية للشيوعية العالمية وخاصة الاتحاد السوفييتي.. كل ذلك وضعها في الصراع والمواجهة الحقيقية مع أمريكا!

لم يكن عبد الناصر في كتابه عن (فلسفة الثورة) قد تبين معالم طريقه بعد، ولكن رؤيته حول الحرية والاشتراكية تجذرت فيما بعد، وقد جاء في "الميثاق الوطني" عام 1962م: (إن الديموقراطية هي الحرية السياسية، والاشتراكية هي الحرية الاجتماعية، ولا يمكن الفصل بين الاثنين).

وكانت هناك إشكالية في أولوية الثلاثية الوحدة والتحرير والاشتراكية، وقد تبنى عبد الناصر فيما بعد "التحرير والاشتراكية والوحدة"، وهي شعار حزب البعث "وحدة، حرية، اشتراكية" والفرق بين الشعارين أن الأول قائم على التسلسل المنطقي، بينما الثاني قائم على العلاقة الجدلية.

وكانت الوحدة بين مصر وسورية في شباط عام 1958م أهم إنجاز للمد القومي بقيادة عبد الناصر لأنها كانت نواة إعادة لحمة الأمة العربية وقد انضمت المملكة المتوكلية اليمنية اتحادياً إلى الجمهورية العربية المتحدة.

ورافق ذاك النهوض القومي مهاجمة عبد الناصر للأحلاف والاستعمار، وقد سقط حلف بغداد بعد خروج العراق منه عقب نجاح ثورة تموز عام 1958م

والقضاء على النظام الملكي [4]، كما فشل المشروع الأمريكي في لبنان [5]..

لكن الوحدة لم تدم طويلاً، فقد انفصلت سورية عن مصر في أيلول عام 1961م، وهناك عوامل عديدة أدت إلى الانفصال أهمها البدء بالإنجازات الاشتراكية التي اتخذها عبد الناصر كالإصلاح الزراعي وتأميم الشركات الكبرى.. وقد لعب مالكو وسائل الإنتاج والتجار في سورية وهم قلة في المجتمع، دورهم بالتآمر مع ضباط سوريين لإسقاط الوحدة، تؤازرهم في ذلك مجموعة من رجال الدين الذين كانوا يهاجمون الاشتراكية تحت شعار الكفر!

لم يكن التيار القومي متجانساً مع بعضه، وقد حدثت فيه اختلافات وصدامات فحركة القوميين العرب [6] اصطدمت مع عبد الناصر، ومع البعثيين حيث كان القوميون يرون البعثيين خياليين رومانسيين، بينما البعثيون شككوا بنشأة الحركة القومية التي ولدت في الجامعة الأمريكية والمعادية للاشتراكية..

وانشقت الحركة إلى تيارات يمينية ويسارية.. والبعث حدثت فيه انشقاقات وصدامات..

وإلى جانب التيار القومي العربي، استمر التيار السوري القومي الاجتماعي ولا سيما في لبنان. أما دعاة القطرية أو الإقليمية فقد انتهى معظمهم ومن بقي انغلق على نفسه أمام صعود التيار القومي. وقد كانت الدعوات القطرية انتهازية ارتبطت بمواقف أنظمة دولها صعوداً ونزولاً، وقد نشطت من جديد في المرحلة الثالثة من النهوض مع عهد السادات.

- **القوميون والشيوعيون**:

إدانة القوميين للشيوعيين على موقفهم تجاه القضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني يعود إلى المرحلة الأولى من النهوض، وقد استمر في هذه المرحلة.

كما تابع القوميون نقد الشيوعيين لرفضهم فكرة القومية العربية ونعتها بالشوفونية، ونقدوا الفهم الشيوعي الاقتصادوي الذي أهمل العناصر

المتعددة للقومية، وركز على السوق والمصالح الاقتصادية غير المتوفرة لينسف فكرة القومية تحت شعار الانتظار حتى يتحول المجتمع إلى مجتمع صناعي فتنشأ دوافع المصلحة للتوحيد..

فالوطن العربي متكامل في اقتصادياته ولكن الاستعمار هو الذي جزأ وفتت التكامل. والوحدة هي السبيل إلى استكمال التحرر الاقتصادي. والقومية في أوروبا إنما كانت من أجل ذلك الهدف، بينما غيبته الشيوعية الاقتصادوية!

ويجب التمييز بين النموذجين العربي والأوروبي على صعيد العناصر المكونة للأمة ودولة الأمة، فكينونة الأمم في أوروبا كانت موجودة تاريخياً، وما فعلته البرجوازية هو تشكيل دولة الأمة كما فعل بسمارك في توحيد ألمانيا، وقد تمت لتأمين دائرة تحدد المجال الحيوي لمصالح الطبقة البرجوازية الرأسمالية الواحدة.

فعناصر تكوين الأمة لم تنشأ في أحضان الرأسمالية بعد قضائها على دويلات الإقطاع المغلق، إنما نشأت دولة الأمة لخلق السوق الاقتصادية الواحدة من أجل حفظ مصالحها في مجالها الوطني أمام أطماع البرجوازيات المنافسة.

أما في الوطن العربي فالدعوة إلى قيام الدولة القومية ليس لحماية المصلحة البرجوازية، بل هي لمواجهة المشروع الاستعماري التجزيئي، فالتناقض هو بين تجزيء الأمة لإضعافها وبين وحدتها المرتبطة بقوتها وكينونتها وحقها الطبيعي في الوجود والحياة الحرة. ولذلك ليست هي مختلقة وليست وهماً مثالياً.

وقد كانت مواقف الحركة الشيوعية مذبذبة تجاه القضية القومية، فمع بدايات اتساع المد القومي وقبل قيام الوحدة بين مصر وسورية بدأت تتراجع الأحزاب الشيوعية عن مواقفها السابقة المعادية للقومية العربية والوحدة، فأعلنت إيمانها بالأمة العربية وبالوحدة ورحبت كثيراً بقيام الوحدة بين مصر وسورية، إلا أنها ما لبثت أن أبدت تحفظها حول شكل الوحدة وليس مضمونها الذي أيدته. ثم بدأت توجه النقد الشديد للهيمنة

الاقتصادية المصرية والديكتاتورية، وتحت شعار الديموقراطية وعدم الهيمنة نقدت الوحدة نفسها ثم انقلبت مفاهيمها من تأييد الوحدة إلى طرح الاتحاد الفيدرالي بدلاً من الوحدة لأن لكل دولة عربية خصوصيتها الإقليمية والاقتصادية بين الدول العربية. ثم صارت تطرح التضامن العربي فقط والتأكيد على الاستقلالية الكاملة للدولة الواحدة كما ذكر في أدبيات الأحزاب الشيوعية [7].

وقد اصطدم الشيوعيون في سورية مع عبد الناصر لفرضه حل الأحزاب. وكان عبد الناصر قد حل الأحزاب في مصر، وشكل الاتحاد القومي عام 1956م ليكون الجامع للشعب كله وبكل اتجاهاته وطبقاته [8]. وعندما طلب عبد الناصر حل الأحزاب في سورية من أجل الوحدة، قبل حزب البعث لأنه رأى أن مشروع الوحدة أهم من بقائه كحزب، بينما رفض الشيوعيون وجعلوا بقاء الحزب أهم من الوحدة، فهاجمهم عبد الناصر بشدة ودعا إلى مكافحة الشيوعيين في مصر وسورية، فلاحقهم الجهاز الأمني ففر قسم منهم، ومن بقي وقبض عليه رمي في السجون.

وإضافة إلى الصراعات الخارجية للأحزاب الشيوعية والحركات الماركسية، عانت تلك الأحزاب أيضاً من الخلافات والانشقاقات الداخلية نتيجة الاختلاف حول القضايا الوطنية والقومية، وحول عقلية قياداتها التي هيمنت باسم الديموقراطية المركزية/ المركزية الديموقراطية، والتي كانت عملياً ديكتاتورية مطلقة [9].

- **القوميون والتيار الديني السلفي**:

واصطدم القوميون أيضاً مع التيار الديني السلفي المتشدد الذي رأى أن الفكر القومي علماني أحل القومية والاشتراكية مكان الإسلام للقضاء عليه، لذلك نعت القوميين بالكفر والخروج عن الإسلام تنطبق عليهم أحكام الردة [10]. وادعى التيار بأن مفهوم القومية عودة للجاهلية العصبية التي قضى عليها الإسلام، وثبت بدلاً منها الرابطة الدينية فلا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى.

ولم يفد التيار القومي المعتدل ما قدمه من حجج كافتخاره بالحضارة العربية الإسلامية وبأنها ميراثه الثقافي، وبأنه لم يدع إلى إلغاء الدين بل الفصل بين العبادات والمعاملات فالعبادات قضية خاصة، أما المعاملات/ التشريعات المدنية فلم تعد تصلح كما هي، وفيها اختلافات عديدة بين التيارات الدينية نفسها حول ما يصلح وما لا يصلح، ولا توجد رؤية واحدة حول الاجتهاد والتأويل، وما يقوله السلفيون المتشددون إنما هو يمثل وجهة نظرهم التي ترى أنهم هم وحدهم على صواب وكل ما عداهم مخطئ وكافر!

ومفهوم السلفية عن الأمة الإسلامية يعني الإيمان بوجود أمة مسيحية وأمة يهودية وأمة بوذية.. وهذا ما لا يقبله العقل كما أنه يحول الصراع العربي الصهيوني إلى صراع ديني وهذا ما تسعى إليه الإمبرياليات. وهل يمكن القول بأمة إسلامية مقابل واقع حقيقي تعيشه شعوب العالم كالأمة البريطانية والأمة الألمانية والأمة الصينية والأمة اليابانية.. وتلك الأمم لم تقم على أساس الدين وإنما قامت على روابط أخرى تجمعها كالأرض واللغة والتاريخ والمصالح والآلام والآمال..

لقد كانت الدولة الأموية عربية الطابع بينما الدولة العباسية لم تكن كذلك وهذا أحد أسباب انهيارها مع أن الخلفاء كانوا عرباً، فالتجزؤ والانقسام الذي حدث نتيجة وجود العنصر الإسلامي غير العربي بدءاً من عهد المأمون وصراعه مع أخيه الأمين حيث لجأ المأمون إلى الأتراك وفتح لهم الأبواب للسيطرة على مقاليد الدولة العربية، فماذا كانت النتيجة؟!

والقومية ليست إحياء للعصبية الجاهلية التي ألغاها الإسلام، فالعصبية القبلية المستندة إلى الدم كانت دولة البدوي العربي وحدودها بين قبائل العرب، وانحيازاً أعمى للقبيلة في الخير والشر ولكل قبيلة رايتها، بينما القومية توحد العرب جميعاً تحت راية واحدة، ولا تستند إلى نقاوة الدم فهذه نظرية عنصرية "نازية، صهيونية" فلا دم نقي للشعوب ولا تقام على أساسه القوميات.

وهي ليست شوفونية ونرجسية ترفع العربي فوق الأمم الأخرى، فما العرب إلا قوم كغيرهم من أقوام العالم، ولا تمييز لقوم على قوم إلا بمقدار القيم التي يحملونها وبالرسالة الإنسانية التي يدعون إليها، لذلك هي مع الحق والعدل وإن كان مع غير العربي. وليس افتخارها بتاريخها وتراثها العربي الإسلامي مطلقاً لأنها ترى فيه الجيد وفيه السيئ، ورجال تاريخها فيهم الجيد والأجود وفيهم أيضاً السيئ والأسوأ!

وبقي التيار الديني السلفي المتشدد متمسكاً بمواقفه ولم يغيرها، وبقي ينظر إلى المسيحيين العرب كمواطنين من الدرجة الثانية. كما استمر بتسمية المسيحيين بالنصارى نسبة إلى الناصرة، للدلالة على أنهم لا ينتمون للمسيح لتحريفهم ديانة المسيح فهم ليسوا بمسيحيين!

لكن برزت فيما بعد اتجاهات دينية معتدلة تبنت الفكر القومي ولم تميز بين المسلم والمسيحي فهما متساويان في الحقوق والواجبات، وهذا ما سنتابعه في المرحلة الثالثة.

***

ب- الفكر الاشتراكي:

انتشرت أدبيات الاشتراكية العلمية "الفكر الماركسي اللينيني" عن طريق الأحزاب والحركات اليسارية وتطور وسائل الإعلام، وانتشار الترجمات والدراسات والصحف والمجلات اليسارية.. وصارت سمة التقدم تبني الاشتراكية والحديث عنها، وهي ليست مجرد نظام اقتصادي بل منظومة فكرية تقدمية في المجالات السياسية والاجتماعية.. وتحديث مناهض للرجعية والتخلف والاستغلال والنهب والاستعمار، وبناء قاعدة اقتصادية متطورة ومتنوعة تحرر أسر البلاد من التبعية.

وقد تبنى التيار القومي جدلية التحرر السياسي والتحرر الاقتصادي والاجتماعي والفكري (ثورة التحرر السياسي وثورة التحرر الاجتماعي).

إن مالكي وسائل الإنتاج قلة في المجتمع، وهم يستعبدون جماهير الشعب ويصادرون حريته السياسية لأن مالك المال مالك للحرية السياسية في النظم البرلمانية الليبرالية إذ يسيطر على البرلمان وبالطرق

الديموقراطية لأنه يمتلك قدرة الدعاية الانتخابية وشراء الأصوات والرشوة بل والتهديد.. وبما أن غير المالك مستعبد في لقمة عيشه للمالك ولا يمكنه امتلاك وسيلة الإنتاج، فلا بد من تحريره من الاستعباد والاستغلال والاستلاب ولن يكون ذلك إلا في الاشتراكية لأنها تضع وسائل الإنتاج بين يدي الشعب، وتلغي الملكية الخاصة المعبرة عن الأنانية والجشع وهي أساس الشر كله في العالم وعبر التاريخ!

وقد تبنى القوميون الفكر الاشتراكي برؤية عربية تختلف عن رؤية الشيوعيين العرب تحت تسميات متنوعة: الاشتراكية العربية، الطريق إلى الاشتراكية، الطريق العربي إلى الاشتراكية، وقد أثر ذلك إلى حد ما على استفراد الشيوعيين سابقاً بالفكر الاشتراكي، وزاد أيضاً الصراع التنافسي معهم.

وطرح الاشتراكية العلمية في أدبيات الأنظمة العربية الاشتراكية لم يمارس حقيقة، لأن الاشتراكية العلمية تعني الماركسية اللينينية، وهي ليست مجرد الاشتراكية فهناك المفهوم الفلسفي لها ويتضمن المادية الجدلية أي عدم الاعتراف بالدين على صعيد الدولة ومؤسساتها. وقد ساد في تلك الأنظمة شبه مفهوم العلمنة الذي تجلى بإبعاد رجال الدين عن التدخل في شؤون النظام والسياسة ولكن بقي الإسلام في الدستور الدين الرسمي للدولة، وبقيت لرجال الدين مكانتهم ولهم وزارة خاصة بالشؤون الدينية/ الأوقاف، وبقيت مكانة المفتي ودار الإفتاء، وبقي تدريس الدين في المدارس. ولم تتغير قوانين الأحوال الشخصية "الزواج والطلاق والإرث"، وبقيت شعائر الدين تطغى على الحياة العامة ولا سيما في المناسبات التي تشارك فيها السلطة، إلى جانب مباركة رجال الدين للسلطة والدعاء لها..

ومن جانب آخر لم يطرح مفهوم ديكتاتورية البروليتاريا والصراع الطبقي والقضاء على الطبقة البرجوازية المالكة لوسائل الإنتاج، بل طرحت المصالحة والتفاهم بين الطبقات، وساد مفهوم تذويب الطبقات. والتأميم

لم يشمل المؤسسات الصغيرة وقد بقي القطاع الخاص إلى جانب القطاع العام، والإصلاح الزراعي حدد الملكية الزراعية بدلاً من إلغائها جذرياً..

فما تم إنجازه عملياً بشكل عام هو رأسمالية الدولة حيث كان تأميم المصانع مثلاً عملية تحويل ملكيتها الخاصة إلى ملكية عامة أي إلى الدولة، وليس إلى العمال أنفسهم ليديروها ويشرفوا عليها [11]!

***

لقد دافع الاشتراكيون عن الاشتراكية بتكرير الخطاب عن عدالة الاشتراكية وبأنها لمنع الاستغلال والنهب وسرقة جهد العامل والفلاح.. واستحضروا التاريخ لإجراء مقاربات تثبت وجود تجارب اشتراكية في التاريخ العربي الإسلامي كمؤاخاة المهاجرين والأنصار في عهد النبي، وموقف أبي ذر الغفاري وحركة الزنج والقرامطة الذين شوه التراث سمعتهم بأنهم كفرة وزنادقة وأشاعوا المال والنساء وأسقطوا العبادات..

وكان هدف الاشتراكيين من تلك المقاربات إقناع الشعب المشبع بتأثير خطاب رجال الدين والتيارات الدينية كحركة الإخوان المسلمين [12] والوهابية/ التيمية اللتين تكفران القومية والعلمنة والاشتراكية معاً، ولا تؤمنان إلا بالنظام الإسلامي.

ولكن التيار الديني لم يغير مواقفه، بل كتب عن النظام الإسلامي والاقتصاد للرد على الاشتراكيين!

إلا أن ذاك الموقف لم يمنع أحد أقطاب الإخوان المسلمين وهو د. مصطفى السباعي [13] من الليونة تجاه الاشتراكية التي اكتسحت الشارع العربي، فحاول تقريب الإسلام من الاشتراكية في كتابه عن (الاشتراكية في الإسلام) المبني على حديث النبي: (الناس شركاء في ثلاث في الماء والكلأ والنار).

وإلى جانب التيار الديني الرافض للاشتراكية وقف الإقطاعيون والرأسماليون والتجار والقوى الرجعية والمحافظة واحتموا برجال الدين والحركات الإسلامية لأدلجة مهاجمة وتكفير الاشتراكية.

***

لقد حدثت قفزة نوعية شاملة في هذه المرحلة تم فيها تحديث الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية واتساع رقعة المعاصرة.. وكذلك حدثت قفزة نوعية في المجالات العلمية والأدبية والفكرية والثقافية والأيديولوجية.. وازدادت نسبة المتعلمين والمثقفين نتيجة انتشار العلم والمعرفة والمدارس والمعاهد والجامعات، والكتب والصحف والمجلات المتنوعة، وساهمت الترجمات الواسعة في اتساع دائرة نقل الثقافة والحضارة الغربية والشرقية إلى العقل العربي وقد شملت أنواع العلوم والمعارف والمذاهب والمدارس السياسية والفكرية والفلسفية والأدبية والفنية.. وشاعت في العالم العربي مدارس فنية وأدبية متعددة كالوجودية التي وجدت لها أنصاراً في الوسط الأدبي، كما ظهرت اتجاهات فردية كالشخصانية والتعادلية [14]..

وعلى الرغم من ذلك النهوض وتلك الصورة الإيجابية حدثت النكبة الثانية في حزيران عام 1967م، فزرعت اليأس والإحباط في الشارع العربي والفكر العربي الذي تخبط في ردود أفعال انفعالية وتحليلات لا علمية عن أسباب النكبة، وظهرت مواقف سلبية تزيد الإحباط وتدفع باتجاه الاستسلام للأمر الواقع، وأدلج التيار الإسلامي الأصولي بأن نكبة حزيران 67م هي هزيمة للفكر القومي والاشتراكي والعلمانية، والأنظمة التي تبنت ذلك. كما أدلج سابقاً لنكبة عام 48م بأنها هزيمة للفكر الليبرالي والعلماني!

ولكن رافقت تلك المرارة أحداث هامة أفرزتها المرحلة في الساحة العربية وقد عوضت جزءاً من ألم النكبة وخففت الانفعالات، وساهمت في تقوية الأمل بإمكانية استمرار معركة التحرير ودحر الاستعمار والانتصار عليه، وأهمها:

1- انتصار الثورة في اليمن الجنوبي وتحقيق الاستقلال وتطبيق النظام الاشتراكي، 2- الثورة الفلسطينية التي أصبحت نواة للثورة العربية، 3- حرب الاستنزاف، 4- مؤتمر قمة الخرطوم [15]، 5- ثورة الفاتح من أيلول عام 1969م في ليبيا [16]..

وبعد أن هدأت النفوس، أخذ المفكرون يستعيدون الحدث للمراجعة والتحليل العلمي والرؤى السليمة، فظهرت عدة محاولات للإجابة عن سبب النكبة [17].

***

كانت المرحلة الثانية قصيرة زمنياً ولكنها غنية بتنوع أطروحاتها ولا سيما على الصعيد التحرري والاشتراكي، فما زرعته من تحريض للشعوب العربية والإسلامية المقهورة كونت رؤية معادية للإمبريالية، وعلى الصعيد العربي أسست قاعدة الربط الجدلي بين التحرر السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري والإنساني، والتحديث والثورة التحررية لبناء الأمة العربية الواحدة [18].

ولا شك بأن تكالب الدول الإمبريالية وعلى رأسها أمريكا والصهيونية لوأد النهوض العربي حقيقة موضوعية، ولكن تلك الحقيقة لم تؤد عند معظم الأنظمة العربية إلى حسم الموقف في التحالفات وتحديد جبهة الأصدقاء والأعداء، واستثمار الطاقات والإمكانيات المادية.. كما فشلت محاولات الارتباط الوحدي أو الاتحادي، ولم تحل المشكلات الاقتصادية في كثير من الدول العربية وبقيت تنخرها من الداخل [19].

وهذه المرحلة لم تصل إلى صوغ فكر منهجي تحديثي جذري، ضمن منظومة معرفية لتكون المرجعية المقبولة للفكر العربي المعاصر، يقول د. محمد أركون: (في الواقع أن جميع "النخب" السياسية التي استلمت السلطة بعد الاستقلال "أو لنقل بعد عام 1950م"، اهتمت فوراً بامتلاك أدوات القوة والجبروت من قوات عسكرية وأجهزة بوليسية ومخابراتية من أجل السيطرة على كل الأرض الوطنية. كما واهتمت باستيراد الصناعة الثقيلة والآلات التكنولوجية. ولكنها لم تهتم بالتحديث العقلي أو الفكري الباحث عن المعنى والحرية. أو قل اهتمت بالجانب الأول أكثر من الجانب الثاني بكثير. وهكذا أدت هذه السياسة إلى اختلال التوازن بين الحداثة المادية والتكنولوجية من جهة/ وبين الحداثة الفكرية أو العقلية من جهة أخرى) [20].

إن الفكر الشمولي، يذوب الحرية الإنسانية والحرية السياسية والحرية الفكرية في الأنا الحاكمة، فلا تستطيع أن تؤسس قاعدة جماهيرية راسخة تتمتع بالحرية المسؤولة والديموقراطية الواعية، لتكون قلعة تمنع أن تعصف بها رياح التغيير مئة وثمانين درجة بكل يسر كما حدث في عهد السادات. فالفكر الشمولي ديكتاتورية مطلقة لأنه يتصور نفسه وحده الممثل الحقيقي للشعب والمالك للحقيقة المطلقة. وتلك الرؤية تفتح المجال واسعاً للأخطاء العديدة والانتهازية والوصولية والمحسوبية والتملق والمداهنة والنفاق، وما يجر ذلك من الاستغلال والقمع والفساد والنهب والسرقة..

***

يمكن إجمال ما قدمه فكر هذه المرحلة في النقاط التالية:

1- رسوخ الفكر القومي/ الأمة العربية الواحدة.

2- الفكر الاشتراكي ضمن مفهوم الخصوصية العربية.

3- انتشار مفهوم العلمنة.

4- نشر العلم بكل أنواعه، وأهمية الربط بين النظري والتطبيقي/ التكنولوجيا.

5- إحياء الأخلاق القائمة على العدل والإخلاص في العمل، ومحاربة الفساد.

6- تحقيق مبدأ المواطنة، دمج أبناء الشعب في الوطن دون النظر إلى دينهم أو طائفتهم أو إثنيتهم إن كانوا من أصول غير عربية.

7- تحقيق قفزات نوعية في حقوق الأسرة والطفل، والمرأة وحريتها والمساواة بينها والرجل في الحقوق والواجبات. وبعض الدول العربية العلمانية كتونس منعت تعدد الزوجات!

وإلى جانب تلك الأفكار، استمرت أفكار التيارات المختلفة: التيار الديني السلفي، والتيار الشيوعي..

لكن برز اتجاه لاديني/ إلحادي تميز بنقده للفكر الديني نفسه، وقد كان ضعيفاً في هذه المرحلة إلا أنه امتد في المرحلة الثالثة من النهوض.

والاتجاه الإلحادي بصيغته العامة يمكن أن نجده في إحدى الأيديولوجيات السابقة؛ فالليبرالي العلماني يمكن أن يكون ملحداً، والوجودية فيها اتجاه إلحادي [21]، ونقد الماركسية اللينينية الفلسفي للدين مبني على أسبقية المادة/ الوجود على الفكر ومثلها الوجودية، لكن للماركسية نقداً آخر يتعلق بموقف الدين من الفقراء ونعيم الآخرة، وموقف رجال الدين واستغلالهم الدين لصالح الإقطاع والتجار والأثرياء والتخلف، فالكنيسة كانت على رأس النظام الإقطاعي تضطهد الفلاحين الفقراء وتستغلهم باسم الدين وتبيعهم صكوك الغفران من ذنوبهم وشراء نصيب لهم في الجنة.. ووقفت ضد العلم "سجن جاليلو وحرق برونو"..

لذلك قال ماركس (الدين أفيون الشعوب)، وليس قصده الإسلام لأنه لم يطلع مطلقاً على الإسلام، ففي مراسلاته مع أنجلس، نجد أن أنجلس يخبر ماركس عن الدين الإسلامي وبأنه يريد الاطلاع عليه، ويشجعه ماركس على ذلك ويطلب منه أن يحدثه عنه، ولكن ماركس مات قبل أن يتحقق ذلك.

وقد عرفت الاتجاهات اللادينية في التاريخ القديم وفي الإسلام، ونجد في القرآن الكريم كثيراً من الآيات التي تناقش معظم تلك الاتجاهات.

ولما ساد الإسلام كدين ودولة انحسرت تلك الاتجاهات، ولكن في العصر العباسي شاع مصطلح الزندقة إلا أن كثيراً من الذين اتهموا بالزندقة والكفر لم يكونوا كذلك، وما كان اتهامهم إلا لتبرير عقابهم وقتلهم.

لذلك استخدام كلمة "الزندقة" لم يكن دقيقاً فقد حمل مدلولات كثيرة، يهمنا منها استغلال الدين لمحاربة الخصومة السياسية.

وقد استعرض د. عبد الرحمن بدوي معاني كلمة الزندقة وتعدد مدلولاتها ومنها كل ما يخالف أهل السنة: (بل انتهى به الأمر أخيراً إلى أن يطلق على من يكون مذهبه مخالفاً لمذهب أهل السنة..) [22].

وبعد أن يتحدث عن اتهام الخلفاء لخصومهم السياسيين بالزندقة لتبرير قتلهم، يذكر بأن ذلك لم يكن حكراً على الخلفاء فقط بل شاركهم في ذلك الوزراء أيضاً: (ولم يقتصر الأمر على الخلفاء في اتهامهم الخصوم بالزندقة

لأغراض سياسية، بل كان هناك من الوزراء من يتخذون الاتهام - الباطل غالباً- بالزندقة سبيلاً للكيد والوقيعة بنظرائهم أو خصومهم الذين يحقدون عليهم) [23].

وإلى جانب القتل كانت هناك أساليب التعذيب المتنوعة لخصومهم [24].

وقد وجد في ذاك العصر ملحدون كابن الراوندي الذي عدّه ابن الجوزي من كبار الزنادقة والملاحدة: (من تأمل حال ابن الراوندي وجده من كبار الملاحدة) [25]. وهناك ابن الراوندي الذي أنكر النبوة، والقرآن وبلاغته، والملائكة ودورهم في معركة بدر، وشعائر الحج [26]..

والرازي أيضاً أنكر النبوة، ولكن من موقع غنوصي كما يقول د. محمد عابد الجابري: (نعم لقد أنكر الرازي النبوة، ولكن لا من موقع عقلاني مادي، بل من موقع غنوصي روحاني) [27].

إن الكتب التي تحدثت عن الإلحاد والزندقة في تلك العصور تحتاج إلى دراسة وتحليل ونقد ولا سيما الكتب التي كفرت المذاهب والفرق جميعها عدا فرقة الحاكم، لأن الذين كتبوها ارتبطوا بالسلطة، وقد أدلجوا لفكر الحاكم ببعد ديني تكفيري يبيح دم المعارض كمرتد عن الدين!

* * *

الهوامش

(1) الأرسوذي: الأعمال الكاملة - ج 2 - ص 209.

وعلى الصعيد الإصلاح الديني دعا الأرسوذي إلى الاجتهاد "الأعمال الكاملة - ج 2 - ص 116".

(2) في نيسان عام 1947م أسست مجموعة من القوميين "حزب البعث العربي" منهم ميشيل عفلق وزكي الأرسوذي وصلاح الدين البيطار.. وفي عام 1953م توحد "حزب البعث العربي" مع "الحزب العربي الاشتراكي"، وصارت التسمية "حزب البعث العربي الاشتراكي".

(3) لم يعد الاستعماران القديمان بريطانيا وفرنسا يتحملان جمال عبد الناصر وحملاته السياسية عليهما ومساندة حركات التحرر، فقد صار العدو رقم واحد بالنسبة لهما، ولا سيما بعد صفقة السلاح المصرية مع تشيكوسلوفاكيا عام 1955م، وفتح باب التعامل الاقتصادي مع الاتحاد السوفييتي.. فشنا عدوانهما وبمشاركة الكيان الصهيوني على مصر للتخلص منه، فاستبسل الشعب المصري في المواجهة ووقف الشارع العربي إلى جانبه. وكانت فرصة للولايات المتحدة لتثبيت قدميها في المنطقة العربية كبديل عن الاستعمار الأوروبي الذي استهلك نفسه. فصدر البيان الأمريكي السوفييتي الشهير الذي أجبر الثلاثي على التوقف والانسحاب.

ولكن لم تفلح أمريكا في الضغط على عبد الناصر ليدور في فلكها ويبتعد عن الاتحاد السوفييتي.

(4) أنشأت أمريكا الحلف بحجة تطويق الخطر الشيوعي السوفييتي، وقد تألف من تركيا وإيران والباكستان والعراق ثم انضمت إليه الأردن.

وقد خشي ملك الأردن حسين بعد سقوط الحلف من تأثير نفوذ عبد الناصر والمد القومي والتحرك الشعبي، فطلب حماية بريطانيا له فأمنت له الحماية الجوية.

(5) نشبت حرب أهلية في لبنان عام 1958م بين التيار الوطني القومي الرافض لحلف بغداد وللتيار المتأمرك وعلى رأسه الرئيس كميل شمعون، فطلب شمعون من الرئيس الأمريكي إيزنهاور التدخل العسكري في لبنان لحماية نظام الحكم فيه من خطورة التحرك الشعبي ومن ورائه الجمهورية العربية المتحدة واحتمال انضمام العراق لها، فأسرعت أمريكا في اليوم التالي لثورة العراق لنجدة لبنان ووصل الأسطول السادس ونزلت قوات المارينز على الشواطئ اللبنانية، وتطورت الأمور ولكنها حلت بتولي قائد الجيش اللواء فؤاد شهاب رئاسة لبنان.

(6) حركة القوميين العرب هي في الأصل تنظيم تكون من الفلسطينيين الناصريين الذين تبنوا وجهة عبد الناصر القومية والوحدة العربية، لكن عندما ظهر أواخر الخمسينيات وبداية الستينيات تيار فلسطيني ينادي بضرورة تبني الكفاح المسلح واستقلالية العمل الفلسطيني الوطني عن توجهات الأنظمة العربية وسياساتها، اقتنع القوميون بالعمل المسلح ضد الكيان الصهيوني فاصطدموا مع عبد الناصر الذي كان ضد ذلك حتى لا يفتح مجالاً للصدام مع الكيان الإسرائيلي وهو ليس مستعداً له بعد، فوقع الانقسام وتسموا باسم "حركة القوميين العرب"، ولكن بعد نكبة عام 67م تغير الموقف.

لقد حدثت تقلبات فكرية وتخبطات عديدة في الحركة حول الموقف من الأحزاب العربية والحزب الواحد والفكر الاشتراكي.. وقد اصطدمت خلال تاريخها مع حزب البعث في كل من سورية والعراق.. مع أنها دخلت في تحالفات مع البعثيين في القطرين بل عقب ثورة الثامن من آذار عام 1963م في سورية دعت للتحالف بين القوميين العرب والبعثيين والشيوعيين.

وفي العراق تحالف عبد الكريم قاسم مع الشيوعيين لضرب القوميين العرب!

وفرع الحركة في اليمن الجنوبي كون مع ثماني منظمات صغيرة "الجبهة القومية لتحرير الجنوب اليمني المحتل". واستطاعت الجبهة بعد ثورتها

المسلحة ضد المستعمر البريطاني التي بدأت في تشرين الأول عام 1963م، أن تحقق الاستقلال عام 67م وتستلم السلطة.

وفي الوسط الفلسطيني توحدت الحركة "الجبهة القومية لتحرير فلسطين - شباب الثأر" مع أبطال العودة، وجبهة التحرير الفلسطينية، تحت تسمية الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في أواخر عام 1967م، ثم انشقت الجبهة عام 68م إلى جبهتين: الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة، الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

ثم فصلت الجبهة الشعبية "القيادة العامة" منها القوميين العرب "شباب الثأر".

وتبنت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين الفكر الماركسي اللينيني رابطة بين التحرير السياسي والاقتصادي والاجتماعي.. ثم انشقت عنها عام 69م الجبهة الديموقراطية تحت شعار أن الجبهة الشعبية تهتم بالجانب النضالي أكثر من اهتمامها بالعمل الأيديولوجي والتثقيفي إضافة إلى الفردية. وانضمت إلى الجبهة الديموقراطية، المنظمة الشعبية لتحرير فلسطين وعصبة اليسار الثوري..

وبقيت الحركات القومية والناصرية منتشرة في الوطن العربي، ولسنا في إطار استعراضها كلها ولكن يمكن إعطاء نموذج عن تحولها الظاهري إلى حزب مع آخرين مع أنها كانت ضد الحزبية؛ ففي سورية مثلاً تشكل حزب الاتحاد الاشتراكي العربي عام 1964م من أربع حركات ناصرية هي "حركة القوميين العرب، حركة الوحدويين الاشتراكيين، الجبهة العربية المتحدة، الاتحاد الاشتراكي السوري".. وبين عامي 65م و 66م انسحبت حركة الوحدويين الاشتراكيين وحركة القوميين العرب، وحدثت تحليلات كثيرة حول انسحاب حركة القوميين العرب أهمها أنها لم تحل نفسها عملياً عندما انضمت إلى الاتحاد، وكانت تسعى للهيمنة وفرض آرائها..

وفي العام 67م حدث انقسام داخلي في الاتحاد بين جناحين انتهى عام 70م إلى حل الجناح الثاني نفسه.

وفي عام 1973م انشق الحزب إلى حزبين أحدهما بقي في الجبهة الوطنية التقدمية، والآخر تحول إلى المعارضة، وكل منهما يحمل الاسم نفسه..

(7) راجع على سبيل المثال كتاب عزيز الحاج "ثورتنا في العراق وقضية الوحدة"!

(8) بعد الانفصال أنشأ عبد الناصر حزب السلطة "الاتحاد الاشتراكي العربي" في عام 1962م، ليكون تجمعاً لتحالف قوى الشعب العاملة. لكن عقب اضطرابات عام 1969م أخذ يفكر بالتعددية الحزبية في مصر، وكانت هناك معارضة في القيادة تحت شعار أن الظروف لا تناسب ذلك، ونتيجة انشغال مصر بالأحداث "حرب الاستنزاف، مشاريع التسوية، العدوان الأردني على المقاومة.."، لم تنضج الفكرة وجاءت وفاة عبد الناصر المبكرة لتطوي المرحلة!

وإلغاء الأحزاب تحت شعار فسادها أو تآمرها أو تمثليها لمستغلين يريدون نهب الشعب أو لارتباطاتها الخارجية.. منطقي تماماً ولكن لا يعني ذلك أن يؤدي إلى إلغاء الفكرة التعددية والحياة الديموقراطية والنقد البناء!

(9) قاد خالد بكداش الحزب الشيوعي السوري بيد حديدية ستالينية، وقد كان يطرد أي معارض له كما حدث مع إلياس مرقص نتيجة النقد الذي وجهه لفكر الحزب وممارسته.

وبسبب ديكتاتورية بكداش والتبعية العمياء للسوفييت والاختلاف حول قضايا القومية والوحدة العربية وفلسطين وقرار التقسيم والثورة المصرية عام 52م.. حدثت خلافات عميقة في الحزب ما بين العامين 69 - 73م ولا سيما أواخر عام 71م، وأدت إلى انشقاق الحزب.

(10) لقد استمر في هذه المرحلة خطاب التيار الديني السلفي التكفيري، فالقوميّ في نظر التيار كالوثني وهذا يعني أنه لا يجوز للمسلم أن يتزوج فتاة مؤمنة بالفكر القومي ولا يجوز للمسلمة أن تتزوج قومياً. وتطلق المسلمة إن صار زوجها قومياً فإن لم تطلق فالعلاقة بينها وزوجها هي علاقة زنا وأولادها أولاد زنا كما يقول بعضهم!

وقد حقروا القوميين لدرجة أنه إن سلم القومي على المسلم السنيّ فلا يجوز رد السلام عليه، ولا تؤكل ذبيحته، وإذا مات القومي لا يغسل ولا يكفن ولا يدفن في مقابر المسلمين..!

(11) في جمهورية اليمن الديموقراطية، في المرحلة الثالثة من النهوض، تبنى قادتها وهم في الأصل من القوميين العرب، الاشتراكية العلمية، وقدموا تجربة مختلفة عن نماذج الاشتراكية في الوطن العربي، وصار اليمن الجنوبي قبلة لليسار العربي منذ أواخر السبعينيات من القرن الماضي وحتى أواخر الثمانينيات. ونتيجة المؤامرات على اليمن الجنوبي داخلياً وخارجياً، انتهت إلى صراعات داخلية ثم نشبت الحرب بين شمالي اليمن وجنوبه، وانتصر الشمال وتوحد شطرا اليمن عام 1990م وقضي على الاشتراكية، وخمد الصراع بين الاشتراكيين ونظام الشمال ظاهرياً!

(12) وقف الإخوان المسلمون ضد عبد الناصر منذ بدايات الثورة لعدم تطبيقه النظام الإسلامي. وعندما حل عبد الناصر الحزب عام 1954م بناء على قانون منع الأحزاب، تحول الإخوان إلى العمل السري فلاحقتهم الأجهزة الأمنية بتهمة التآمر على الرئيس والنظام ومخالفة قانون حل الأحزاب، وقد وصلت ملاحقتهم إلى ذروتها باعتقال أبرز المفكرين الإسلاميين سيد قطب عام 1954م، وهو المفكر الثاني في الجماعة بعد حسن البنا. وقد أمضى في السجن عشر سنوات، ثم أفرج عنه عام 1964م نتيجة وساطة قام بها الرئيس العراقي عبد السلام عارف، لكنه ما لبث أن أعيد إلى السجن مرة أخرى بتهمة التآمر وأعدم عام 1966م على الرغم من الوساطات العربية والإسلامية التي بذلت.

أما في سورية فقد تحول حزب الإخوان إلى العمل السري أثناء الوحدة، ثم عاد للعمل العلني في فترة الانفصال وشارك في الحياة البرلمانية إلى أن قامت ثورة الثامن من آذار عام 1963م فعاد إلى العمل السري.

(13) "توفي 1964م". وهو أول مراقب عام لحركة الإخوان المسلمين في سورية منذ عام 1944م.

(14) الشخصانية العربية الأخلاقية مستوردة من فكر الفرنسي إيمانويل مونييه الذي حاول التوفيق بين الوجودية والماركسية، وهي مبنية على رفض الفردية والأنانية والنرجسية وتشييء الإنسان، والدعوة للانتقال إلى فضاء الحب الإنساني الذي يحقق فيه الإنسان الحرية له وللشخص الآخر، والخير له وبالدرجة نفسها للشخص الآخر..

والتعادلية لتوفيق الحكيم الذي حاول التوفيق بين العلم والدين، والعقل والإيمان كما ذكر في كتابه: التعادلية/ التوفيقية المنشور عام "1955م"، نافياً أن يكون هناك أي تعارض بينهما. وأن الإنسان فيه ثنائية المادة والروح: "الإنسان كائن متعادل مادياً وروحياً"، "التعادل بين قوة العقل وقوة القلب"..

(15) حاول عبد الناصر لملمة الدول العربية في مؤتمر قمة لوضع إستراتيجية العمل العربي بعد النكبة لإزالة آثار العدوان؛ فخضع لشروط ملك السعودية فيصل بن عبد العزيز لسحب قواته من اليمن الشمالي التي كان قد أرسلها عام 1962م لمؤازرة ثورة عبد الله السلال التي أقامت النظام الجمهوري.

ونجح في جمع الصف العربي في مؤتمر القمة في الخرطوم في آب عام 1967م، واستعاد ثقة الشارع العربي بعد لاءاته الثلاث ضد الكيان الصهيوني: "لا صلح، ولا تفاوض، ولا اعتراف"، ولكنه قبل فيما بعد بقرار مجلس الأمن 242 الصادر في تشرين الثاني من العام نفسه ثم قبل بمشروع روجرز عام 1970م وهو يتضمن القرار 242، وأوقف حرب الاستنزاف، فأثار القوميين ضده!

(16) قاد الثورة معمر القذافي، وسار على نهج عبد الناصر لفترة طويلة.. وكان يدعم بعض فصائل المقاومة، وقد تخبط في مواقفه القومية لكنه في النهاية أعلن يأسه من الدول العربية والتفت إلى القارة الإفريقية في المرحلة الثالثة من النهوض!

(17) منها كتاب د. جلال صادق العظم: "النقد الذاتي بعد الهزيمة".

(18) بعد أن تحدث د. أنور عبد الملك في كتابه "الفكر العربي في معركة النهضة" - ص 118، عن الإسلام السياسي، والخلط ما بين الإسلام كنظرية وما بين الشعوب الإسلامية المضطهدة التي يجب أن توحد جهودها ضد الإمبريالية، وتحت عنوان فرعي "شريك تاريخي"، قال: "لقد أصبح الإسلام بطبيعة الحال ما أطلق عليه "الإطار الأعم للتراث الوطني - والثقافي للبلاد العربية" خاصة. واعتباراً من ذلك، فإنه ليس فقط لم يعد ثمة أي تناقض بين التحرير الوطني والاشتراكية والإسلام السياسي، وإنما باتت "الشعبية" القوية التي حركها جمال عبد الناصر مثلما حركتها الثورة الجزائرية والمقاومة الفلسطينية تؤلف الحليف الستراتيجي التاريخي الأساسي للقوى الشعبية الراديكالية في سبيل تحقيق النهضة عبر الربط العضوي بين الثورة الوطنية والتحويل الاشتراكي".

(19) لقد كانت مشكلة القمح من المشاكل العويصة بين مصر وأمريكا كما يذكر محمد حسنين هيكل في كتابه "خريف الغضب"!

(20) د. محمد أركون: الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي - ص 225.

(21) غزت الوجودية العالم العربي منذ الخمسينيات، وانتشرت بوجهيها الملحد الذي يمثله هيدجر وسارتر، والمؤمن الذي يمثله كيركجارد ومارسيل..

(22) د. عبد الرحمن بدوي: من تاريخ الإلحاد في الإسلام - ص 28.

(23) المصدر السابق - ص 33.

(24) راجع كتاب هادي علوي: من تاريخ التعذيب في الإسلام.

(25) ابن الجوزي: تلبيس إبليس - ص 121.

(26) هناك مقتطفات من كتاب ابن الراوندي "الزمرد" - والذي لم يبق له أثر- وردت في كتاب د. عبد الرحمن بدوي السابق، وكذلك كتاب الخياط: "الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد"..

(27) د. محمد عابد الجابري: تكوين العقل العربي - ص 198.

* * *

الفصل الرابع:

المرحلة الثالثة من النهوض

برنامجان متناقضان:

إن نتاج الفكر في هذه المرحلة على امتداد معظم عقد السبعينيات هو امتداد طبيعي للمرحلة السابقة ضمن الإجابة عن سؤال النهوض بعد النكبة عام 67، أما نتاج الفكر الخاص بالمرحلة الثالثة وما أفرزته من تغييرات وتنويعات فقد بدأ منذ أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات وحتى الآن، وقد شمل في بداياته آراء متعددة تحديثية، ثم مع السقوط بدأ الفكر الوطني باتجاهاته المختلفة يتجه نحو القضية المصيرية ليعطيها الأولوية، فساد هذه المرحلة على الصعيد السياسي تياران، الأول: التيار الوطني المقاوم للإمبريالية الأمريكية والصهيونية والسقوط العربي. والتيار الثاني هو: تيار السقوط والاستسلام الذي أسسه أنور السادات فقد بدأ عهده بصراع حاد بينه وبين القوى اليسارية والناصرية واستطاع أن يقصي تلك القوى، ويطرد السوفييت من مصر. وقرر إنهاء الصراع العربي الصهيوني ضمن معادلة الانسحاب الإسرائيلي من الأراضي المحتلة بعد عام 67 مقابل الاعتراف والسلام.

ولم تكن حرب تشرين في عقله إلا تحريكاً للموضوع الجامد والمعلق لا أكثر، ووظف نتائجها في التسوية، فهو المسؤول عن عنونة المرحلة بمرحلة السقوط، لأنه أخرج مصر ذات الثقل العربي الأساسي من دائرة الصراع العربي الصهيوني [1] وواجباتها القومية، وفتح الباب للمشروع الإمبريالي الأمريكي الصهيوني في المنطقة العربية.

وبدأ بضرب القطاع العام والإنجازات الاشتراكية التي تحققت في المرحلة السابقة وقلب الوضع الاقتصادي وأدخل مصر في سياسة الانفتاح والخصخصة والرأسمالية.. فدخلت مصر مرحلة انهيار ازداد فيها الفقر ونمو ثروات الطبقة الطفيلية القائمة على السمسرة والنهب..

ولكي يتمكن من مواجهة الاتجاهات الوطنية من اليسار والناصريين والقوميين في مصر، فتح باب التعددية وزاود على التيارات الدينية بإعلانه دولة العلم والإيمان وأطلقت عليه حاشيته وإعلامه الرئيس المؤمن [2]!

وسياسة السادات بإخراج مصر من الصراع انعكس عربياً حيث أضعف الجبهة الشمالية، ولم تستطع جبهة الصمود والتصدي ردع أنصار التسوية [3] للتحرك. ودخلت لبنان في صراع بين الوطنيين والموالين للمشروع الأمريكي الصهيوني.

وانفتح المجال للدول العربية التابعة لأمريكا لتحدد بوصلة القرار العربي باتجاه التسوية والاعتراف بالكيان الإسرائيلي، وأخذ بعضها يقيم علاقات اقتصادية مع الكيان الصهيوني علناً بعد دخول قيادة منظمة التحرير عربة الاستسلام [4]. وبرزت على الملأ الوجوه الإقليمية المعادية للعروبة والقومية، داعية إلى الاعتراف بالعدو الصهيوني والتطبيع المباشر [5] والتعايش معه وما سيجلبه ذلك من النعيم الذي سيحل في المنطقة، وقد ساهم مفكرون وأدباء في ذلك [6]!

وأمام الانهيار السياسي والاقتصادي والاجتماعي.. وقبل وبعد الفرز الواضح بين التيارين السابقين، كان الجميع يشعر بضرورة تحديث الفكر العربي، ومتابعة خطوات المشروع النهضوي، وأخذ المفكرون يبحثون عن المخرج من خلال خلفياتهم الثقافية والأيديولوجية، ولكن حدث نكوص كما قلنا إذ عاد الجميع إلى السؤال المنهجي الذي طرحته المرحلة الأولى من النهضة وهو: كيف ننهض؟!

ومع أن الجواب كان استنساخاً لمقولات المرحلة الأولى في التراث والاجتهاد والتأويل والعلم، حتى قضايا الحرية والديموقراطية والعلمنة.. إلا أن الجديد هنا انتشار الفكر النقدي العلمي المبني على نظريات المعرفة الحديثة.

وفي الوقت الذي لم تتفاعل فيه خطابات المفكرين التحديثيين في الشارع العربي، كانت الحركات الدينية التقليدية تستقطب الشارع في خطابها المستند إلى الدين.

لقد أخذت الحركات الدينية تقوى على امتداد هذه المرحلة وحتى الآن. وازدادت تغلغلاً بين صفوف الشعب الذي أكثريته متدينة. وهناك أرضية تاريخية للدين الإسلامي وأبعاده الروحية والاجتماعية في الوطن العربي كله، ولكن التدين كان متفاوتاً نسبياً فهناك من هو مؤمن بالدين ولكنه لا يمارس الشعائر، وهناك من لم يتجاوز تدينه أطر الشعائر ولا سيما في رمضان، وهناك من يتبع شيخاً ما أو داعية، وأخيراً هناك المنظمون في أحزاب وحركات إسلامية شعبية..

وليس التفاف الجماهير حول الحركات الدينية ظاهرة عابرة ومصادفة، فهي لها جذورها التاريخية، والامتداد له أسبابه المتعددة وأهمها:

1- يأس الجماهير العربية من كل الأيديولوجيات التي طرحت، ومن أنظمتها الرسمية في كل المجالات، حيث وقفت متخاذلة تجاه القضايا القومية في فلسطين ولبنان.. وعجزت عن حل الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وقضايا الحرية والكرامة والديموقراطية.. والمعاناة المرة من انهيار القيم والغرق في مستنقع من الفساد والرشاوى والإهمال والتسيب والفوضى والتمايز.. وما رافق ذلك من انحلال في الحياة والثقافة والفن..

وكانت معضلة التفاوت في كثير من الدول العربية قد أدت إلى بروز تناقض حاد بين الفقراء والأغنياء؛ فازداد فقر الفقراء والبطالة، بينما ازداد ثراء الطبقة الحاكمة وحاشيتها والطبقة البرجوازية الطفيلية الوسيطة. وفي الوقت الذي نعمت فيه الأقلية الغنية بالسلع الاستهلاكية والرفاهية والمتع الرخيصة والبذخ والإسراف، افتقرت الغالبية العظمى إلى الحياة الكريمة وعاش الكثيرون على الكفاف أو تحت خط الفقر، بل منهم من لم يجد المأوى أو لقمة الأكل!

2- أدرك الكثيرون بأن حصر أهداف الإنسان العربي في تأمين وسائل الحياة المعيشية هو قتل لإنسانيته وهدر لكرامته، وهو عملية مدروسة لصرف العربي عن قضاياه الأساسية!

3- ضعف الحركات الوطنية الشريفة الرافضة للواقع العربي المنهار والتسوية، في المنافسة الجادة في الاستقطاب. وتدني شعبية الفكر القومي والاشتراكي واليساري إلى أدنى الدرجات.

4- نجاح الثورة الإسلامية في إيران عام 1979 [7] وإعلان قائدها الخميني أن نهوض المسلمين لا يكون إلا في الإسلام، أعطى عدة نتائج منها:

- خافت دول الخليج والسعودية من تصدير الثورة إليها، فاندفعت للعب على وتر الطائفية فأججت الأحقاد، وفتحت المجال للأصولية السنية التكفيرية لمواجهة المد الإيراني تحت شعار خطر اجتياح طائفية إيران الشيعية الجعفرية!

- خشية الغرب وعلى رأسه أمريكا من التحرك الإسلامي ضد مصالحه، ولا سيما بعد دعوة الخميني إلى محاربة أمريكا "الشيطان الأكبر"، فبدأت حملة معادية للمسلمين وإيران، وقد تصاعدت موجة العداء وما زالت مستمرة حتى الآن.

- ازدياد نشاط بعض الأحزاب والحركات الدينية السنية لنقل التجربة إلى العالم العربي، ولا سيما التي تحمل برنامج الاستيلاء على السلطة لإقامة النظام الإسلامي، مما أدى إلى صدامها مع السلطات.

5- ازدياد نشاط الجمعيات الدينية والحركات والأحزاب والدعاة، وكثرة المدارس الدينية والمعاهد والجامعات.. وازدياد نشر الكتب الدينية وازدياد الإقبال عليها، وقد فاقت مبيعات الكتب الدينية كل أنواع الكتب الأخرى كما تشير إلى ذلك نتائج المبيعات في معارض الكتب.

6- خشية بعض الأنظمة من انتقال الحركات الدينية المسلحة إليها للعمل ضدها، دفعتها إلى تشجيع انتشار الدين غير المسيس في بلادها من خلال البرامج والدعاة والكتب، ليكون ذاك التيار الديني المسالم تحت سيطرتها وبعيداً عن التأثر بتلك الحركات الدينية المسلحة، ولسان حالها يقول أنا مع الدين وانظروا ماذا أفعل!

7- بروز التيار الديني الثوري "الجهادي" في لبنان ثم في فلسطين، وما حققه من انجازات على الأرض.

8- هيمنة الإمبريالية الأمريكية، وتزييفها حقيقة الصراع: لقد ازدادت الهجمة الإمبريالية الأمريكية وحليفتها الصهيونية ومن ورائهما الغرب الذيلي، ليس فقط ضد الحركات الإسلامية الأصولية وحدها بل ضد العرب والمسلمين وشعوب العالم المقهورة في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية!

إن استفراد وهيمنة الإمبريالية الأمريكية الصهيونية كقطب أوحد في العالم بعد انهيار الاتحاد السوفييتي والنظام الشيوعي عام 1991، مكنها من قيادة العولمة السياسية والإعلامية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية.. [8]، وجاء تفجير برجي مركز التجارة العالمي في أيلول عام 2001 المغلف بالغموض، ضمن سياق الرؤية الأحادية في إعادة تقسيم العالم وترتيبه وفق النظام العالمي الجديد!

وقد ازدادت الغطرسة والإرهاب الأمريكي في عهد تحالف المحافظين الجدد واليمين الديني الأصولي المسيحي "الإنجيليين الجدد" المتصهين الرجعي في الإدراة الأمريكية والمشبع بخرافات الألفية والمناصر للكيان الصهيوني والدفاع عن كل جرائمه باسم العداء للسامية. وذاك التحالف فتح الأبواب على مصراعيها للعنجهية الصهيونية وجرائمها دون أي قيد!

وغسلت أمريكا كثيراً من الأدمغة وروجت بأنها ليست هي والكيان الصهيوني العدوتين للعرب والمسلمين، وإنما الحلف المكون من إيران وسورية والمقاومة الإسلامية "حزب الله وحماس والجهاد.."، وكرر ذلك أتباعها وساروا كالأغنام وراءها.

لقد اختلقت أمريكا الأكاذيب لتبرر لنفسها جرائمها ضد الإنسانية، ووظفت العالم الغربي "من جماعة محور الخير!" وجيشته لمحاربة الإرهاب باسم الأمم المتحدة [9] بادئة بأفغانستان في تشرين الأول عام 2001 لتحقيق المشروع، ثم انتقلت إلى العراق عام 2003 تحت ذريعة أكاذيب بدأت بحجة برنامج العراق النووي ثم أسلحة الدمار الشامل ثم الإرهاب العراقي ودعمه للحركات الإرهابية.. إضافة إلى التضييق على السودان وسورية وإيران والمقاومة الإسلامية الثورية "من جماعة محور الشر!" والتهديد المستمر بالعقاب والضربات الاستباقية، والعمل على تجزيء المجزأ وخلق الفتن

الدينية والطائفية والمذهبية والإثنية.. وجاء عدوان تموز عام 2006 على حزب الله ضمن تلك الرؤية في إقامة الشرق الأوسط الجديد/ الكبير [10]!

واختلاق شعار محاربة الإرهاب الإسلامي "السياسي" هدفه فتح الآفاق لأمريكا لتمارس شراستها وعداءها للعرب وللمسلمين وقضاياهم العادلة والإنسانية. لذلك وضعت أمريكا كل من يقف في وجه مشاريعها أو ينتقدها في خانة الإرهاب، وذاك يعني أن كل من يقف في وجه مصالحها ومصالح الصهيونية، ويقول لا للاحتلال والاستغلال والنهب والهيمنة والسيطرة.. هو إرهابي في القاموس الأمريكي!

وتهرب أمريكا من تعريف الإرهاب والفرق بينه وبين المقاومة المشروعة لاستعادة الحقوق، هدفه تغطية ممارستها هي للإرهاب ودعم الظلم في هذا العالم الذي يرتكب ضد الشعوب المقهورة.

فما إطلاق تسمية الإرهاب على كل الحركات التي تقاوم بالسلاح سواء أكانت من التيار الديني أم غيره، إلا خزعبلات سياسية، فأمريكا والكيان الصهيوني هما رمز الإرهاب وكذلك الدول الغربية التي تشاركهما في إرهابهما. بينما الحركات التي تقاوم وتدافع عن أوطانها هي مقاومة وطنية شريفة، ومن حق الشعوب المقاومة حتى تنال الحرية والاستقلال.

إن الإمبريالية الأمريكية هي التي خلقت الحركات الأصولية الإسلامية المتطرفة المسلحة في أفغانستان تحت شعار (الجهاد ضد الكفار الشيوعيين) [11]، وهي التي وظفت تأجيج الحقد الديني ضد الكفر، لمحاربة الاشتراكية عدوتها الأولى!

وحقيقة الإمبريالية قديماً وحديثاً هي الشركات والمؤسسات الاحتكارية العملاقة في سعيها للسيطرة والهيمنة ونهب الثروات وعلى رأسها النفط، وتسويق بضائعها ولا تتورع عن إشعال الحروب لبيع الأسلحة. والطغمة الحاكمة لها مصالحها النفطية الخاصة بها، وفي العراق تعمل تلك الشركات والمؤسسات النفطية والاستثمارية على امتصاص خيرات العراق وشعبه!

وعلى كل فاحت رائحة الأصولية المحافظة الصهيونية في داخل أمريكا، وفاحت مشاريع الكيان الصهيوني القاعدة الغربية في قلب الوطن العربي، وصار موقف بوش وإدارته في مهب الريح!

وعلى الرغم من وضوح كل شيء دخل معظم العرب والمسلمين في الدائرة التي رسمتها لهم الإمبريالية؛ فبدلاً من مواجهة سفالات الإمبريالية، وضعوا أنفسهم في قفص الاتهام وبدأوا بتقديم ما يثبت براءتهم من تهمة الإرهاب [12]!

9- موقف الغرب العنصري على الصعيدين الفكري والأيديولوجي: إن المساهمات الفكرية لبعض المفكرين العنصريين الغربيين الذين يدورون في فلك الإمبريالية هي من طبيعة إفرازات الإمبريالية على الصعيد الفكري والأيديولوجي. وقد نظّر أولئك للعداء ولمشروعية الهجوم الشرس على العرب والمسلمين، والادعاء بأن ظاهرة الإرهاب هي من بنية الدين الإسلامي!

واستغلال بوش للدين ليؤثر على مشاعر الأمريكيين مثل قراءته للكتاب المقدس ومخاطبة الله له، وحديثه عن محور الشر مقابل محور الخير الذي تمثله أمريكا والعالم الحر، وإعلانه الحرب الصليبية، ثبت فكرة العداوة الصليبية المستمرة ضد الإسلام والمسلمين!

وهناك كثير من المفكرين الإسلاميين رأى أن الحروب المعاصرة هي امتداد للحروب الصليبية القديمة، فالغرب لم يغير فكرته عن العرب والمسلمين، وعداوته قديمة منذ فتح الأندلس، وقد عبر عن حقده وعداوته للمسلمين في الحروب الصليبية، التي عادت ثانية مع مجيء الاستعمار الغربي وإقامة الكيان الإسرائيلي.. ويضربون أمثلة على ذلك مثل غطرسة الجنرال غورو أمام قبر صلاح الدين، وكلمة ألنبي بعد دخوله القدس (الآن انتهت الحروب الصليبية)..

وذكر بعض الإسلاميين أن كتاب سلمان رشدي "الآيات الشيطانية"، كان بداية الحملة الغربية على المسلمين بعد قيام الثورة الإسلامية الإيرانية، لكن في الحقيقة هناك عشرات الأعمال الفكرية والأدبية المتنوعة التي

بدأها الغرب قبل ذلك، وعلى سبيل المثال رواية "ألموت - Almut" للروائي السلوفاني فلاديمير بارتول المنشورة عام 1937، والتي تدور حول الحسن بن الصباح "من الحشاشين الإسماعيليين" وقلعته ألموت، زرعت المفهوم الإرهابي الإسلامي في الغرب المعاصر!

وليس كتاب صموئيل هنتنغتون عن (صراع الحضارت) الذي نشره عام 1996، إلا انعكاساً للرؤية الإمبريالية لطبيعة الصراع في العالم بعد زوال المنظومة الاشتراكية. فهنتنغتون يرى بأن الصراع في العالم صار صراع حضارات بدلاً من صراع الأيديولوجيات الذي كان سائداً قبل انهيار المنظومة الاشتراكية، والصراع الآن هو صراع الغرب ضد الشرق وفي الشرق حضارتان الإسلامية والصينية/ الكونفوشوسية، والخطر الإسلامي هو الأول[13]!

أما كتاب هنتنغتون الآخر (من نحن؟ التحديات التي تواجه الهوية الأمريكية) الذي نشره عام 2004، فقد اختلق فيه أدلجة العداء للآخر ليحمي الهوية الأمريكية!

فهو يذكر بأن العداء للآخر يلعب دوراً أساسياً في تشكيل هوية أي جماعة، والحروب التي خاضتها أوروبا في العصور الوسطى كانت ضرورية لتشكيل هوية الدول الأوروبية المختلفة، والتي أدت في النهاية إلى تشكل الدول القومية!

والهوية الأمريكية كما يرى قائمة على: العرق الأبيض والإثنية الإنجليزية والدين المسيحي البروتسانتي والثقافة الإنجليزية البروتستانتية، وقد استمرت حتى نهاية القرن التاسع عشر. ثم بدأت تضعف ولا سيما في النصف الثاني من القرن العشرين نتيجة عوامل متعددة، ويهمنا منها قوله بأن عدم تبلور عدو جديد للولايات المتحدة بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، قد ساهم في ضعف التفاف الأمريكيين حول هويتهم الوطنية في أواخر القرن العشرين!

ويذكر بأن الخطورة على الهوية جاءت بعد تفجيرات أيلول 2001، أي الخطر من الأصولية الإسلامية والكراهية لأمريكا دولة وشعباً وديناً وحضارة..!

والحل الذي يراه لإنقاذ الهوية الأمريكية يكمن في قضيتين: 1- رفض العلمنة وضرورة عودة الأمريكيين للديانة المسيحية وزيادة دورها في الحياة العامة الأمريكية (اليقظة الدينية)، (الدين أصبح العنصر الأساسي في السياسة الأمريكية)، 2- دور الإسلام كعدو أساسي جديد لأمريكا.

وهو يتوقع حروباً قادمة ضد الإسلاميين مما يعزز الالتفاف حول الهوية الأمريكية!

لقد استمرت الحملة المعادية للإسلام والمسلمين في تصاعدها عبر الإعلام والسينما والكتب والصحافة المعادية للإسلام.. إلى أن وصلت إلى رسوم الكاريكاتير الدانمركية، ثم محاضرة البابا بنيدكتوس السادس عشر في أيلول 2006 التي تحدث من خلالها عن موضوع: (العلاقة بين العقل والعنف في الإسلام والمسيحية) ذاكراً أنه قرأ حواراً في كتاب نشره البروفسور تيودور خوري، جرى بين الإمبراطور البيزنطي العالم مانويل الثاني ومثقف فارسي حول المسيحية والإسلام وحقيقة كل منهما خلال إقامته في المعسكر الشتوي بالقرب من أنقره بين عامي 1394 و1402م.. ويهمه منه موضوع جولة الحوار السابعة حول (الإيمان والعقل) حيث سأل فيها الإمبراطور محدثه فجأة: (أرني شيئاً جديداً أتى به محمد، فلن تجد إلا ما هو شرير ولا إنساني، مثل أمره بنشر الدين الذي كان يبشر به بحد السيف)، ويبدأ الإمبراطور يشرح لمحدثه لماذا نشر الدين بالسيف مناف للعقل.

ويذكر البابا تعليق المحرر تيودور خوري: (بالنسبة للعقيدة الإسلامية، الرب ليست مشيئته مطلقة وإرادته ليست مرتبطة بأي من مقولاتنا ولا حتى بالعقل)..

ويصل البابا إلى نتيجة وهي أن الحوار بين الحضارات يجب أن يقوم على الكلمة والعقل.

ولم يفد توضيح الفاتيكان شبه الاعتذاري من تهدئة الشارع الإسلامي، لأن كلام البابا لم يكن بريئاً فقد جاء ضمن سياق الهجمة السياسية والإعلامية على المسلمين والإسلام والقرآن والنبي!

وكل هذا أجج صراعاً دينياً تنافسياً منفراً فتح ملفات الحروب الصليبية والموازنة بين الإسلام والمسيحية في قضايا الحرب والسلم والحرية ومحاكم التفتيش وحقوق الإنسان والمرأة..!

وفي الحقيقة لا يوجد صراع بين الحضارات ولا حوار، وجوهر الأمر جشع الإمبرياليات وطمعها في خيرات العالم العربي والإسلامي لا غير، وكل ما عدا ذلك مجرد أدلجة!

فأطماع الإمبريالية الأمريكية اختلقت مرض الخوف من عدو محتمل وروجته لتبرر تحركاتها الاستباقية العدوانية، وقد بدأت ذلك خلال الحرب الباردة عقب الحرب الأوروبية الثانية بالحديث عن خطر الشيوعية، لأن الشيوعية كانت عقبة في وجه امتداد سيطرتها ونهبها، فادعت الخوف من ذاك الخطر وكان ريغن يطلق على الاتحاد السوفييتي تسمية إمبراطورية الشر. وفي الوقت نفسه كانت الدعاية الأمريكية تروج مفاهيم حماية حقوق الإنسان والحرية والديموقراطية كوسيلة من وسائل الحرب الباردة ضد الشيوعيين.

وبعد انهيار المنظومة الاشتراكية وتفرد الإمبريالية الأمريكية، تحولت ذريعتها إلى خطر الأصولية الإسلامية، لأن هدفها القديم الجديد نهب الثروات وعلى رأسها النفط الهائل في العالم العربي والإسلامي، إضافة إلى أهداف أخرى إستراتيجية باتت معروفة للجميع.

ومن جانب آخر تخدم فكرةُ خلق عدو وهمي وخارق، إبراز عظمة أمريكا التي يتآمر الجميع عليها حسداً وغيرة، وبقدر ما تضخم عدوها الوهمي بقدر ما ترفع شأنها في مواجهته، والبطل الأمريكي كما يظهر في أفلامها هو القوي والمنقذ والمخلص وداعية الخير ومحقق العدالة..

وفي الوقت نفسه تسوق الرأسماليةُ الأمريكية بيع السلاح والمعدات الحربية للدول للدفاع عن نفسها من خطر احتمال مباغتة ذلك العدو لها، وكذلك تبيع الأجهزة الإلكترونية المعقدة لتأمين الحماية والتجسس والإنذار..

وقد ظهرت أعمال فكرية وأدبية وفنية كالأفلام في الغرب نفسه، فضحت حقيقة أمريكا!

وإضافة إلى تلك الصورة هناك قضية جوهرية في تحديد العلاقة بين العرب والمسلمين مع أمريكا والغرب؛ فما زالت نظرة أمريكا والغرب متغطرسة ومتعالية إلى الشرق العربي والمسلم ولم تتغير حتى الآن، وقد تحدث عنها كثيرون من المفكرين العرب فأركون في نقده للاستشراق الغربي وموقفه المتعالي يذكر بأن للحداثة الغربية وجهين إيجابي وسلبي: (فالحداثة ليست ذات وجه تحريري فقط، وإنما ذات وجه متوحش سلبي أيضاً) [14].

ونظرة الغرب للمسلمين والإسلام مشحونة بأحكام مسبقة سلبية فيها التحيز والتعصب: (إنها صورة احتقارية، وغالباً عدوانية، تجاه كل ما هو "عربي" أو "مسلم" أو "تركي". وهي أحكام مسبقة ومرسخة عبر القرون) [15].

وعلى الرغم من أن أركون علماني وهو المفكر والمؤرخ العربي الإسلامي الوحيد الذي مارس دور الوسيط بين الفكر الإسلامي والفكر الأوروبي ودعا إلى حوار الحضارات بدلاً من صدام الحضارات (حوار الحضارت بدلاً من صراعها) كما يقول، شنت عليه حملة كبيرة نتيجة رأيه حول سلمان رشدي في مقابلة مع صحيفة اللوموند الفرنسية في آذار عام 1989، واتهم بأنه أصولي أو يؤيد الأصوليين!

لقد تحدث أركون عن حقيقة الموقف الغربي المتشنج والمتعالي على الشرق، وعدم تقدير واقع المسلمين المتخلف، ورفض الغرب الاعتراف بالإسلام كدين توحيدي سماوي، والقصور في عدم التفريق بين الإسلام والمجتمع الإسلامي.

وأن الغرب لم يكتف بموقف اللامبالاة في مد يد العون للمسلمين ليساعدهم في الخروج من عقلية القرون الوسطى إلى الحياة المعاصرة والحداثة، وإنما عمل على استغلالهم ونهب ثرواتهم، مما أفقد المسلمين الثقة به..

كما أدان أركون أنانية الغرب ولا مبالاته بشعوب العالم وهو وراء معظم المآسي التي تحياها، فتقدمه الهائل لم يرافقه تقدم على الصعيد الاخلاقي والإنساني [16]، وطالب الغرب المهيمن سياسياً وثقافياً وعلمياً وتكنولوجياً واقتصادياً، أن يغير نظرته وتعامله مع شعوب العالم حتى يتقبل أولئك التعامل معه والخروج من العداء له!

إن تلك الرؤية تفسر الموقف الأمريكي والغربي الغوغائي واللامنطقي تجاه العرب والمسلمين وتجاه برنامج إيران النووي السلمي، فهو لا يعبر عن ازدواجية المعايير فحسب، فهذه القضية محسومة في العقل الغربي في تعامله المتعالي مع الشرق فلا يمكن أن يوازي نفسه مع أية دولة عربية أو إسلامية بالحقوق التي يجيزها لنفسه وللكيان الصهيوني لأنه جزء من الغرب، وإنما يكمن في رفض النقد وقيام أية قوة عربية أو إسلامية تقول لا لهيمنة الغرب وأمريكا والصهيونية، وتهدد مصالحهم في الاعتداء والنهب والسرقة والتدخل في شؤون الآخرين!

***

تلك المواقف الغربية على الصعيدين الفكري والسياسي أشعرت العربي والمسلم بأنهما مستهدفان وبأنهما ضحية التآمر والعدوان، وخلقت ردة فعل عند المسلمين عموماً للتمسك بالدين والتراث والحضارة الإسلامية للدفاع عن أنفسهم، وللحفاظ على توازن الذات أمام الإذلال والتعالي والتحطيم ونظرة السيد إلى العبد.. وقد وجد المسلم عزاءه في الدين وفي استعادة ذاك الماضي يوم أهان هارون الرشيد إمبراطور الروم نقفور، ويوم لبّى المعتصم من استصرخته، ويوم انتصر صلاح الدين على الصليبيين، وأيام انتصارات الظاهر بيبرس على المغول وبقايا الصليبيين..

واللجوء إلى الدين في حالة التوتر والقلق والضغط النفسي، تشعر المتدين بالراحة إذ تطمئن نفسه ويثق بالفرج عاجلاً أو آجلاً. كما أنه يساعده ليس فقط على التخلص من بعض الأمراض النفسية، وإنما في الإجابة عن الأسئلة المشروعة الكثيرة التي تثير القلق الوجودي المتعلق

بالحياة، وبما وراء الطبيعة والموت وما بعده.. بينما غيبت الأيديولوجيات المطروحة كل تلك الموضوعات.

يقول د. طوالبي: (يسهل الانخراط في المقدس تخطي حدثان الدهر التي تشكل، عادة مآسي البشر. فهو يبث "قوة ربانية" تحيي الكائن لتجعله بعد ذلك أكثر تواضعاً وأكثر تسامحاً إزاء حالات الحرمان)، والمقدس هو (وقائي)، كما أنه علاجي يساهم في معالجة بعض الأمراض "الآفات العقلية" كإصابة العين، وتطهيري يزيل التوترات الداخلية.. [17].

لقد أطلق المفكرون الإسلاميون على المد الديني تسمية النهوض الإسلامي "الصحوة الإسلامية". وهي تمتلك في هذه المرحلة عوامل ديناميكية حيوية وفعالة تجعلها تستمر وتتعاظم، مقابل تخاذل الأنظمة العربية وإدارة ظهرها للجماهير الشعبية وتطلعاتها وآلامها ومعاناتها.

وتيار المقاومة الإسلامية (حزب الله وحماس والجهاد) أدرك بأن المرحلة هي مرحلة تحرر وسيادة وطنية لها الأولوية، فلا نهضة دون تحرير وحرية، لذا يجب تجنيد الجميع لخوضها فأسس لإعادة جدلية الوطني والقومي، ودون إهمال البعد الإسلامي للقضية ومواقف الدول العالمية الصديقة.

ووعي ذاك التيار لحقيقة الصراع ومعوقات النهضة، تجاوز وعي معظم التيارات الليبرالية واليسارية والدينية التقليدية، فهو على الرغم من أنه يعرف تماماً بأن معظم الأنظمة العربية تخلت عن واجباتها تجاه فلسطين، وأن دول العالم لا تقبل بإزالة الكيان الصهيوني، تابع طريقه الذي اختاره واثقاً من إرادته على مواجهة تلك التحديات الكبيرة!

ولأول مرة في التاريخ الحديث تربط معظم التيارات الدينية ومعظم المفكرين، الدينَ الإسلامي بالقضية الوطنية والقومية في مواجهة وتحدي ومحاربة الإمبريالية الأمريكية والأوروبية والصهيونية، كخطاب وممارسة مما قوى الحركات الدينية في نظر الجماهير الشعبية.

***

وأمام ازدياد المد الديني عاد المفكرون لقراءة التراث الديني، كما حدث في قراءات مفكري المرحلة الأولى في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي،

ولكن خلفيات المفكرين المعاصرين في قراءة التراث اختلفت عن أولئك نتيجة تبدل الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والمناهج الفكرية، وأيضاً مواقع المفكرين في جدلية تلك التغييرات والتطورات.

وقد برز اتجاهان في القراءات المتعددة للتراث، الأول: استحضر الماضي ليقرأه على ضوء الحاضر، بينما الثاني: أرجع الحاضر إلى الماضي ليقرأه على ضوئه، ناسفاً عشرات القرون من التطور!

والاتجاه الأول أنتج رؤى تحديثية، بينما الثاني بقي يراوح في مكانه يكرر مقولاته الرفضية والمكفرة، لأن منهجيته القديمة المتغلغلة في الشعور أو اللاشعور غير قادرة على التجاوز، وقد رفضت وبعنف إخضاع التراث إلى العقل والعلم، ولم تقتنع بأن الحرية والديمقراطية وكرامة الإنسان العربي هي المدخل الحقيقي لحمل لواء التحديث وبناء الأمة.. لذلك أخفقت الرؤى المتعددة لذاك التيار في جدلية التراث والتحديث!

لكن بعض المغرضين استغل مقولات الحرية والديموقراطية والتحديث للاستقواء بأمريكا لتكرر تجربة العراق في أماكن أخرى من العالم العربي [18]، مع أن ما فعلته أمريكا في العراق تحت الشعار المزيف والكاذب (الفوضى الخلاقة) من أجل الديموقراطية وحقوق الإنسان.. هو الخراب والتدمير وقتل مئات الآلاف وتهجير الملايين وإشعال نيران الطائفية والإثنية، ونهب خيرات العراق.. والقوى التي تتعاون مع أمريكا وتراهن أمريكا عليها، ما هي إلا مجموعة من المتآمرين والعملاء الفاسدين المنتفعين لا أكثر!

وإذا كان هناك إيمان حقيقي بأن أمريكا منبع الشر وأصل المشكلات التي يعاني منها العالم العربي والإسلامي وشعوب الأرض المقهورة، وبأن الكيان الصهيوني إنما تم زرعه ليكون عائقاً أمام النهوض العربي ومنع وحدته وتحديثه ليبقى مستنزفاً ومشلول القدرات، وهمه محصور في الدفاع عن نفسه ورد الاعتداءات لا غير.. فكيف يمكن قبول الدخول في دهليز الإمبريالية، وقبول قاعدته الصهيونية ككيان شرعي والتنازل عن الحق العربي والفلسطيني [19]؟!

وكذلك الأمر يقال عن الخطاب البراق للمنظمات المدنية وحقوق الإنسان والديموقراطية التي يمولها الغرب وأمريكا، والتي لا تنتقد أمريكا وجرائمها!

فلا معنى لتلك الرؤية في تحديث الفكر والواقع، لأن ربط النهوض والتحديث بالتحرر واقتلاع القاعدة الاستعمارية من جذورها وإعادة بناء وحدة الأمة المجزأة، جدلية لا تتجزأ!

***

وفي هذه المرحلة تابعت التيارات والاتجاهات الوطنية غير الدينية الغيورة على الوطن دورها الوطني، وازداد نقدها للأنظمة الفاسدة التي وقفت ضد المشاريع القومية والوطنية والنهضوية [20]، وفضحت دور تلك الأنظمة في تكريس واقع التجزئة والمصالحة مع المشروع الإمبريالي الصهيوني، وإهمالها تطوير أجهزة دولتها البيروقراطية، وحملتها مسؤولية الفساد والرشاوى والتسيب والإهمال..

وتحدثت عن القيمة الإنسانية التي امتهنتها الأنظمة العربية الحاكمة، وبينت أن الحكّام المستبدين برأيهم الذي لا يعلوه أي رأي آخر، صادروا حقوق الشعوب العربية وداسوا كرامتها، وهم يرفضون أي حوار داخلي مع شعوبهم، لأن الحاكم يخشى على فرديته المطلقة ومشاريعه التابعة، وبالتالي استبعد المفكرين والمثقفين الأحرار وغيبهم، وقرب حملة الأقلام المأجورة وأنفق بسخاء على جزء قليل جداً من الشعب ليهلل له ولعبقريته فقط!

وطالبت بحقوق المواطن وأمنه (الحياتي والغذائي والصحي..) ووضع الإنسان المناسب في المكان المناسب، وتطهير أجهزة الدولة ودوائرها من المنتفعين الانتهازيين الذين يعملون على إزاحة كل شريف وكفؤ حتى لا ينافسهم.

كما دافعت عن المواطن بأنه بريء حتى تثبت إدانته لا العكس بأن المواطن مدان دائماً وعليه في كل مرة أن يثبت براءته، كما رفضت مبدأ أن كل معارض للسلطة هو متآمر وخائن، فالتحقيق النزيه مع المتهم عبر

سلطة قضائية نزيهة هي التي تقرر فإن ثبتت التهمة يحاكم، وإلا تبرأ ساحة المتهم ويعوض عما لحقه من ضرر.

أما التيارات اليسارية فقد انكمشت على نفسها وأخذت تعيد النظر في سياساتها وبرامجها وأنظمتها الداخلية ولا سيما عقب انهيار منظومة الدول الشيوعية. وقد أدرك بعض اليسار خطأه في نقل النماذج الجاهزة وإسقاطها على الواقع، وخطأ نظرته إلى الدين والقومية، وقفزه فوق الواقع بطوباوية تتجاوز قدراته وإمكانياته وحجمه الحقيقي، فهو بعد إخفاقه في ممارسة فكره وخلق قاعدته الشعبية التي سيعتمد عليها في معركته التي يتحدث عنها، بدأ بالتراجع عن بعض مقولاته وإعادة الحسابات. وتمت انتقادات حادة ونقد ونقد ذاتي، وانشقاقات وتغيير تسميات [21]. وبعضه خرج من الفكر الماركسي باتجاه الليبرالية والديموقراطية، بل منه من اتجه نحو التيار الديني.

عرف د. عبد الله العروي الحزب السياسي الناجح بأنه الذي يحتكم إلى برنامج سياسي دقيق وواضح وعملي، ولا يكتفي باجترار مرجعيته الأيديولوجية، فيبقى مجرد اتجاه أيديولوجي. ورأى د. حسن حنفي أن أهمية النظرية تكمن في تحولها إلى فعل/ ثورة.

إن حمل مشروع أكثر من ثمانية عقود عند بعضهم وأقل عند آخرين دون أن يثمر، يحتاج إلى تحليل دقيق ودراسة البنية الحزبية نفسها والعقلية التي صاغت النظام الداخلي والبرنامج السياسي، والأهم الممارسات الخاطئة سواء على صعيد المواقف السياسية أم العلاقات التنظيمية حيث سادت عملياً المركزية المطلقة ولم يسد مفهوم القيادة الديموقراطية الجماعية!

وعلى الرغم من كل تلك التحولات بقي الفكر الاشتراكي المثل الأعلى للعدالة عند الاشتراكيين، لأن خطأ ممارسات دعاة الاشتراكية لا يعني مطلقاً خطأ الاشتراكية نفسها.

والتيارات والحركات القومية شهدت في هذه المرحلة ضعف وتشتت وانقسامات كاليسار، لكن بقي القوميون متمسكين بالفكر القومي وربطه

بالتحرر والوحدة مع تجاهل الاشتراكية عند بعضهم. وقد جرت محاولة إعادة تنظيم القوميين ورص صفوفهم من خلال لقاءات وندوات وبيانات وتصاريح، تضمن بعضها فكرة عدم فصل القومية عن الإسلام، أو إبقاء البعد الإسلامي للقومية [22].

وعلى الرغم من أن القوميين لم يصلوا بعد إلى صياغة برنامج تفصيلي يجمعهم على أرضيته، وما زالت هناك اتجاهات قومية مثالية، في عمقها التاريخ والتراث ولم تقدم رؤية جديدة وبرامج عمل ملموسة، إلا أن بعض الاتجاهات القومية دعت إلى تقديم برامج جديدة علمية وواقعية لإحياء حركة القومية العربية الاشتراكية الديموقراطية، ولا سيما وقد تصاعدت نبرة دعاة القطرية وبناء الدولة القطرية الواحدة/ القومية القطرية المستقلة عن بقية الأقطار العربية، ووجود عجز مريع في خلق تقارب حقيقي بين الأنظمة العربية المتناقضة التوجه بين البرنامجين.

والدول العربية لها تجاربها في النهوض وحدها، حيث يمكن أن يتحقق نهوض دول قطرية جزئياً من خلال استيراد التكنولوجيا والنهضة العلمية والصناعية.. ولكن إن لم يرتبط ذلك بالهدف الإستراتيجي للأمة لتحريرها وتحديثها سيبقى محدوداً، لأن القطر الواحد جزء من أمة متشظية تربطه بها قضايا مصيرية واحدة، ولا يمكنه تجاهلها إلى ما لا نهاية.

وبشكل عام تحولت آلية نقاش الكثيرين من الأدلجة المجردة إلى شبه الفكر الواقعي، وبدأ بعضهم يتحدث عن استحالة الوحدة العربية وفق قراءة الواقع، فالوحدة الاعتباطية مستحيلة، والإيمان بوحدة الشعب والأمة كهدف إستراتيجي لن يتحقق دفعة واحدة مهما كانت المشاعر متأججة، ولا بد أن تكون على مراحل مدروسة تبدأ من الدراسة التحليلية لخصائص كل قطر عربي: تنوع الأنظمة العربية بين الرئاسية والملكية والإمارتية، وأيضاً النظام الاقتصادي الموزع بين الاشتراكية والرأسمالية.. وبنية الاقتصاد القائمة على إنتاج الثروات الباطنية أو الصناعة أو الزراعة أو التجارة أو السياحة والخدمات والاستثمارات.. والتوجه السياسي والارتباطات والمساعدات المشروطة والاقتصاد التابع..

ودراسة وتحليل الكتل العربية: 1- كتلة بلاد الشام ومعها العراق، 2- كتلة الجزيرة العربية، 3- كتلة وادي النيل والصومال وأريتيريا وليبيا، 4- كتلة المغرب العربي ومعها موريتانيا.

ويمكن تحقيق نوع ما من التضامن والتقارب والتنسيق والتعاون أو السوق الاقتصادية، على غرار ما بدأت به أوروبا كحد أدنى، وهذا يتطلب تفعيل دور الجامعة العربية ومؤسساتها لتكون عاملاً موحداً وليس مكرساً للتجزئة كما أريد لها يوم إنشائها، والوصول إلى خلق صيغة ما لدعم العلاقة والارتباط أكثر فأكثر تبدأ من السوق العربية المشتركة، وحماية القضية الوطنية/ القومية بتفعيل مكتب المقاطعة العربية والدفاع العربي المشترك، ووقف التيار العربي/ الأمريكي من الانجرار في مستنقع التسوية والاعتراف بالكيان الصهيوني..

وفي الوقت نفسه يتم العمل على خلق الوحدة الوطنية في كل قطر، ثم العمل على وحدة كل كتلة أو الاتحاد الفيدرالي بينها، وإذا ما تحقق هذا الأمر في الكتلة الواحدة، يتم الانتقال إلى الاتحاد الفيدرالي بين كتلة وأخرى وهكذا، أي الانتقال التدريجي باتجاه الوحدة التامة حتى تتحقق طبيعياً وإن طال الزمن!

***

كما استمر سجال القوميين مع الإسلاميين، فالإسلاميون لم يغيروا قناعاتهم بأن الأزمة هي أزمة الأفكار التي روجها المتغربون الكفار كالقومية والاشتراكية والعلمانية.. وأن الحل يكمن في العودة إلى الإسلام، وعزة الإسلام لا تكون إلا في رابطة الأمة الإسلامية.

وتهمنا هنا السجالات الفردية بين القوميين والإسلاميين، حيث دعت بعض الاتجاهات القومية الإسلاميين إلى الخروج من المثالية والبقاء أسرى حلم لن يعود، ووحدة الأمة العربية ستضيع حتماً إن تجاوزناها إلى وحدة الأمة الإسلامية. وبما أن التقارب العربي بات صعباً فكيف سيكون الانتقال إلى ما هو أبعد من القرابة العربية، إلى الأمم الإسلامية فهذه النقلة مستحيلة أكثر. فلا يمكن أن تخلق رابطة حقيقية بين دولة عربية مثل

المغرب مع دولة إسلامية مثل أندونيسيا ولا يجمع ما بينهما سوى الدين، في الوقت الذي لم تؤد الروابط القومية إضافة إلى رابطة الدين المشترك بين دولتين عربيتين إسلاميتين متجاورتين إلى الوحدة!

وقد صار معروفاً لماذا أسرع العربي المسلم إلى نجدة المسلم البعيد الأفغاني ضد الكفر السوفييتي "تحت المظلة الأمريكية"، ولم يتجه لنجدة الشعب الفلسطيني ولا اللبناني القريبين وقد كانا يذوقان الأمرين من العدو الصهيوني، ويصرخ أطفالهم وعجائزهم ونساؤهم مستنجدين بالمعتصم والعروبة والإسلام والنخوة والمرؤة!

إن العرب المسلمين الأوائل لم ينطلقوا إلى غير العرب إلا بعد أن توحدوا في دولة واحدة قومية/ دينية، ثم انتقلوا من مخاطبة العربي إلى مخاطبة الأمم، من الخصوصية إلى العمومية. وارتباط المسلم غير العربي بالدين الإسلامي لم يلغ تاريخه القومي، لأن الإسلام لم يلغ القوميات. والدول الإسلامية تبنت الدين كأيديولوجيا ولكنها لم تتبن العروبة وإن تعلمت العربية، والعروبة حافظت على عربيتها ولم تتخل عن ثوبها العربي لصالح الأممية الدينية الإسلامية، وما الشعوبية إلا لعدم استيعاب جدلية تلك الثنائية!

وعبر التاريخ لم تكن هناك أمة إسلامية في العالم الإسلامي، وإنما كانت هناك دولة إسلامية تتألف من مسلمين من قوميات متعددة لم تنصهر في قومية واحدة دينية، كما أنه لم يكن هناك مجتمع إسلامي واحد فهناك عشرات المجتمعات الإسلامية، ولكل مجتمع حياته الخاصة.

ووجود رابطة فكرية دينية ما بين الأحزاب والحركات الإسلامية في العالم الإسلامي على الرغم من اختلاف وجهات النظر فيما بينها، لا يحقق مفهوم الأمة الإسلامية لا من قريب ولا من بعيد.

كما أن اختلاف الدول الإسلامية في المذهب يعيق تلك الوحدة، وهل قبلت الدول الإسلامية غير السنية الانضواء تحت ظل خليفة سني؟! وماذا عن الدول ذات الطوائف المتعددة مثل لبنان المؤلف من ثماني عشرة طائفة؟!

إن القومية تصنع وحدة المجتمع لأنها تجمع كل أبناء الوطن الواحد على اختلاف أديانهم ومذاهبهم وطوائفهم وأطيافهم السياسية على قدم المساواة ضمن إطار الدولة القومية التي تكفل الحرية والديموقراطية والعدل والمساواة للجميع. والإمبريالية كانت وما تزال تسعى لتجزئة المجزأ بخلق دويلات في الدولة العربية الواحدة تقوم على أسس دينية أو طائفية أو إثنية. فكيف تتم المواجهة دون الالتفات إلى ما يربط بين أبناء الوطن لا ما يساهم في التفتيت والتجزيء!

والروابط تبدأ من الأقرب وتتوسع باتجاه البعيد فالأبعد؛ من الوطن الجزئي "الصغير" وهو الأقرب لخلق الوحدة لأن المقومات المتوفرة تجمع وتوحد، ولا يمكن أن تكون الرابطة مع مسلم في آخر المعمورة أقوى من الرابطة مع ابن البلد والمدينة والوطن وإن كان من دين آخر أو طائفة أخرى أو أيديولوجية مخالفة.

والرابطة القائمة على مقومات بديهية هي نفسها توحد وتجمع بين أبناء الوطن الكبير "الوطن العربي"، بينما تبدأ تتلاشى تلك الروابط مع الأبعد ولا تبقى سوى المشاعر الدينية والإنسانية، فهل يتم القفز إلى الأبعد مباشرة وتُغيّب صلات القريب والأقرب، والدول العربية هي دول إسلامية فليكن البدء بالعمل على وحدة هذه الدول الإسلامية/ العربية القريبة أولاً!

فإن تحققت وحدة الدائرة الأولى على الصعيد القطري، يمكن الانتقال إلى الدائرة الكبيرة الوطن العربي وعندما تتحقق وحدته "وحدة الأمة العربية"، يمكن الانتقال إلى الدائرة الأكبر الأمم الإسلامية أي الانتقال من الخاص إلى العام فالأعم، ولا يمكن القفز فوق تسلسل الدوائر لأنه سيضيّع الدوائر كلها. وذاك الانتقال إلى الدول الإسلامية لا يكون إلا بعد أن تحل كل دولة منها قضاياها وإشكالياتها، وحتى يتم التفاهم والاتفاق بين الدول الإسلامية على رؤية إسلامية تحديثية واحدة عند الجميع!

إن الواقعية تقول الرابطة القومية هي الأقوى والأساس، وهي ليست حائلاً أمام بعد آخر مع الشعوب والدول الإسلامية تقوم على روابط أخوية

وإنسانية لا تمنع من أن يكون الدين أحدها، وهي تؤدي إلى التعاون والتضامن والتنسيق.. وهذه الأمور لا تحتاج إلى انتظار طويل!

والإصرار على رفض القومية ومشروع الأمة العربية، إنما هدفه البقاء ضمن إطار الوطن الجزئي دون الالتحام بتتمة أجزاء الوطن، وهو تضليل وهروب إلى الأمام للتنصل من المسؤوليات القومية.

***

هناك أزمة حقيقية، أزمة وطن ودولة، وأحزاب وحركات [23]، أزمة تحديث وتحرير ونهوض. وهناك أزمة مفكر، أزمة مثقف، أزمة مجدد، أزمة رؤية عند قسم كبير من المفكرين والسياسيين، وأزمة دوغمائية الفكر وأحاديته عند البعض، وأزمة أخلاقية عند بعضهم. وهناك أزمة خلقها من وقف ضد القضايا الجوهرية الوطنية والقومية وناصر العدو الحقيقي للنهوض والتحديث والحرية!

وهناك أزمة في الفصل بين الفكر والممارسة، بين الفكر والسياسة. وأزمة في ازدواجية الخطاب، وأزمة تناقضات في مقولات لا تميز بين المثالية والواقعية، العلم والخرافة، الحرب والسلام، الاستعمار العدو والصديق..

إن الحديث عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية في ظل تكريس الواقع السياسي وتجاهل دور المستعمر والتبعية لمشاريعه، لن يوصل في النهاية إلى التحديث والتحرر الحقيقي، وجدل الأفكار عن التجديد في البنى الفوقية دون جدل مع البنى التحتية، لم ولن ينتج واقعاً جديداً لذلك يبقى الدوران في حلقة مفرغة!

كما أن مواجهة العولمة لا يكمن في التقوقع على الذات والاحتماء بالتراث، وإنما بمواجهة تلك القطبية "البلطجية" بخلق جبهة عريضة وطنية ديموقراطية مخلصة وصادقة تتحالف مع الدول والحركات العربية وغير العربية المناهضة لغول العولمة والقطبية، كحركة مناهضة العولمة ومنظمة التجارة الدولية.. وحتى يكون ذاك التحالف بمستوى التحدي والمواجهة

عليه أن يكون متقدماً علمياً وتكنولوجياً وفكرياً ومنفتحاً ثقافياً وحضارياً ومؤمناً بالحرية والديموقراطية.

كما أن البحث عن بدائل تحرر العربي من العلاقة مع أمريكا والغرب أمر ضروري جداً، والبدائل كثيرة وعلى سبيل المثال ما ذكره د. أنور عبد الملك من الالتفات نحو الشرق نحو الصين والابتعاد عن الغرب ولا سيما أمريكا وفك العلاقة معهما كقبلة للعرب والمسلمين، فالصين ستكون القوة القادمة في القرن الحادي والعشرين، وستحتل الصدارة في منظومة النظام العالمي الجديد، وهي كما يرى مشابهة في جذورها التراثية والقيم الإنسانية العريقة للعرب والمسلمين.

وأمريكا بعد انهيار المنظومة الاشتراكية، تحاول إعاقة نمو الصين المتزايد، ومحاصرتها بالسيطرة على نفط المنطقة بكاملها، بادئة بالحلقات الضعيفة حيث بدأت بأفغانستان فالعراق تمهيداً لاستكمال الخطوة في إيران [24]..

* * *

الهوامش

(1) اتفاقية السلام/ الاستسلام التي عقدها السادات مع الكيان الصهيوني عام 1979 إنما هي على حساب الشعب الفلسطيني، فهو قد استعاد ما احتلته المسماة "إسرائيل" من الأراضي المصرية عام 67 مقابل أن يعترف للصهاينة بشرعية استعمارهم لأرض لا يمتلكها وهي أرض فلسطين عام 48، إضافة إلى تخليه عن قطاع غزة وقد كان أمانة في عنق مصر وعهدتها.

فكيف يعترف بشرعية سرقة أرض ليست له وأصحابها محرومون منها، مقابل أن يستعيد أرضه المسروقة؟!

لقد كانت تلك الاتفاقية فاتحة لحروب في المنطقة لإعادة ترتيبها أمريكياً صهيونياً كالحرب الأهلية اللبنانية، ثم الاجتياحين الإسرائيليين في عام 1978 واحتلال الشريط الحدودي، ثم الاجتياح الكبير عام 1982 الذي أجبر المنظمة على الخروج من بيروت وإنهاء العمل الفدائي في لبنان!

وما تعرضت له المنطقة من ضربات قاسية وخسائر بشرية ومادية، كان ضمن مخطط تيئيس الجماهير والاستسلام لمنطق القوة التي لا تقهر من جانب، ولتحقيق المشروع من جانب آخر!

(2) بعد أن قضى السادات على القوى اليسارية المعارضة له في السلطة في أيار عام 1971، وبعد خوض حرب تشرين، أعاد التعددية الحزبية في عام 1977 وقد كانت محظورة في مصر حيث لم يكن هناك سوى حزب السلطة "الاتحاد الاشتراكي العربي" الذي أنشئ في عام 1962.

وقد ظن السادات أن التيارات الدينية ستدعمه في مواجهة الخط الوطني اليساري والناصري، فذهب مطمئناً لزيارة القدس. لكن بعد أن اعترف بالعدو الصهيوني ورفع العلم الإسرائيلي فوق سماء القاهرة، جاء حتفه على يديها كما سيأتي فيما بعد!

(3) تمت مقاطعة نظام السادات عربياً لكن مقاطعة دول عرب أمريكا كانت شكلية وليست حقيقية. وقد تشكلت جبهة الصمود والتصدي في المؤتمر العربي المصغر الذي انعقد في طرابلس/ ليبيا بعد زيارة السادات للقدس عام 1977، بهدف مواجهة السلام بين السادات والكيان الصهيوني. وقد شاركت فيه ليبيا ومنظمة التحرير الفلسطينية وسورية والعراق واليمن الديمقراطية..

(4) لما دخل عرفات التسوية أسرعت دول عرب أمريكا إلى أحضان الكيان تحت شعار ما يرضاه الإخوة الفلسطينيون نرضاه، وبما أن القيادة الفلسطينية الممثلة للشعب الفلسطيني تصالحت مع الكيان، فهم أي عرب أمريكا ليسوا بملكيين أكثر من الملك!

ولكن الحقيقة غير ذلك فعملياً لم تقم تلك الدول بما يجب عليها من التزامات تجاه القضية الفلسطينية وما يريده الشعب الفلسطيني بل والعربي من التحرير الكامل. وعملت على دعم من يمثل توجهاتها في قيادة المنظمة ليتناغم معها في خيار التسوية المحدد الذي تريده، وقدمت المشاريع التصفوية للقضية الفلسطينية!

لقد بدأت الأنظمة التابعة تسرع باتجاه ما كانت تخطط له وأخذت السلسلة تنهار تباعاً باتجاه التطبيع دون إقامة سفارات.

وقد وقع الملك حسين اتفاقية سلام في تشرين الأول 1994 "في وادي عربة" مع الصهاينة وبحضور الرئيس الأمريكي كلينتون، ولحقت به موريتانيا فيما بعد فأقامت علاقات ديبلوماسية مع الكيان!

(5) هناك أيضاً تطبيع غير مباشر مع العدو الصهيوني في المصطلحات السياسية والإعلامية، حيث وقع في ذاك الخطأ الكثيرون منذ زمن بعيد حتى الوطنيون الذين لا يعترفون بالعدو الصهيوني أبداً؛ فقد شاع استخدام كلمة "إسرائيل" وهو اعتراف غير مباشر يكرس طبيعة وجود الكيان، بينما كان الجذريون الذين لا يؤمنون بالكيان يستخدمون تعبير المسماة إسرائيل أو الكيان الإسرائيلي أو دولة العدو أو فلسطين المحتلة عام 48.. ليثبت في الوجدان والذاكرة أن تلك أرض فلسطينية مستعمرة.

فإذا كانت منظمة "ناطوري كارتا" اليهودية تستخدم مصطلح "المسماة إسرائيل" لأنها لا تعترف بالكيان الصهيوني، فالأولى بالفلسطينيين والعرب أن يستخدموه!

ومن المصطلحات أيضاً "المستوطنات الإسرائيلية" وهي في الحقيقة مستعمرات لأنها قامت على مبدأ طرد أهلها الشرعيين منها وتهديم بيوتهم ثم بناء السكن لليهود المستعمرين. وكلمة استعمار هي في الأساس ترجمة خاطئة لكلمة "Colony" التي تعني حكم دولة أو منطقة من قبل آخرين غير أهلها، وقد أطلقت على المستعمرات التي أقامها الغزاة الأوائل لأمريكا الشمالية.

وكلمة استعمار تحمل مدلولات إيجابية من الجذر عمر يعمر، والصحيح أن تترجم الكلمة بتحميلها دلالات سلبية تتضمن احتلال واغتصاب الأرض بالقوة وقتل السكان وطرد ما تبقى منهم وتدمير بيوتهم، وتشييد بيوت للمحتل.. وهكذا الكثير من المصطلحات التي تساهم سلباً في تعويد الأذن العربية على تقبل الكيان بكل أبعاده كأمر حقيقي وواقعي، فينشأ الطفل العربي على سماع تلك الكلمات ويستخدمها كحقيقة يتعايش معها، وهذا احتلال للعقل العربي يمهد الطريق لتكون سالكة أمام التطبيع الأخطر!

(6) مثل يوسف السباعي، ونجيب محفوظ، وأدونيس "وقد فصل من اتحاد كتاب العرب"، ومحمود درويش الذي شعر بأن الدم اليهودي يسري في دمه، ومحمد أركون الذي بشر الفلسطينيين بالنعيم والرخاء إذا تم السلام مع الكيان الصهيوني!

وقد بدأت تظهر مواقف بعض المفكرين والأدباء ضد فترة عبد الناصر عقب وفاته مثل توفيق الحكيم الذي عد مرحلة عبد الناصر مرحلة "غياب الوعي"، وبوفاته بدأ زمن عودة الوعي والنهوض والديموقراطية كما ذكر في كتابه "عودة الوعي"!

(7) قامت الثورة بطرد السفير الإسرائيلي وتحويل السفارة الإسرائيلية إلى سفارة لمنظمة التحرير الفلسطينية، مما يعني عملياً أن انتصار ثورة

الشعب الإيراني بقيادة الخميني في إيران عوضت العرب بنسبة ما عن خروج مصر من معادلة الصراع واختلال التوازن الإستراتيجي.

وفي الاستفتاء الديموقراطي الذي جرى اقترع الشعب الإيراني على إقامة الجمهورية الإسلامية في إيران بنسبة 98.2 %، مما يعني أنه خيار الشعب الإيراني وليست قضية السلطة وحدها.

لكن أنظمة العرب الأمريكية "مصر والأردن والسعودية والخليج.." ومن ورائهم أمريكا وأوروبا، دفعوا صدام حسين لمحاربتها تحت شعار قومي، فشن في أيلول عام 1980 الحرب على إيران وعلى امتداد ثماني سنوات دون أن يحقق شيئاً وعاد للالتزام باتفاقية الجزائر التي ألغاها في بداية الحرب. واعترف بعدها بأن حربه على إيران خطأ، وكانت النتيجة استشهاد نصف مليون عراقي ومئات الألوف من المعاقين والمشوهين غير تدمير البنية الاقتصادية والتنموية وخسارة المليارات!

(8) العولمة "Globalization": مفهومها قديم بدأ منذ عصر الاستعمار التقليدي القائم على الاحتلال للسيطرة على المواد الأولية وجعل العالم سوقاً لمنتجاته ونشر فكره ولغته وثقافته.. ثم فيما بعد ونتيجة نمو وتضخم التكتلات الشركاتية والاحتكارات/ التروستات ولدت الشركات العابرة للقارات "المتعددة الجنسيات" لتهيمن على السوق العالمية، وقد اخترقت دول العالم كمؤسسات اقتصادية.

وعقب انهيار الدول الشيوعية والطفرة في عالم الاتصالات، وبروز القطبية الأمريكية أخذ مفهوم المصطلح أبعاده الوحشية في جعل العالم كله قرية كونية واحدة "global village" تهيمن عليها الولايات المتحدة، وتسعى لأمركتها في كل المجالات الاقتصادية والسياسية طارحة شعاراتها المزيفة الحرية والديموقراطية والتعددية.. ويمكن تسمية الوحشية الأمريكية القطبية بمرحلة الإمبريالية الحديثة أو ما بعد الإمبريالية!

وخطورة العولمة ليست فقط على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، وإنما على كينونة الوجود العربي نفسه وثقافته وتراثه وهويته..

وليست القضية مجرد حرية الشركات العابرة للقارات والغزو الثقافي وهيمنة الميديا الأمريكية والدعاية، وإنما هي أيضاً تغييب الآخر فأمريكا أعطت لنفسها الحق في التدخل في شؤون الدول كلها في العالم وفرض سياسة السوق والخصخصة، بل وتقييم الدول وتصنيفها تحت شعارات: الإرهاب، حقوق الإنسان، الديموقراطية.. وفرض الواجبات عليها والعقوبات، بل وتغير أنظمة الحكم كما ترغب!

(9) الأمم المتحدة أداة بيد أمريكا لتنفيذ سياستها بصيغة الشرعية الدولية. حتى الحلف الأطلسي تحول في عام 1999 من هدف الحفاظ على سلامة أراضي الدول المنتمية للحلف، إلى الدفاع عن مصالح الدول المنتمية إلى الحلف على الصعيد العالمي!

(10) مصطلح "الشرق الأوسط" مصطلح استعماري بريطاني حدد جغرافياً بعد وقرب دول الشرق بالنسبة إلى أوروبا وخاصة بريطانيا التي كانت ترى أنها مركز العالم، فتحديد الشرق هو بالنسبة إليها ويتضمن الشرق الأدنى والأوسط والأقصى. وقد استخدمه في البدايات اللورد كرزون الحاكم البريطاني في الهند ليشمل المنطقة المحيطة بالخليج العربي وتركيا وإيران. وعندما أنشأت بريطانيا "إدارة الشرق الأوسط" عام 1921، كان المقصود منه العراق والأردن وفلسطين، ثم أضيفت مصر فيما بعد.. "راجع معجم الشرق الأوسط - سعد سعدي".

وتعريف المصطلح في الموسوعة البريطانية "Britannica": الدول المحيطة بجنوب وشرق شواطئ البحر الأبيض المتوسط من المغرب إلى شبه الجزيرة العربية وإيران وأحياناً أبعد من ذلك.

والآن هناك مفهومان، الأول يقصد به: مصر وفلسطين المحتلة والأردن وسورية ولبنان، والثاني يوسع دائرته بحسب المصلحة الإستراتيجية للإمبريالية ليشمل إضافة إلى ذلك بقية الدول العربية وقبرص وتركيا وإيران والباكستان وأفغانستان وأثيوبيا.. والهدف من المفهومين إزالة الصبغة العربية/ القومية عن البلاد العربية، ودمجها في مجموعة جديدة بديلة يكون الكيان الصهيوني فيها المهيمن الأول.

وشمعون بيريز في كتابه "الشرق الأوسط الجديد" تحدث عن سوق شرق أوسطية مشتركة "الاقتصاد والسوق والمنافسة" على غرار السوق الأوروبية تشمل تلك الدول عدا العراق وإيران. وتحدث عن تطور المفهوم الصهيوني من احتلال الأرض إلى الاقتصاد والأمن، فلم يعد يعنيه توسع الأرض من الفرات إلى النيل وإنما أن ينصب رجل الأعمال اليهودي خيمته بين الفرات والنيل وينام دون خوف على حياته!

فالجديد هو التمدد الحيوي للرأسمال اليهودي وصناعته في المنطقة لتكون الساحة سوقاً لمنتجاته، وهذا يتطلب انفتاح الدول العربية على الكيان، بينما الانغلاق والمقاطعة تخنق تطلعات الكيان!

(11) تدخل السوفييت عام 1979 "زمن بريجينيف" في أفغانستان لحماية النظام الاشتراكي، وكانت هناك خلافات داخلية بين القادة الاشتراكيين/ الماركسيين الأفغان، انتهت إلى استلام بابراك كارمال السلطة بمساعدة السوفييت.

وبدأت أمريكا منذ زمن كارتر بالتحرك ضد التدخل السوفييتي بترتيب المعارضة وإغداق المليارات من الدولارات على الحركات الأصولية المتطرفة "المجاهدين"، وتحولت الباكستان إلى محطة تجمع إستراتيجية لاستقبال المتطوعين الإسلاميين والتدريب والأموال والسلاح.. والعبور منها إلى داخل أفغانستان لإيصال المساعدات من مال وسلاح ومتطوعين.. وبقيت الحرب مستمرة بين النظام الأفغاني الاشتراكي ومعه حلفاؤه السوفييت ضد أعداء النظام "المجاهدين" المدعومين بلا حدود من أمريكا والباكستان وعدد من الدول العربية والإسلامية، حتى استلم غورباتشوف السلطة فعزل كارمال ووضع بدلاً منه نجيب الله على أن يحاول الاعتدال وحل النزاع مع المعارضة وإنهاء الحرب، ولكنه فشل فأعلن كورباتشوف الانسحاب من أفغانستان وخلال عام انسحبت القوات السوفييتية نهائياً عام 1989، ولكن بقيت المساعدات مستمرة لسلطة نجيب الله.

وبعد خروج السوفييت من أفغانستان استمرت جماعات وأحزاب "المجاهدين" المدعومة أمريكياً ومن وظفتهم معها في حربها ضد سلطة

الأفغان الاشتراكيين حتى انتهت بانتصار "المجاهدين" على الأفغان الاشتراكيين عام 1992.

ثم استؤنفت الحرب الأهلية بين المجاهدين أنفسهم وهم من تكتلات مختلفة: أحزاب وحركات وقبائل وإثنيات وطوائف.. من أجل السيطرة على السلطة من عام 1992 وحتى عام 1998 حيث انتصرت جماعة طالبان وزعيمها الملا أحمد عمر وهم من السنة الأصوليين. وقد وقف المجاهدون العرب على الحياد تلبية لدعوة ابن لادن بعدم الانحياز لأحد في الحرب الأهلية الأفغانية حتى عام 1996 عندما سقطت كابول بيد طالبان حيث انحاز إليها المجاهدون العرب، بينما شكلت بقية الأطراف تحالفاً باسم "الاتحاد الوطني الإسلامي لجبهة إنقاذ أفغانستان" والذي عرف باسم "التحالف الشمالي". وقد بدأ دعم ابن لادن لطالبان منذ عام 96 وساعدها في وجه المعارضين لها كما ساعد الملا عمر في الأمور الإدارية والتنظيمية والتي تفتقر إليها جماعة طالبان.

إن العرب الأفغان عندما عادوا إلى بلادهم كانوا مشبعين بفكرة إقامة النظام الإسلامي، وقد شهروا السلاح في بلدانهم عندما وجدوا أنفسهم أمام البطالة والفقر وعيون الأمن التي كانت تلاحقهم للتخلص منهم، علماً بأن دولهم سابقاً كانت تشجعهم على التطوع لنصرة أفغانستان تنفيذاً للإملاءات الأمريكية بطلب إعلان حملة التطوع للجهاد!

أولئك هم الإسلاميون "المجاهدون" جماعة أمريكا الذين تطلق عليهم تسمية "الإرهاب"، وقد أنهت دورهم بعد تنفيذ مهمتهم في إخراج السوفييت من أفغانستان والقضاء على النظام الاشتراكي!

(12) هناك كتب كثيرة أدانت ظاهرة الإرهاب، ومنها ما كتبه إسلاميون مثل: كُتيب: "الإرهاب والعنف والتطرف في ضوء القرآن والسنة" لعبد الله بن الكيلاني الأوصيف، وكُتيب: "الإرهاب وإشكاليات المفهوم والانتماء والمواجهة" د. حسن بن فهد الهويمل.

إلا أن أهمها ما كتبه منتصر الزيات "محامي الجماعات الإسلامية" في مصر، في كتابه "الجماعات الإسلامية: رؤية من الداخل" عن الجماعات

الإسلامية الراديكالية، لأنه يتحدث عن تجربته معهم في مصر عندما كان واحداً منهم.

فهم ولدوا في عهد السادات الذي فتح لهم المجال، وقد حاربوا في أفغانستان مع الأمريكيين وتحت لوائهم. وعندما انتهت الحرب مع السوفييت طالبهم الأمريكيون بتغيير أنفسهم وأساليبهم وسلوكهم لأن مفاهيمهم أرض خصبة لنمو الإرهاب، فانقلبوا ضد الأمريكيين.

والعضو يربى على مفاهيم ومنطلقات خاطئة أساسها أنهم أصحاب التأويل الصحيح الوحيد للإسلام، وتزرع فيه أيديولوجيا التكفير والحقد والكراهية، والخروج على الحاكم والمجتمع معاً بهدف إقامة النظام الإسلامي استناداً إلى الآية القرآنية "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون".

ويتحدث كيف تطورت أمور الجماعات إلى أن صارت مطاردة في كل أنحاء العالم تحت تسمية "الإرهاب"، "العالمية الأصولية"، الخارجين عن الشرعيات المحلية والدولية نتيجة ما قامت به من التفجيرات والاعتداءات والاغتيالات السياسية، والاستيلاء على الأموال العامة والخاصة ولا سيما الأقليات..

والمهم أخيراً ما يقوله بأن تلك الجماعات ضحايا أمراء حرب وتجار وأجهزة وشبكات، ولكن ذلك لا يعفيها من مسؤولية الأخطاء التي ارتكبتها، والتحول إلى ظلم الآخرين.

(13) تراجع هنتنغتون عن بعض مقولاته نتيجة جرائم بوش التي هزت أصحاب الضمائر في أمريكا، كما ظهر في "بيان أمريكا" الذي وقعه ستون أمريكياً من المثقفين والمفكرين والباحثين من بينهم هو وفوكو ياما صاحب كتاب "نهاية التاريخ"!

(14) أركون: الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي - ص 315.

(15) أركون: قضايا في نقد العقل الديني - ص 17.

وراجع ما كتبه د. إدوارد سعيد عن الاستشراق الوضعي الكلاسيكي في كتابه "الاستشراق".

(16) أركون: نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي - ص 176.

(17) د. نور الدين طوالبي: في إشكالية المقدس - ص 42.

(18) لا يوجد مفكر عاقل يتمنى حدوث كوارث في العالم العربي ليصحو من سباته الذي طال!

فالمفكر هشام جعيط أيد احتلال العراق لأنه السبيل الوحيد لفرض الحداثة والديموقراطية، وهو يتمنى تكرار تجربة احتلال العراق بأن تشن أمريكا حرباً ضد الوطن العربي كله، لأنه لا حل للتغيير والديموقراطية إلا عن طريق القوة، قوة أمريكا!

وعلي حرب الذي "غيّر جلده" وأيد الحرب على العراق والتعاون مع المحتل الأمريكي من أجل الديموقراطية والنهوض، يدعو لرفض دراسة التراث لعدم جدواه؛ فتفكيك التراث وإعادة تركيبه مجرد عمل ميكانيكي لن يؤدي إلى النهوض، لذلك يجب التخلي عن التراث وأوهام دراسته "إخراج الثعبان من تحت القميص" كما يقول في كتابه "نقد النص"، ودعا إلى "تغيير جلدنا" كما غيّر جلده هو!

إن تجاوز التراث قضية فكرية قابلة للنقاش والحوار، ولكنها لا تعني مطلقاً الارتماء في أحضان أمريكا، لأن الارتماء نقيض للوطنية والانتماء والكرامة الإنسانية.. فالموضوعان مستقلان عن بعضهما ولا رابط بينهما مطلقاً!

(19) محمد علي الكبسي في كتابه "في النهضة والحداثة" يستنتج بأن الذكاء هو أن تجد الدول العربية، إذا أرادت النهوض، حظها في التحالف الدولي ليكون لها موطئ قدم تحت أشعة الشمس، تستفيد من التناقضات الدولية لتفرض في تحالفها مساعدتها في النهوض ويعطي مثالاً في الهامش "ص 305" عن "استغلال الحليف الأنجع"، على الكيان الصهيوني كيف كان ذكياً وتحول بعد فشله في حرب السويس عام 1956 بتحالفه مع بريطانيا وفرنسا إلى التحول نحو أمريكا. ونجح في تحالفه معها، وكانت "إسرائيل" هي الرابح الوحيد في النظام العالمي، ويقول عن العرب في

"ص 306": "إذا أرادوا أن يكون لهم موقع تحت الشمس، أن يعدلوا زمانهم على الزمن العالمي، ويبحثوا لهم عن مكان في لعبة التحالفات التي تشق النظام الدولي، ليتمكنوا من الاستقواء العسكري والاقتصادي الذي يسمح به ذلك النظام غصباً عنه ليحافظ على توازنه"!

فهو يدعو العرب للاحتذاء بذكاء الكيان الصهيوني، والتوجه نحو أمريكا ونسيان قاعدة الإمبريالية الكيان الصهيوني!

والسؤال الذي يفرض نفسه: إلى أين وصلت السعودية والخليج في تحالفهما مع أمريكا بل والصهيونية، بل إلى أين وصل النظام المصري والأردني وهما في قمة التحالف معهما؟!

أين النهضة والتقدم العلمي والفكري والحداثي؟! وهل الاستثمارات والبورصة والمواد الاستهلاكية والكوكا كولا والهامبرغر.. هي الهدف من التحديث؟!

إن الكيان الصهيوني توجه إلى التسلح الكلي من أمريكا عقب حرب حزيران عام 67 بعد أن أوقف ديغول تصدير السلاح وقطع الغيار إلى الكيان نتيجة شنه ذاك العدوان. والكيان الصهيوني مجرد قاعدة عسكرية تحتاج إلى تمويل غير محدود ومشروط ممن يستخدمها، وقد تولت أمريكا توظيفها والإنفاق عليها بعد أفول نجم أوروبا الاستعماري!

(20) على سبيل المثال حزب التجمع الممثل لليسار المصري، وحركة كفاية، وبقية القوى الوطنية التي تناضل سياسياً من أجل إلغاء "كامب ديفيد" وقطع العلاقات مع الصهاينة والتطبيع.. فهي على الصعيد الداخلي تطالب بالديمقراطية والإصلاح وإلغاء قوانين الطوارئ والأحكام العرفية، والدولة البوليسية دولة الأمن بعد أن كانت دولة العسكر "العسكرتارية" كما سماها أنور عبد الملك.

فالتسلط والاستبداد والقمع والإرهاب أساس التخلف. والسلطة ليست معصومة عن الخطأ. والجو الديموقراطي يفتح مجال النقد، وسيادة العدالة والقانون تفتح المجال للمحاسبة والعزل.

(21) أشرنا إلى الانشقاق في مرحلة النهوض الثانية في الهامش رقم "9"، وفي هذه المرحلة الثالثة حدث انشقاق آخر في حزب بكداش عام 1983، ثم تلاه انشقاق عام 1986.

ومن الأحزاب التي غيرت اسم حزبها "الحزب الشيوعي الفلسطيني" إذ تسمى بحزب الشعب، معللاً السبب حساسية الناس من كلمة شيوعي.

أما التي تخلت عن الماركسية الاتحاد الديموقراطي الفلسطيني "فدا"، الذي انشق عن الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين عام 1991.

(22) المؤتمر القومي الشعبي أضاف إلى تسميته كلمة الإسلامي فصار "المؤتمر القومي الإسلامي".

وذاك المفهوم استوعبه كثيرون حتى اليسار لأن الإسلام له حضوره في العالم العربي ولا يمكن تجاهله، يقول د. أنور عبد الملك - وهو من الشيوعيين المصريين- في كتابه: "الفكر العربي في معركة النهضة - ص 228":

"إن الإسلام في أوطاننا معين عظيم ومنبع أصيل وإطار حضاري لتعبئة الجماهير الشعبية في معركة التحرر والسيادة. ولا سبيل إلى الانتقال إلى مرحلة الثورة الاشتراكية لو أدرنا ظهورنا إلى هذا الواقع الحي".

وهو يذهب إلى أبعد من ذلك فلا يمانع من أن يكون الإسلام أحد مصادر التشريع في الدستور.

(23) تميزت هذه المرحلة بكثرة الأحزاب في الوطن العربي، وعلى سبيل المثال في المغرب 33 حزباً، وفي مصر 24 حزباً..

صحيح بأن التعدد والأحزاب وصحافتها الحرة ظاهرة سليمة وديموقراطية وهي ضرورية إن كانت وسيلة هدفها الإنسان والوطن، لكن في العالم العربي معظم الأحزاب صارت غاية وتحولت إلى شركات ومؤسسات ذاتية نرجسية.

وهناك مجموعة أحزاب تتبنى أيديولوجيا واحدة وخطاباً واحداً في الأصل ولكنها لا تتوحد، ولا تتوجه نحو التكتل الجبهوي، أليس الأسلم من تشرذمها أن تعمل في إطار جبهوي إن كان توحدها مستحيلاً!

(24) راجع كتاب "ريح الشرق" لأنور عبد الملك.

* * *

الفصل الخامس:

تيارات الفكر المعاصر في المرحلة الثالثة من النهوض

إن تيارات الفكر العربي والإسلامي واتجاهاتهما والآراء الفردية في هذه المرحلة كثيرة وهي بصورة عامة استمرار للمراحل السابقة. ومنها ما له امتدادات واسعة وأخرى محدودة، وبعضها لم يلق أي صدى على الرغم من أهميتها في جدلية التراث والتحديث، أو جدلية الثلاثية!

وقبل البدء لا بد من الإشارة إلى أن هناك تقاطعات كثيرة بين بعض التيارات، والهدف من التصنيف العام في الكتاب، إنما هو لتسهيل البحث، وليس التصنيف الحدي. فقد نجد بعض التداخل بين تصنيف التيار الديني التحديثي والتيار التراثي العلماني، وأيضاً بين التيارات الدينية كتصنيف بعض الحركات الدينية أو توزعها ما بين التصلب والمرونة، وقد يصعب أحياناً تصنيف بعض المفكرين!

***

آ- التيارات الدينية الأصولية:

الأصولية بمعناها العام تساوي معنى الدوغمائية العقائدية الجامدة وهي كل من يتشبث بعقيدته حرفياً ولا يقبل الرأي الآخر المختلف عنه، وهذا يمكن أن نجده في كل دين أو مذهب أو فرقة أو أيديولوجيا أو حزب..

أما بمعناها الخاص الإسلامي فهي العودة إلى الأصول "القرآن والسنة"، وكما فهمهما ومارسهما الصحابة.

وهدف الأصولية إقامة دولة دينية/ ثيوقراطية تطبق الإسلام وفق نموذجه القديم الذي بقي مسيطراً على عقول ومشاعر المتدينين حتى الآن، مع أنه لم يتجسد بشكل مطلق كما يقول د. محمد أركون: (صحيح أن ذروة السيادة العليا الشرعية المثالية كانت موجودة دائماً في أرض الإسلام، وكانت تملأ عقول الملايين. ولكن وجودها كان دائماً ذهنياً أو عقلياً ولم تتجسد على أرض الواقع أبداً على عكس ما يتوهم المسلمون اليوم) [1].

وهنا لن نستعرض الطوائف الدينية التي فصلت العقيدة وأمور العبادة عن الحياة الدنيوية وتطوراتها، لأنها لم تطرح نفسها في الحياة الديموقراطية كحاملة لبرنامج ديني.

والتيارات الأصولية متنوعة في التشدد أو المرونة في آلية الفهم والتطبيق، لذلك يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام:

التيار الأصولي السلفي التقليدي المتطرف، والتيار الأصولي السلفي التقليدي المرن، والتيار الأصولي السلفي التقليدي الذي تجلى في المقاومة الإسلامية (التيار الديني الثوري).

***

1- **التيار الأصولي السلفي التقليدي المتطرف**:

وهو تيار متشدد رؤيته أحادية يدعي فيها امتلاك الحقيقة المطلقة وحده ويكفر ما عداه. ويمثل هذا التيار السني الوهابيون ومعظم شيوخ المساجد التقليديين والفقهاء والأزهر والدعاة، مع ملاحظة وجود اختلافات بينهم حول المذاهب الفقهية والتصوف. وهو بشكل عام لا يتدخل في شؤون الدولة/ السياسية، إما لأنه يؤيد سلطة الحاكم مهما كان إن لم يمس ممارسة الطقوس والعبادات وهو يدور في فلكه ويدعو له في منابره، أو هو ضد السلطة ولكنه يخشى قول الحقيقة حتى لا تبطش به السلطة أو تسلبه امتيازات حصل عليها.

ومما يلفت النظر بعض الدعاة الجدد الذين يملؤون المحطات الفضائية في أحاديثهم عن علامات الساعة والأعور الدجال وبنود الطهارة.. وكأنما هي أهم من الحديث عن الجرائم الأمريكية الصهيونية.. مما يثير الشك فيهم وفي توجهاتهم المرتبطة بالسلطة لصرف الناس عن قضاياهم الأساسية الوطنية والمعيشية والكرامة والحرية..

وهناك بعض رجال الدين والشيوخ وحتى من التيارات الدينية المرنة، يتميزون بالعنف والقسوة والجلافة في مناقشاتهم لمخالفيهم، ويظهرون الغلظة وسوء الأدب وعدم اللباقة في الحديث حتى في المحطات الفضائية

أمام العالم مما يعطي انطباعات سيئة عنهم، وقد تمتد إلى أفكارهم نفسها!

وهم يظنون أنفسهم أنهم الممثلون وحدهم عن الإسلام وهم الأوصياء عليه، بينما محدثهم هو القاصر أو الكافر وبالتالي يطبقون عليه الآية القرآنية: (أشداء على الكفار رحماء بينهم) "الفتح 29"، وينسون الآية: (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) "آل عمران 159"، والآية: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) "النحل 125"..

كما أن كثيراً من كتب المتعصبين مليئة بالشتائم والمسبات لمخالفيهم، وهناك افتقار إلى الأخلاق واللباقة واحترام الآخر، مع أن شروط الحوار الإيجابي تقوم على العقل العلمي المنفتح، والثقافة والمعرفة، والالتزام بآداب الحوار والمناقشة [2].

وهذا التيار يضع النقل قبل العقل ويرفض أية إعادة نظر في أية قضية وردت في النص، لذلك اتهم الأفكار الإسلامية المتنورة بالتحريف لأنها خرجت عن حرفية النصوص باتجاه العقل. وهو يتهم من يتجاوز الخطوط الحمر التي وضعها الأوائل كابن تيمية، بالخروج عن الإسلام والردة/ الكفر أو الزندقة، وهذا يستوجب التوبة أو القتل.

وهو يرفض تحديث الدين لأنه يرى أن الله هو الذي يشرع للناس وليس العكس، أي ليس الناس يشرعون لله ما يجب أن يكون، ففي حالة تحديث الدين يصير الناس هم الذين يقودون الدين بينما الدين هو الذي يجب أن يقود. والاجتهاد حدوده ضمن المستجدات التي لم ترد في الدين والشريعة أية مطابقة لها، وضمن آلية شروط الاجتهاد التقليدية التي أقرها علماء الدين. وقد قدم السلفيون التقليديون ومنهم الأزهر فتاوى عديدة حول قضايا معاصرة كثيرة.

كما رفض التيار التأويل وعده بدعة اخترعها المعتزلة، وهو لم يرد عن الرسول والصحابة. وادعى بأنه يدل بشكل غير مباشر إما على جهل النبي

بتلك الرؤى الأخرى التي وصل إليها المؤول، أو أنه كان يعرف الوجه الآخر ولكنه أخفاه عن صحابته، والأمران كفر!

واتهم دعاةَ التحديث بأن دوافعهم هي تجميل الدين عند الغربيين والكفار، بينما هم "الأصوليون" لا يخجلون من دينهم كما هو، وليسوا بحاجة إلى الرياء والنفاق للآخرين لإظهار الدين بمظهر عصري متقدم!

وقد كفر التيار مفاهيم الديموقراطية والعلمنة، والقومية [3]:

الديموقراطية: رأى التيار أنه لا وجود للديمقراطية في الإسلام لأنه لا يحق للإنسان أن يختار أن ينتقد الشريعة أن يصوت. وهاجم دعاة الديموقراطية بأنهم يريدون تطبيق التشريعات الوضعية بينما المشرع هو الله، وبأن هدفهم من جعل التشريع بيد البشر للتحكم بالتحليل والتحريم كما تشاء لهم أهواؤهم!

كما رفض التيار أن تكون الشورى مساوية للديموقراطية فالحكم لله ورسوله، والشورى مرتبطة بالحاكم ولا تلزمه بشيء يصدر عنها. وقد أشار إلى هذا أحد الأصوليين المتشددين وهو زعيم التكفير والهجرة شكري أحمد مصطفى أثناء استجوابه عام 1977 في محكمة أمن الدولة العسكرية العليا حول إن كان الدستور مخالفاً للشريعة والشورى: (لم يجعل للأمة مطلق السلطة على الحكم إذا حكمها بكتاب الله وسنة رسوله، وما ذكر عن الشورى فهو أمر مخالف تماماً هذا المعنى، حيث إن الحاكم في الأمة الإسلامية هو الذي يختار موضوع الشورى ويختار من يستشير والشورى بعد ذلك، معلمة له وليست ملزمة له، وله أن ينفرد برأيه بعد الشورى، وإن اجتمعت الأمة كلها على خلاف رأيه، والنص القرآني يقول للرسول "وشاورهم في الأمر"، فكلفه هو أن يبدأ بالمشاورة على الصورة التي يراها صالحة، ولم يكلفهم بفرض الشورى عليه، وقال في "الأمر" وإضافة الألف واللام إليها يعني: في ما جل من الأمر، وليس أي أمر وباختياره وحسب وجهة نظره، ثم قال "فإذا عزمت" وجعل العزيمة له خالصة من دون الناس: "فتوكل على الله" فأين سلطة الشعب؟).

العلمنة: اتهم التيارُ العلمنةَ بالكفر والخروج عن الإسلام لأن الإسلام دين ودنيا، كما اتهمها بالديكتاتورية لأنها تبعد رجال الدين عن التدخل في السياسة وهو حق لهم كمواطنين مثل الآخرين. وادعى التيار بأن دعاة العلمنة يخشون من سلطة الإسلاميين في تنفيذ فريضة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) لأنها ستحجز حريتهم وانحلالهم الخلقي وإباحيتهم وفجورهم وعهرهم في الزنا وشرب الخمور..!

وتلك الاتهامات غير صحيحة فليس هدف العلمنة التحلل من القيم والأخلاق، وإنما هي النظر إلى الشوون الدنيوية المادية بمنظار عقلي وعلمي، وهي لا تنفصل عن الديموقراطية التي تتيح المجال للجميع للوصول إلى السلطة، فعلمانية تركيا أوصلت ديموقراطياً حزب "العدالة والتنمية" إلى السلطة والرئاسة.

ومن المفكرين المتبنين للعلمنة من رأى أنه ليس ضرورياً فهم العلمنة كما فهمها الغرب فللعرب والمسلمين رؤاهم العلمانية المستقلة، وقد تحدث د. أركون عن العلمنة الإيجابية وأهمية البعد الروحي والقيمي، ورأى د. محمد عابد الجابري أن استخدام مصطلح الديموقراطية أفضل وأعم لأنه يتضمن حفظ حقوق الأفراد والجماعات.

وقال د. حسن حنفي وهو من اليسار الإسلامي بأن مفهوم العلمانية في الغرب هو فصل الكنيسة عن الدولة، بينما الإسلام علماني لأنه لا توجد طبقة كهنوتية تسيطر على الدين كالكنيسة.

ورأي حسن حنفي صحيح نظرياً لأن الديانة الإسلامية ليست مبنية على نظام إكليروس مركزي كالكنيسة البابوية، ولكنه عملياً غير صحيح لأن لبعض رجال الدين والفقهاء قوة تأثير على أنصارهم وأتباعهم ومشاعر الناس، ولديهم القدرة على تحريك الرأي العام الديني وتحريك الشارع إن رأوا في قضية ما أنها تمس دائرة الدين المسموح بها من السلطة، والأمثلة على ذلك كثيرة قديماً وحديثاً. وقد أطلق د. أحمد صبحي منصور على الأزهر تسمية "الفاتيكان الإسلامي"، لدوره التكفيري الذي مارسه ضد بعض المفكرين ومحاسبتهم. وقال جمال البنا إن بعض رجال الدين

فرضوا أنفسهم كأوصياء على الدين ومحاسبة الناس. وقال آخر إن بعض رجال الدين يظن كل واحد منهم أنه البابا وما أكثر الباباوات، وكل بابا منهم أعنف من باباوات القرون الوسطى!

إن الفرق بين أي فكر والفكر الديني الأحادي هو أن الجميع يناقشون أي فكر سلباً وإيجاباً، بينما حامل الفكر الديني الأحادي التكفيري لا يقبل أن يُناقش لأن فكره الديني مقدس، وهو متعصب يريد فرض مفاهيمه بحسب رؤيته الأحادية، ويرفض التسامح وحقوق الإنسان وحرية الفكر والمجتمع المدني، ويحمي رؤيته بسلاح التكفير الذي يعني إباحة قتل كل من يحاول اختراق الدائرة التي يؤمن بها، فمن هو الديكتاتوري؟!

***

الوهابيون/ التيميون من ذاك التيار يقسمون إلى تيارين:

التيار الأول: ينبذ العنف المسلح في نشر الإسلام والدفاع عنه مثل التيار السائد في السعودية، وجماعة (أنصار السنة المحمدية) [4] في مصر التي تأثرت بأفكار ابن تيمية وابن قيم الجوزية ومحمد بن عبد الوهاب والألباني [5].. والتيار يدعو إلى العودة إلى القرآن والأحاديث الصحيحة ورفض البدع والطرق الصوفية والعادات والتقاليد المخالفة للنص والسلف.

التيار الثاني: تبنى العنف وشهر سلاحه ضد السلطة لأنه عدها خارجة عن الإسلام (الإسلام دين ودولة، مصحف وسيف)، كما شهر سلاحه ضد الغرب الذي يشن حرباً صليبية على المسلمين كما يرى.

وقد سادت تسمية التيار المتطرف المسلح بالتيار الإسلامي الإرهابي عند كثير من المفكرين حتى عند بعض التيارات الإسلامية، ويعللون ظهوره نتيجة الوضع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي [6].

ومن ممثليه القاعدة وجماعة الجهاد والتكفير والهجرة:

- **القاعدة**: حركة وهابية أسسها أسامة بن لادن في أفغانستان. وفي عام 1996 وبعد انفجار "الخبر" في السعودية، أصدر ابن لادن بياناً لمحاربة الأمريكان في السعودية بعنوان (إعلان الجهاد لإخراج الكفار من جزيرة العرب).

وقد تحول الصراع بين الإسلاميين والغرب إلى حرب دولية عقب إصدار بيان (الجبهة الإسلامية العالمية) في شباط عام 1998 الذي يدعو إلى قتل الصليبيين واليهود في كل مكان وزمان. وقد وقع البيان ابن لادن عن القاعدة، وعدد من المنظمات الإسلامية غير العربية والعربية كأيمن الظواهري عن (جماعة الجهاد المصرية). وجاء تفجير سفارتي أمريكا في نيروبي/ كينيا، ودار السلام/ تنزانيا في آب من العام نفسه 1998، ليعلن بدء الحرب المفتوحة ضد أمريكا في العالم، وفي معظم البلاد العربية: المغرب والجزائر ومصر واليمن والسعودية والعراق..

وقد أخذت تنظيمات إسلامية متطرفة في دول متعددة تعلن ولاءها للقاعدة والعمل تحت لوائها مثل فتح الإسلام..

- **الجماعة الإسلامية** (**جماعة الجهاد**) [7]: نشأت في مصر في بدايات السبعينيات بين طلاب الجامعات وسيطرت عليها أفكار ابن تيمية التكفيرية وفكرة الخروج على الحاكم الذي لا يطبق الإسلام. وقد دعت إلى قتال المرتدين عن الإسلام وفرض الإسلام بالقوة على المسلمين غير الملتزمين به. ولم تفرق بين قتال العدو الخارجي والداخلي!

وهدفهم إقامة الدولة الإسلامية كخطوة لإعادة الخلافة الإسلامية.

- **جماعة المسلمين** (**التكفير والهجرة**) [8]: تميزت الحركة بفكرة الهجرة وهي العزلة في المغاور للابتعاد عن المجتمع الكافر. والتكفير هو من فكر الخوارج (مرتكب الكبيرة) فالحاكم كافر، والمحكوم إن لم يخرج على الحاكم الكافر يعد كافراً، وكذلك عالم الدين إن لم يكفر الحاكم فهو كافر، وكل من تعرض عليه الحركة فكرها ولا يتبناه كافر!

وهي تتمسك بالقرآن والسنة النبوية فقط، وترفض ما عدا ذلك. وقد كفرت الأئمة والإجماع والقياس والاستحسان. ورأت أن ما روي عن الصحابة من أقوال أو أفعال ليس حجة. ونادت بعودة الفريضة الغائبة أو المغيبة وهي الجهاد ضد الكفار.

وهي كالوهابية ترى أن الإسلام لم يأت بالمساواة بين الرجل والمرأة في كل شيء لاختلاف الطبيعتين، والإسلام دين العدل لا دين المساواة.

***

2- **التيار الأصولي السلفي التقليدي المرن**:

هناك آراء سنية اجتهادية كثيرة نقدت الأصولية ورفضتها، وكذلك الأمر في الفرق الأخرى كالشيعة. وقد أجمعت الأكثرية الإسلامية على مرونة الإسلام ووسطيته.

وهذا التيار قبل بالحياة الديموقراطية والتعددية وحرية الاعتقاد، ورفض فكرة تكفير الآخر وفرض الدين بالقوة استناداً إلى الآية القرآنية: (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) "الكهف 29 "، والآية: (لا إكراه في الدين) "البقرة 256".

وقد فسر بعض الباحثين عدم تكفير الآخر بمعنى التسامح مع الأفكار المغايرة، لكن مفهوم التسامح القديم عام بمعنى العفو والمغفرة ونجده في الأديان والدعوات الأخلاقية كلها، أما مفهوم التسامح في عصرنا فهو إسقاط عصري ولا وجود له في أي دين، وقد عرفه محمد أركون بأنه: (الاعتراف للفرد - المواطن بحقه في أن يعبر داخل الفضاء المدني عن كل الأفكار الدينية أو السياسية أو الفلسفية التي يريدها. ولا أحد يستطيع أن يعاقبه على التعبير عن آرائه اللهم إلا إذا حاول فرضها عن طريق القوة والعنف على الآخرين. لا يوجد سجناء رأي في المجتمعات الحرة الديمقراطية التي تطبق التسامح بالمعنى الحديث للكلمة، ولا يسجن أحد بسبب معتقداته الدينية أو السياسية أو الفلسفية) [(9)].

والتيار الرئيسي المرن يشمل اتجاهات أو تيارات فرعية متعددة قديمة وحديثة، وأحزاب ودعاة لهم تلاميذهم ونشاطاتهم. وهو ألطف في التعامل من الأصولية المتشددة، والمرونة هنا ذات دلالة واسعة بدرجاتها في قراءة النصوص والانفتاح على الإنسانية والآخرين وليست نوعية.

وما يجمع بين الاتجاهات كلها في هذا التيار هو الاعتقاد بأن التخلف والانحطاط هو نتيجة الابتعاد عن الدين، والحل لا يكون إلا بالعودة إلى الدين والأصول مع مرونة اجتهادية تأخذ في الحسبان تغير الزمان والمكان.

ومن هذه التيارات الفرعية التيار الشيعي الأصولي [10]، فهو منفتح على الجميع، ولكن رؤيته حولها اختلاف بما يتعلق بالنصوص الدينية وقراءتها، وحدود القراءة والاجتهاد، وكيفية التعامل مع النظم الوضعية والتعددية.

وهناك جماعة الأحمدية والبهائية اللتين جاءت إشارة لهما في "المرحلة الأولى من النهوض"، وقد ازداد امتدادهما في العالم العربي وغيره، ولهما أنشطتهما الكثيرة، وهناك أيضاً الأحباش، وعلى صعيد الأفراد هناك كثر منهم خالد محمد خالد ومحمد عمارة..

- **الأحمدية** [11]: الأحمدية أو القاديانية تطرح نفسها على أنها: (جماعة إسلامية تجديدية عالمية)، (قوة روحانية دينية تدافع عن الدين الحنيف، من خلال حرب روحانية سلاحها الحجة والدليل والمنطق المؤسَّس على التعاليم القرآنية والمعارف الدينية والآيات السماوية، لا العنف وإراقة الدماء..).

فهي تنبذ العنف بكل أشكاله وترى الحرية الكاملة في الانتماء إلى الدين أو الخروج منه بناء على الآية القرآنية "لا إكراه في الدين"..

وهي ترفض الحديث النبوي إن كان يتعارض مع القرآن والمنطق وإن كان صحيح السند. كما ترفض الكثير من التراث الإسلامي غير المستند إلى الأصول والعقل. ومن أمثلة ذلك قضية (الناسخ والمنسوخ)، فلا تؤمن بوجود آيات تنسخ أخرى لأن ذلك ينفي المطلق عن كلام الله، وهي ترى أن من يقول شيئاً ثم يتراجع عنه هو الإنسان المعرض للخطأ والصواب ولا يمكن أن يصدر ذلك عن الله، ما دام عالماً بالغيب!

وقضية الناسخ والمنسوخ رفضها كثيرون غير الأحمدية مثل محمد أركون حيث قال: (ينعتون بالمنسوخة تلك الآيات التي تتضمن أحكاماً لا تناسب مواقعهم ومصالحهم، وأما الناسخة فهي التي تمشي في خط اتجاههم) [12]، ويشرح ثلاثة معان للنسخ يهمنا الثالث منها حيث يقول: (وأما المعنى الثالث لكلمة النسخ، والذي يعني استبدال نص بنص أو نص لاحق بنص سابق، فهو ناتج من مناقشات الأصوليين الذين وجدوا أنفسهم في مواجهة نصوص متناقضة. وبالتالي فقد اضطروا لاختيار النص الذي يتناسب

أكثر مع التوفيق وتحقيق الانسجام بين الأحكام الشرعية التي كانت قد حظيت بتثبيت الفقهاء الأوائل) [13].

- **البهائية** [14]: ترى أن الحقائق الدينيّة نسبيّة وليست مطلقة. وأن فكرها لهذا العصر وليس لكل العصور ففي كل عصر يتجدد الدين. وترى ضرورة توافق العلم والدّين كما تقول: (طالما تعاون العلم والدّين في خلق الحضارات وحلّ ما أشكل من معضلات الحياة. فالدّين هو المصدر الأساسيّ للأخلاق والفضائل وكلّ ما يعين الإنسان في سعيه إلى الكمال الروحانيّ، بينما يسمح العلم للإنسان أن يلج أسرار الطبيعة ويهديه إلى كيفيّة الاستفادة من قوانينها في النهوض بمقوّمات حياته وتحسين ظروفها. فبهما معاً تجتمع للإنسان وسائل الراحة والرخاء والرقي مادياً وروحانياً). (إن مال الإنسان إلى الدين دون العلم، سيطرت على فكره الشعوذة والخرافات، وإن نحا إلى العلم دون الدين، سيطرت على عقله الماديّة، وضعف منه الضمير. واختلافهما في الوقت الحاضر هو أحد الأسباب الرئيسيّة للاضطراب في المجتمع الإنسانيّ، وهو اختلاف مرجعه انطلاق التفكير العلميّ حرّاً، مع بقاء التفكير الدينيّ في أغلال الجمود والتقليد).

وقد رفضت التعصب: (التعصب أيّاً كان جنسيّاً أو عنصريّاً أو سياسيّاً أو عرقيّاً أو مذهبيّاً). وآمنت بالمساواة في الحقوق والواجبات بين الرّجال والنّساء: (لا فرق في ذلك بين امرأة ورجل).

وترى أن الدين يقسم إلى روحانيات/ الإلهيات وهي لا تتغير، وماديات/ المعاملات وهي تتعلق بشؤون الدنيا فتتغير بحسب الزمان والمكان: (أمّا القسم المتعلّق بالرّوحانيّات والإلهيّات فإنّه لم يتغيّر، ولم يتبدّل، وعليه بُعث جميع الأنبياء الّذين أسّسوا فضائل الإنسان.. أمّا القسم الثّاني من الدين، فإنّه يتغيّر ويتبدّل بمقتضى الزمان والمكان.. أساس دين الله، هو الأخلاق، وإشراق نور المعرفة، والفضائل الإنسانيّة..).

- **الأحباش** [15]: أباح عبد الله الحبشي الربا ورأى أن العملة الورقية لا زكاة فيها فالزكاة على الذهب والفضة. وأفتى بجواز اختلاط الرجال والنساء

والمصافحة بينهما، وأجاز سفور المرأة والتعطر وإن لم يوافق زوجها لأن ذلك يتعلق بحريتها الشخصية.

- **د. محمد عمارة**: يمثل (الوسطية الإسلامية) ووسطيته تحاول التوفيق/ التوازن بين النقل والعقل، وبين فقه الأحكام وفقه الواقع.. وهو يرى أن التاريخ العربي الإسلامي توازن بين العقل والنقل، بين الدين والدنيا، عالم الغيب وعالم الشهادة، النفس والبدن، الفرد والمجموع، العمل الذهني والعمل اليدوي..

وتبنى القومية العربية بثقافتها العربية الإسلامية [16].

***

وبعض التيارات المرنة تمارس السياسة ضمن إطار الديموقراطية كحزب الله وحماس.. وبعضها ترفض العمل السياسي وتنظر إلى الدين كعبادة وأخلاق ومعاملة فقط كالأحمدية والبهائية. وبعضها مرت بمراحل العنف ولكنها غيرت تكتيكها ومالت إلى التساهل لأنها وجدته أفضل من العنف من خلال تجاربها المريرة، وآمنت باستحالة إقامة نظام إسلامي بالقوة قبل صنع المجتمع الإسلامي، فبدأت تعمل على بناء المجتمع الإسلامي بالطرق السلمية في الدعوة متخذة المساجد مقرات للقاء والاجتماع، ووظفت الخدمات الاجتماعية المتنوعة والأنشطة الثقافية لجذب الناس إليها.

وهي تعتمد على أربع نقاط أساسية في دعوتها كما ورد عند أحد الأحزاب: 1- توسيع إطار الدعوة في الشارع الإسلامي لخلق القاعدة الدينية الجماهيرية كما بدأها الرسول في مكة، 2- استخدام وسائل الدعاية والنشر، 3- خلق مصداقية في الشارع من خلال ربط النظرية بالممارسة، 4- دخول معترك الحياة السياسية وقبول الحياة الديموقراطية والتعددية..

وعندما تأتي الانتخابات العامة يكون لها الحضور والفوز فتتابع برامجها الإصلاحية والوطنية والقضاء على الفساد وتحقيق الأمن والعدل وسيادة القانون.. إلى أن يحين الوقت المناسب لطرح برنامجها الديني.

- **الإخوان المسلمون**: حركة أصولية سلفية عملت منذ بداياتها في السياسة والدعوة والحياة البرلمانية. وقد انتقلت من العنف والأحادية (الإسلام دين ودولة) واتهام كل من يرفض ذلك بأنه في جاهلية كما قال سيد قطب ومحمد قطب (جاهلية القرن العشرين)، إلى الليونة في العمل السياسي والديموقراطية والتعددية ورفض التكفير. وهي في ذلك تختلف عن التيار الوهابي، إضافة إلى خلافات أخرى تتعلق بالقضايا الاجتهادية والموقف من المذاهب الفقهية والتصوف المرفوضين عند الوهابية..

ومرونة الحركة تكمن بموازنتها مع الأصوليين السلفيين المتشددين، فهي تقع في الوسط بينهم وبين التيار المرن.

جاء في أدبيات الحركة في مصر ما يوضح تدرج برنامج عملها: (الإسلام هو الحل لكل ما تعانيه الأمة من مشكلات سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو أخلاقية..)، وطريقها يبدأ من: (إصلاح الفرد المسلم، ثم الأسرة المسلمة، ثم الشعب المسلم، ثم الحكومة المسلمة التي تتولى تطبيق شرع الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

ولها موقف مرن في التعاون مع المسيحيين، وألغت مفهوم (أهل الجزية) وقالت المسيحي لا يدفع الجزية ويذهب إلى الجيش لخدمة العلم كالمسلم..

والحركة في مصر وغيرها من الدول العربية رفضت المشروع الأمريكي الصهيوني والتعامل مع الأمريكيين وأدانت العدوان الصهيوني على لبنان والشعب اللبناني ودعمت المقاومة ووقفت إلى جانب حزب الله.. وقد تجاوزت الطائفية وتكفير غير السنة ولا سيما في مصر عندما رفعت في الأزهر والقاهرة صور الزعيم حسن نصر الله.

ومن أفكار جماعة الإخوان المسلمين في الأردن التي وردت في أحد بياناتها الانتخابية: (توفير الحريات العامة من واجب الدولة، فعليها أن تضمن حرية العبادة والعقيدة لكل مواطن، وكذلك الحرية السياسية والحرية العلمية وحرية الرأي وحرية الصحافة وحرية التنقل والسفر، وحق الإنسان في العمل، وحقه في الأمن والحماية من الحبس التعسفي)، (التأكيد

على حق كل مواطن ومواطنة في حرية العقيدة والفكر وإبداء الرأي، وعدم مصادرة هذا الحق تحت غطاء القوانين الاستثنائية والأحكام العرفية أو قوانين الطوارئ، والمطالبة بإلغاء جميع القوانين والتعليمات التي تتعارض مع حق المواطن في حرية العقيدة والفكر وإبداء الرأي وغير ذلك من الحريات). (العمل على منع اعتقال المواطن أو حبسه ظلماً، وأن المتهم بريء حتى تثبت إدانته، وممارسة ذلك في الأجهزة المختصة قولاً وعملاً).

(تنقية البرامج الإذاعية والتلفزيونية من جميع البرامج الفاسدة والأغاني الساقطة المائعة، والرقص المحرم، والتشدد في منع عرض الأفلام الأجنبية وخاصة الأمريكية منها التي تروج للعنف الوحشي وتمجده، أو تروج للفاحشة والانحلال)، (منع نشر الصور الخليعة، أو إعلانات الرقص الفاجر).

ونشير هنا إلى أن (جبهة العمل الإسلامي) وهي امتداد للإخوان المسلمين في الأردن، قد عينت مسيحياً لرئاسة فرعها في عمان، ولا يهم هنا كونه قد اعتذر عن ذلك، فالمهم هنا فكرة المرونة الديموقراطية في قبول شخص من دين آخر ليعمل في صفوف حزب إسلامي، وهذا يعود إلى أيام حسن البنا الذي فتح المجال لانضمام المسيحيين إلى صفوف حركة الإخوان.

إن حركة الإخوان المسلمين أقوى الحركات الإسلامية السنية ولكنها لا تهتم كثيراً بتحديث الدين وهمها الأساسي العمل السياسي والدعوة، وقد استفادت من الديموقراطية ودخلت الحياة البرلمانية في كل دولة يسمح نظامها بذلك. وهي لها امتدادها وتأثيرها في العالم العربي [17] والعالم الإسلامي [18]. ولكن هناك تفاوت بين فروعها في الأقطار العربية، وقد حدثت فيها انشقاقات وكذلك في الفروع [19] ومن الحركات التي انشقت عنها:

- **حزب التحرير** [20]: يولي المعرفة والثقافة أهمية كبرى، والعقل عنده قبل النقل. وهو مؤمن بإقامة النظام الإسلامي في البلاد العربية أولاً ثم إعلان الخلافة الإسلامية، لذلك يهتم بالعمل السياسي للوصول إلى

السلطة. ويرى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين الناس لا يكون إلا عندما يقام النظام الإسلامي.

وله اجتهادات أثارت السلفيين المحافظين مثل رفضه عذاب القبر وقضية المسيح الدجال، وإيمانه بأن الإسلام دعا إلى الوحدة السياسية ولم يدع إلى الوحدة الفكرية بين المسلمين. وهو يقبل انتماء غير المسلم إلى الحزب، ويقبل المرأة المسلمة في كل أجهزته، ولا مانع عنده أن يكون الحاكم كافراً.

ومن أطروحات الحزب أيضاً: (السعي الدائم لتحقيق الوحدة العربية الشاملة آخذين بمبدأ التوعية والتدرج..).

(تحقيق مبدأ الحرية المسؤولة للجميع، وترسيخ أركان الشورى، والممارسة الديموقراطية، وضمان التعددية السياسية)، (ضمان حرية الرأي والتعبير لكافة المواطنين)، (تعميق الوحدة بين أفراد الشعب لحماية الوطن وضمان استقراره ومحاربة النزعات العرقية، والاقليمية، والقبلية والطائفية، التي تهدد الوحدة).

(احترام كيان المرأة وحقوقها المشروعة، ودورها في تطوير المجتمع، في إطار الفضائل الإسلامية، وإفساح المجال أمامها للمشاركة في الحياة العامة، وإتاحة الفرص لبروز القيادات النسائية في العمل السياسي)،

ولا مانع عنده من مصافحة المرأة الأجنبية وتقبيلها كأن تكون قادمة من سفر..

***

وهناك حركات إسلامية جديدة مثل:

- (**تنظيم التجديد الإسلامي**) تأسس عام 2004، وهو تنظيم سعودي ديني سياسي ضد السلطة الحاكمة، ويهتم بالتجديد ولا سيما في الجانب السياسي والاقتصادي. وقد دعا إلى: (تنقية الفكر الإسلامي المعاصر مما علق به من الشبهات والانحرافات، لا سيما في أرض الحرمين، التي تم مسخ الإسلام فيها إلى طاعة عمياء عرجاء للحاكم

حتى لو بدل الشرائع، وتحالف مع المشركين وقاتل، بل وقتل، تحت رايتهم المسلمين..)..

ومنهجه قائم على (الشورى)، و(دعم حرية الفكر والإبداع، ونبذ ممارسة الإرهاب الفكري، وفتح أبواب الاجتهاد والإبداع والاختراع والتطوير..). والناس: (جميعهم سواسية، وأصلهم واحد، ومن هنا وجب التعارف والتعاون والتكافل بين جميع الجماعات البشرية تعاوناً يقوم على الحق والعدل دون ما تمييز على أساس الدين أو الجنس أو العرق أو النسب أو اللون أو التابعية).

ونظرته للمرأة: (النساء شقائق الرجال. والمرأة مساوية للرجل في الإنسانية والكرامة). (وهي مساوية للرجل في كافة الحقوق والالتزامات، متمتعة بكافة المزايا والصلاحيات، لا فرق بينها وبين الرجال إلا ما جاء نص صحيح ثابت من الكتاب والسنة، قطعي الدلالة بخلاف ذلك، أي بتمييز أحد الجنسين عن الآخر، وذلك فقط في حدود ما أمر به النص الشرعي من غير أقيسة فاسدة، أو خيالات مريضة شاطحة، أو إسقاطات نفسية متشنجة. فللمرأة كافة الحقوق السياسية في ظل الالتزام بقيم الإسلام وآدابه، كالرجل سواء بسواء، ولها الحق في ممارسة دورها في خدمة المجتمع، ولها ممارسة الزراعة والتجارة والصناعة، وتنمية أموالها بنفسها، وكافة المهن المشروعة).

- (**حزب الاتحاد من أجل الحرية**) [21]: وهو حزب مصري يدعو برنامجه إلى الديموقراطية والتعددية والتداول السلمي للسلطة، وضرورة مراقبة الدولة للقطاع الخاص وعدم تركه يسرح كما يشاء. وقد انضم إليه مسيحيون "أقباط" رجالاً ونساء..

وفي بيانه التأسيسي هاجم سلطة الدولة القائمة على الجهاز الأمني: (فالاعتماد الكلي على الجهاز الأمني في كل المواقف يمثل تراجعاً وردة وانهياراً وتخلفاً عن مسار الديمقراطية، ولا يخلق حالة من الانفراج السياسي المنظم البعيد عن القهر والتضييق، وهذه هي أولى خطوات الوصول لمجتمع الحرية حيث المعايير الوطنية الواضحة التي يلتزم بها كل

مواطن، بحيث تكون المواطنة هي المعيار الحقيقي والأساسي للتمايز بين أفراد المجتمع في مشاركتهم وصناعتهم القرار الوطني).. (باعتبار الشرعية السياسية أولى الأولويات، وهي المدخل الطبيعي الذي ينبغي البدء به، فالشرعية هي الطريق إلى تطبيق عالمية الإسلام بمعنى أن إقامة حكم ديمقراطي يحترم إرادة الأمة وحرية الفرد هو السبيل إلى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، بل هو أهم جزء من هذا التطبيق في أخطر مناحي الحياة وأكثرها إثارة للخلاف، لذا ونحن نؤكد هذه الأبعاد فإننا نعلن انطلاق مرجعية الحزب من قاعدة فكرية تعتمد على الشرعية السياسية قبل كل شيء عداها).. (إن الإصلاح الديمقراطي يتطلب نظاماً انتخابياً يسمح بالاختيار الحر المباشر دون تزوير أو التفاف على إرادة الناخبين التي تمثل حجر الزاوية في اختيارهم للنظام الذي يريدون، وإن هذه الانتخابات لا بد أن تسري كإجراء طبيعي يسري على سائر الوظائف المصيرية في مقدرات الشعب، وأن تبدأ من رئيس الجمهورية ونائبه والمحافظين حتى رؤساء المدن والقرى مروراً بعمداء الكليات ورؤساء الجامعات وشيخ الأزهر والمجالس التشريعية والمحلية).. (الإيمان بالتعددية السياسية ومفهوم تبادل السلطة، والدفع باتجاه إفساح المجال لخلق تكتلات وتجمعات سياسية، للوصول إلى أوسع قاعدة من التمثيل للأطياف السياسية العاملة. والتأكيد على أن المجتمع الحر ليس فئات أو طوائف ضيقة متنازعة وإنما هو "كلّ" يهدف إلى التناغم في الأداء المجتمعي من شباب هم روح العملية الديمقراطية وأقباط هم شركاء هذا الوطن ومستقبله والمرأة باعتبارها المركز الباعث لأي تطور وارتقاء).. (لا بد من إصلاح البنية التشريعية لنمو المجتمع المدني والقيام بدوره من أحزاب ونقابات وجمعيات أهلية وصولاً لمجتمع الديمقراطية).. (فتح نوافذ الحرية وتشجيع جميع المواطنين للمشاركة السياسية الفاعلة، وإزالة أسباب الإحباط والقهر لدى أي قطاع أو فئة من المجتمع، من خلال توفير جو من الأمان والثقة).. (إبعاد الأجهزة الأمنية عن التدخل في صميم الحياة السياسية للوطن والدولة والمجتمع فهي لحماية هذا الثالوث لا للاعتداء

عليه، خاصة أن المواطن الذي يؤمن بالدستور والقانون هو صاحب حق مشروع لا يجوز على الإطلاق أن تتم عرقلة حركته تحت أي مبرر كان، ولا تجوز مساءلة المواطن عن أي عمل ليس فيه خرق للدستور والقانون).. (ضرورة الإلغاء الفوري لحالة الطوارئ وجميع القوانين الاستثنائية وحصر المحاكمات العسكرية على العسكريين وحسرها عن المدنيين، وأن يمثل المواطن أمام قاضيه الطبيعي دون استبدال قانون جديد للإرهاب بها يكرس حالة الطوارئ ويجعل من أحكام الطوارئ نصوصاً قانونية دائمة وشرعية)..

***

3- **التيار الديني الثوري**:

تميزت هذه المرحلة بظهور حركات دينية شعبية تنتمي إلى التيار الأصولي السلفي المرن، قادت مقاومة المشاريع الأمريكية والصهيونية في المنطقة في كل من لبنان وفلسطين ثم العراق.. والحركات الدينية الثورية المرنة في العراق أخذت طابع مقاومة الاحتلال الأمريكي، أما موقفها بعد التحرير والتحديث، فهو لا يختلف عن بقية الحركات الدينية الأخرى ما بين تشدد وليونة في فهم الظروف الموضوعية والحياة الديموقراطية.. وإلى جانب تلك الحركات المرنة في العراق هناك تيارات أصولية متشددة كتنظيم القاعدة في الرافدين وهو امتداد للقاعدة بكل مفاهيمها المتشددة والتكفيرية..

وسنتناول الحركات الدينية الثورية الأساسية في لبنان وفلسطين (حزب الله وحماس والجهاد الإسلامي) في بحث مستقل.

***

ب- التيار الديني التحديثي:

هذا التيار أكثر تحرراً من التيار المرن وإن التقاه في بعض رؤاه كقضية الحرية والتعددية والديموقراطية ورفض مفهوم الردة وإدانة التكفير والقتل والتهديد، والعلاقة مع ابن الوطن المسيحي..

وقد رفض هذا التيار الأصولية المتشددة بكل أنواعها، ورأى بأنها تمثل رأيها الخاص لعدة أسباب:

1- المذاهب والفرق والحركات والأحزاب العربية الإسلامية وغير الإسلامية، كلها لها رؤى مختلفة ولها جمهورها وأنصارها وتمتلك منطقها الخاص ولا تمييز بينها.

2- لا توجد فرقة تمثل الإسلام وحدها فهناك طوائف متعددة: السنة والشيعة والزيدية والإباضية والعلوية والإسماعيلية والدرزية.. وهو يرفض النظر للآخرين من خلال الأكثرية الإسلامية "السنية أو الشيعية" مقابل الأقلية من الأديان والمذاهب والطوائف الأخرى. ويرى أن ما حفظه التاريخ والتراث من الآلام والمآسي لا يقبل تكراره أي إنسان عاقل قيمي، فقد انتهت عهود الاستعلاء على غير المسلمين أو على الفرق الإسلامية الأخرى الأقلية وإذلالها!

3- الأصولية المتشددة السنية لا تمثل رأي كل أهل السنة.

4- انتهى عصر الرؤية الأحادية التي تدعي امتلاك الحقيقة وقوة الحق الإلهي، وهي لم تجد تاريخياً ولن تجدي الآن. ومثل ذاك التفكير كمثل أي حزب شمولي ديكتاتوري يرى نفسه عبقري زمانه والوصي الوحيد فلا يقبل بالآخر وبالشراكة!

5- لم يعد مقبولاً في هذا العصر تحديد العلاقة مع الآخرين من خلال الإيمان والكفر، وإنما من خلال موقفهم من الأمة العربية وقضاياها ومصداقيتهم وإخلاصهم، وكذلك قضايا الحرية والديموقراطية وتأمين حياة الإنسان الكريمة..

6- المسيحيون أبناء الوطن وشركاء المسلمين في قضاياه الوطنية والقومية على قدم المساواة.

7- المرأة نصف المجتمع، وهي ليست سلعة أو جارية، ولها حقوق الرجل وحريتها وكرامتها..

وهذا التيار يتقاطع في كثير من القضايا مع التيار التراثي العلماني، فكلاهما تبنى العقلانية عقلانية المعتزلة وابن رشد وأعطيا العقل والعلم الأولوية على النقل، وطرحا أفكاراً جريئة تمس المحظورات التابوية [22]، وهما يمثلان رؤى يسارية [23] في تحديث الدين!

رأى التيار الديني التحديثي أن الدين يحتاج إلى تحديث حقيقي، وأن منهجية الإسلاميين السابقة في دفاعها عن الدين أساءت إلى نفسها وإلى الدين، فالتكفير لا يحل الإشكالية وكذلك سب الخصوم وشتمهم أو اتهامهم بالتأثر بالمستشرقين والاستعمار وأعداء الإسلام، أو استصغارهم ونعتهم بالجهل وعدم المعرفة لكونهم لم يقبلوا التسليم بصحة ما يطرحونه، فكل ذلك لم يعد مجدياً أمام الثقافة والإطلاع الواسعين عند خصومهم والتي تفوق إطلاع المفكر الإسلامي نفسه وتحرجه، فغيروا من مناهجهم وتسلحوا بالثقافة الواسعة، ولم يعبأ معظمهم بآراء الفقهاء والشيوخ التقليديين والتيار السلفي التقليدي، وصاروا يطرحون مفاهيمهم بالنقاش الهادئ والالتزام بأدب الحوار واللجوء إلى العقلانية قدر استطاعتهم.

وتلك الثقافة المتنوعة أفادتهم في كثير من القضايا ولكنها لم تنفعهم في بعضها الآخر، لأن جوهر الدين قائم على الإيمان/ التسليم المبني على مصداقية النقل، وهذه القضية غير قابلة للإقناع العقلي لمن يرفض مبدأ التسليم بالغيبيات ويصر على إخضاعها للعقل والمناقشة.

وفي هذا التيار اتجاهان:

1- اتجاه يرفض أن يكون القياس والإجماع من مصادر التشريع الأربعة: القرآن والسنة والقياس والإجماع، لأنهما يمثلان رؤية بشرية للنص الديني "القرآن والسنة" مرتبطة بزمن محدد فهي ليست مطلقة وليست مقدسة لتكون بمستوى النص.

ويشترط في الحديث حتى يكون مصدراً ألا يتناقض مع القرآن ولا مع العقل والذوق فإن تناقض لا يقبل حتى وإن كان صحيح السند، فالدراية أهم من السند مثل حديث وقوع الذبابة في سائل أو حديث رضاعة الكبير أو شرب بول الإبل..

كما رفض هذا الاتجاه سلطة الفقهاء والاجتهادات المعاصرة وإن نالت الإجماع لأنه لا يجوز أن يصير الإجماع البشري بمستوى إلزامية النص!

والجدير بالذكر أن جماعة التكفير والهجرة الأصولية المتشددة رفضت أيضاً الإجماع والقياس، والمذاهب الفقهية.

2- اتجاه يرفض السنة إضافة إلى القياس والإجماع أن تكون من مصادر التشريع، ولا يقبل غير القرآن. ويعد السنة رؤية زمنية للنص القرآني، فهي ليست مطلقة.

والاتجاهان متفقان على رفض القراءة التراثية للنص القرآني فهي ليست مطلقة وليست نموذجاً أبدياً. ويجب أن يقرأ القرآن من جديد وفق معطيات المنهج العلمي والعصر.

ويشجع التيار أن تكون لكل إنسان قراءته الخاصة به وغير الملزمة لأحد، لكن يشترط أن يمتلك القارئ القدرة على القراءة التأويلية والغوص في عمق النص وجذوره وهذا يعني أن يكون من نخبة ثقافية محددة ومستقلة، فمن لم يستطع ذلك يتبنى القراءة التي يرتاح إليها.

وقد رفض هذا التيار فرض الدين بالقوة وألغى مفهوم الردة الفقهي وقال بأنه لا يمكن أن يفرض الدين على إنسان لا يريد أن يكون مسلماً، فالدين مفتوح لمن يختاره عن قناعة وليس السيف، ومفتوح أيضاً لمن يخرج منه، والإسلام لا يضيره خروج أحد منه، بل هو ليس بحاجة إلى إكثار العدد غير المجدي. وهو يرفض أن تكون آية (لا إكراه في الدين) قد نسخت بآية السيف في سورة "التوبة" المدنية. ويقول إن الآيات الثلاث في سورة المائدة "44، 45، 47" "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون" / .. هم الظالمون/ .. هم الفاسقون، تتعلق بأهل الكتاب كما هو واضح في سياقها. ولا يمكن أن يكون الإسلام أقل شأناً من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر في كانون الأول عام 1948 حيث يقول في المادة 18: (لكل شخص الحق في حرية التفكير والضمير والدين، ويشمل هذا الحق حرية تغيير ديانته أو عقيدته، وحرية الإعراب عنهما بالتعليم والممارسة وإقامة الشعائر ومراعاتها سواء أكان ذلك سراً أم مع الجماعة).

كما ناقش الأمر من جانب آخر وهو أن المسلم يولد مسلماً كما هو شأن المسيحي، ووراثة الدين الجبرية لا تعبر عن القناعة فكيف يفرض الانتماء

وديمومته، والقناعة تكون عندما يبلغ الإنسان سن الرشد والإدراك والمعرفة فإن اختار الإسلام فهو حر، وعندها يمكن أن يعد مسلماً مسؤولاً، ولكن لا يحاسب إن تغير وترك الإسلام مرة أخرى لأنه كما دخل بإرادته له الحرية في الخروج بإرادته.

وقد انتقد الذين يفرقون بين الإيمان والدين مثل الآية: (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)، والآية: (لا إكراه في الدين)، بادعاء أن الدين هو الشرع والشرع في القانون عقد ملزم. فقال العقد هو صفقة بين طرفين على قضية مادية، أما الدين فليس بعقد بشري، بل هو إيمان بين الإنسان وربه والتزام بالعقيدة والشريعة كنتيجة لذاك الإيمان، ويجب احترام فكر الإنسان وانتمائه وتغيير الانتماء لأن الفكر الإنساني ليس سكونياً إلى الأبد حيث يمكن أن يغير الإنسان مفاهيمه باستمرار بغض النظر عن الدوافع إن كانت تتعلق بثقافته وفكره أو مصالحه فهذا حقه وهو حر ولا يصح الحجر عليه وتهديده بحد الردة. فما الردة إلا سلاح سيئ يستقوي به ضعفاء الفكر والمنطق والثقافة والأخلاق لفرض آرائهم على الآخرين!

وفي هذا التيار الواسع هناك آراء متعددة في كثير من القضايا اعتمدت على العقل نذكر بعضها:

إن الرسالة الإلهية انتهت مع تمام القرآن فالآية 3 من سورة المائدة تقول: (اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً)، فمعنى ذلك أن الرسالة اكتملت أي التشريع والأحكام والفرائض والحلال والحرام، وهناك آيات أخرى تؤكد على ذلك، منها الآية 38 من سورة الأنعام: (ما فرطنا في الكتاب من شيء)، وأيضاً الآية 111 من سورة يوسف: (وتفصيل كل شيء). ولكن الحياة واسعة مما يعني أن القرآن أعطى تصوره العام فقط وترك الباب مفتوحاً للتشريع، فكل تشريع لم يرد في القرآن هو تشريع بشري مقبول إن كان عادلاً، ولا داعي لتلفيق إلصاق الاجتهاد أو التأويل عليه.

والقرآن الكريم رسالة دينية واضحة لا غموض فيها جوهرها قضية روحية مطلقة تشبع حاجة المؤمن، لذلك لم يتدخل في شؤون الحياة ونظمها ولم

ينظّر للحياة السياسية ولا الاجتماعية ولا الاقتصادية والحقوقية، وما ورد في ذلك نسبته قليلة وقد وردت بصيغ عامة ويمكن فهمها بأشكال متعددة، وما فصّلته بعض الشيء مقيد بحدود زمانية ومكانية.

والتوجيهات الإنسانية أخلاقية كإنصاف الفقراء لحل مشكلتهم وليس ذلك منة عليهم لأن في أموال الأغنياء والدولة حقاً للسائل والمحروم، فعد المجتمع ولا سيما الأغنياء مسؤولاً عن الفقراء وذاك هو التكافل الاجتماعي.

والنبي قد يخطئ ويصيب بما يتعلق بشؤون الحياة الدنيوية كحديث تأبير النخل: (ما كان من أمر دنياكم فأنتم أعلم بأمر دنياكم)، وبناء على الحديث يجب أن ينظر للتشريعات الدنيوية كلها، فالأنبياء ليسوا معصومين عن الخطأ.

والإسلام لم يتدخل في كل شيء ولم يدعُ لتغيير كل شيء، ويعطي صاحب الرأي أمثلة كلباس الرجل والمرأة المنسوبين للإسلام فكلاهما زي كان موجوداً قبل الإسلام ولكن القرآن طالب المرأة بالحشمة والوقار بالنسبة لما هو موجود، فالشكل قابل للتغيير بينما المضمون ثابت وهو غض البصر والحشمة والوقار ولباس التقوى خير..

وقضية الحجاب [24] التي شغلت المسلمين منذ المرحلة الأولى من النهوض، استمرت في هذه المرحلة حيث رفض مفكرون إسلاميون كثر الحجاب. وقد ذكرت إقبال بركة أن آية الحجاب تتعلق بنساء النبي و(لا علاقة لها باللباس أو الثياب، بل هي خاصة بآداب زيارة المسلمين بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، ومراسم مخاطبتهم لزوجاته داخل البيت، إذا اقتضت الضرورة، فيتم ذلك من وراء حجاب، أي ساتر، أو ستار، يخفي شخوصهن..) [25].

وتنقل الباحثة من كتاب (حقيقة الحجاب وحجية الحديث) لمحمد سعيد العشماوي بأن في الفقه: (الحكم يدور مع العلة وجوداً وعدماً، فإن وجد الحكم وجدت العلة، وإذا انتفت العلة انتفى "أي رفع" الحكم"، وبما أن علة

التمييز بين الحرائر والإماء لم تعد موجودة في عصرنا ولا تخرج النساء للخلاء "فلا يكون واجب التطبيق شرعاً") [26].

وذكر آخرون أنه وردت في الحجاب أخبار عدة منها ما جاء في الصحيحين وغيرهما: (أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع وهو صعيد أفيح فكان عمر يقول للنبي صلى الله عليه وسلم احجب نساءك فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ليلة من الليالي عشاء وكانت امرأة طويلة فناداها عمر ألا قد عرفناك يا سودة حرصاً على أن ينزل الحجاب فأنزل الله آية الحجاب).

فالحل لمشكلة خروج المرأة للخلاء ليلاً تم بفرض لباس يميزها عن الأمة حتى لا تتعرض لأذى السفلة، بينما كان من المفترض ملاحقة السفلة!

وقد انتقد رافضو الحجاب من هذا التيار منطق الذين يبررون الحجاب لحماية الرجل من الفتنة بالقول: بناء على ذلك يجب إلغاء الحجاب عن المرأة البشعة التي لا تثير فتنة بجمالها ومظهرها، وبالمقابل يفرض الحجاب أيضاً على الرجل الوسيم إن كان مظهره يفتن النساء لإحقاق العدل في موضوع الفتنة فهو مشترك، لأن النساء بشر ولسن حجارة لا يفتن!

وقد أفتى بعض هذا التيار بجواز إمامة المرأة في الصلاة وأن تكون حاكمة ورئيسة، وأن المرأة العالمة تساوي أربعة رجال جاهلين، وقبل بالاختلاط ومصافحة النساء. ورأى أن أي زواج مبني على شرط زمني يتم بعده الطلاق أو سرية العلاقة وعدم جهرها هو زنا وتلاعب على الشريعة كزواج المتعة والمسيار والعرفي.. ورفض مفهوم الفقه الإسلامي الذي يذكر بأن الزوجة ليست ملزمة برعاية البيت كالطهو والتنظيف حتى وليست ملزمة بإرضاع طفلها فمهرها "أجرها" مقابل الفراش فقط. وقال بأن الزواج تفاهم وقناعات ومشاركة وتعاون على بناء أسرة وليس صفقة تجارية من أجل الجنس!

وطالب بأن يخضع الزواج لقوانين عادلة تنصف الرجل والمرأة معاً، وهو أمر يخص الدولة ولا تكون شخصية خاصة بالرجل والمرأة وحدهما وبحسب الانتماء الديني الذي قد يظلم أحد الطرفين، فقد تكون المرأة مضطهدة وقد يكون الرجل. وفي القانون المدني توضع القواعد التي تحدد سن الزواج وفارق العمر بين الزوجين وواجبات الرجل والمرأة وحقوقهما لتضمن العدالة للطرفين في الزواج وفي الانفصال ولكل أبناء الوطن.

والطلاق ليس لعبة بيد الرجل أو المرأة وليس سيفاً يهدد به أحد الزوجين الطرف الآخر. والمهر لم يعد هو الضمان لمستقبل المرأة، ولا سيما إن كان هناك أولاد، فتخلي أحد الزوجين عن الارتباط لا يعفيه من واجباته تجاه الطرف الآخر والأولاد.

ويجب تحديد الطلاق بالضرورة القصوى ومنها أن تصل حياة الزوجين إلى طريق مسدودة ولا حل آخر سوى الانفصال في النهاية.

وذكر آخرون من هذا التيار بأن الآيات القرآنية منها المطلق ومنها المقيد، فالمطلق عام والمقيد خاص مثل النظر إلى الإبل كيف خلقت، فلا يمكن أن تكون عامة وهي تخاطب مجتمعاً قبلياً تعيش الإبل في ظهرانيهم، ومثلها الجواب عن الأهلة بأنها مواقيت للحج.. فالمطلق يبقى مطلقاً ولا يتغير زماناً ومكاناً، فإذا ما طرأ عليه أي تغيير أو تعديل لم يعد مطلقاً.

وبما أنه لا يوجد اتفاق على الآيات القرآنية المحكمة والأخر المتشابهات، يمكن القول بأن المحكمة هي المطلقة وتتعلق بالإيمان والعقيدة، والمتشابهة هي المتغيرة ومعظمها يرتبط بأمور الدنيا وما تخلقه من إشكاليات إن لم تستلهم الروح العامة في القرآن. والناسخ والمنسوخ دليل على أن القرآن ليس كله مطلقاً، فكثير منه مرتبط بظروف محددة.

والآيات (المسبوقة بشرط هي مقيدة وليست مطلقة)، فآية حرية الاعتقاد مطلقة، بينما آية مقاتلة المخالف مقيدة بمبادرته إلى القتال أو محاولة إخراج المسلم من دياره.. والإذن بالقتال مقيد بالدفاع عن النفس والأرض واستعادة الحق..

والزواج بأربعة مقيد بالعدالة المادية والروحية، الإنفاق والحب، وليس الإنفاق فقط كما رأى الفقهاء المسلمون ليثبتوا التعدد، فلا يمكن أن تقرر الآية استحالة العدل المادي لأن الأغنياء قادرون عليه وبالتالي تكون الآية بحسب المفهوم التقليدي تشريعاً للأغنياء فقط ومنع الفقراء من التعدد لعدم قدرتهم المالية وهذا مستحيل. فالزواج بأربع مشروط بالعدل في الحب والإنفاق، لذلك تنفي الآية إمكانية تحقيق ذلك فهي تقول ولن تعدلوا وهذا صحيح فمن الذي يستطيع أن يعدل في حبه مع زوجتين أو أكثر؟ فالآية تحدد الزواج بواحدة لا غير، و(المتزوج بأكثر من واحدة يتحدى الله بأنه سيعدل في المشاعر والإنفاق وهذا تبجح وادعاء كاذب)!

ومعظم مفكري هذا التيار رفض التعدد مطلقاً وهناك كثيرون منذ بدء النهضة هاجموا تعدد الزوجات وما ملكته اليمين، ومنهم من ذكر بأنه تشريع لمتعة الرجال الأغنياء فقط، لأن الفقير بالكاد أن يتمكن من الزواج بواحدة. وتساءل كثيرون أين كرامة المرأة التي هي في هذه الحالة مجرد أداة للمتعة وليست إنسانة لها كرامتها وشراكتها الإنسانية؟

وردوا على ادعاء بعض المفكرين الإسلاميين السلفيين التقليديين بأن التعدد هو من أجل كرامة المرأة، حيث تحدث عن الخيانات الزوجية في الغرب وبأن المتزوج قد تكون له عشيقة/ خليلة في السر، وهذا امتهان لكرامتها ومكانتها لأن العاشق لا يستطيع أن يجهر بعلاقته أمام أحد، بينما التعدد يمكنه رسمياً من الزواج فتحفظ العشيقة كرامتها.

فقالوا المثال خطأ لأن العمل اللاأخلاقي ليس هو المقياس، فالعدل وما يجب أن يكون هو المقياس. والتعدد لم يشرع قديماً منعاً لانتشار الخيانة في المجتمع، ولا يقنع الآن بالرد على خيانة الغربي لزوجته، فليس التعدد إجازة لتكريس الخيانة بشكل رسمي!

وأجاز بعضهم للمسيحي أن يتزوج المسلمة أسوة بالمسلم الذي يتزوج مسيحية، من منطلق المعاملة المتساوية بين الأديان والمذاهب والطوائف على صعيد الزواج، فكما يحق للمسلم أن يتزوج مسيحية يحق للمسيحي

أن يتزوج مسلمة. وذاك يعبر عن مجتمع ديموقراطي حر يحترم فيه كل إنسان الإنسان الآخر ولا ينظر إلى دينه أو طائفته.

وانتقد الفقه الذي ثبت منع زواج المسلمة من مسيحي في زمن السيادة الإسلامية السنية. والادعاء بأن المسلم منصف وغيره ليس كذلك إنما هو ضمن النرجسية المتعالية على الآخرين، والمسلم الذي يعتقد بأن الديانة المسيحية محرفة، ويرخص لنفسه قبول كفر "إشراك" زوجته المسيحية، ليس بأفضل من المسيحي الذي يتزوج مسلمة ويتركها على دينها.

ورفضوا جميعاً أن يعامل ابن الوطن المسيحي كمواطن من الدرجة الثانية فهو له حقوق المسلم، وقد انتقدوا الكتب التراثية التي تذل المسيحيين ككتاب ابن قيم الجوزية "أحكام أهل الذمة"، وما كتبه أيضاً ابن تيمية وغيره.. وقد دعا د. حسن صعب إلى: (بعث الكرامة الإنسانية بعثاً جديداً) [27] من خلال تعاون المسلم والمسيحي والفرق كلها، كما دعا إلى: (الثورة المنشودة في العلاقات المسيحية الإسلامية) [28].

أما عن الرقيق وملكات اليمين فقد قال بعضهم إن تشريع القرآن الكريم كان لما هو موجود في الحياة، ولو لم يكن موجوداً لما تحدث عنه، وهذا دليل على أن تشريعات القرآن الدنيوية مقيدة بزمنها وترتبط بعصرها وليست مطلقة، فلا يمكن أن يخاطب القرآن الناس ضمن بيئة مشروطة بظروفها ويكون خطابه مطلقاً، فالمطلق هو التوجيهات العامة وليس الخصوصيات. والقرآن طالب بالعلاقة الإنسانية الأخلاقية المتجاوزة لمفاهيم زمنها فحض على معاملة الرقيق بالرفق كما جعل إحدى الكفارات عن الأخطاء العتق كتشجيع للعتق وليس لإلغاء الرقيق، لأن بقاءه أو إلغاءه قضية بشرية. والإسلام في ذلك كالمسيحية فكلاهما لم يلغ الرق كما هو الحال بالنسبة إلى الأديان الأخرى!

وانتقد الفقه الإسلامي لأنه عامل الرقيق دون مستوى الحر مخالفاً توجيهات القرآن الكريم، حيث ميز الفقه بين عورة الحرة والأمة، فعورة العبدة كعورة الرجل وشراؤها وبيعها مقابل عقد الزواج كما تذكر كتب الفقه

التراثية، وقد تبعتها في ذلك كتب الفقه الحديثة كما في كتاب الحاجة درية العيطة [29] التي من المفترض أن تراعي التطور وكرامة المرأة لكنها أكدت على نظام الرق المطلق ودونية العبدة!

وقال إذا كان حجاب المرأة الحرة لمنع الفتنة كما يدعي الفقهاء فكيف سمح الفقه للأمة أن تسرح وتمرح شبه عارية وقد تكون آية في الجمال، وتعاقب إن تحجبت، مستندين إلى أن الخليفة عمر بن الخطاب إذا رأى أمة اختمرت ضربها وقال: (أتتشبهين كالحرائر)!

وكذلك شرعوا بأن العبد لا تقبل شهادته وقد استمر الفقهاء المعاصرون في تكراره رغم ادعائهم التجديد، فقد ذكر د. وهبة الزحيلي: (اتفق الحنفية والمالكية والشافعية على أن الشاهد يشترط فيه أن يكون حراً فلا تقبل شهادة رقيق..) ثم ذكر رأي الحنابلة والظاهرية بقبولها، إلا أن الحنابلة قيدوها عدا الحدود والقصاص [30]!

وقد حاول المفكرون الإسلاميون تبرير عدم إلغاء الرق فجانبهم المنطق ومنهم محمد قطب الذي ادعى بأن المشكلة دولية: (وظل الإسلام مضطراً إلى عدم إلغاء الرق حتى يتفق العالم كله على تجفيف هذا المنبع الوحيد الذي يعترف به الإسلام مبرراً للرق) [31]، وادعاؤه التسويغي غير صحيح لأن العالم اتفق على إلغاء الرق ولم يعد أسرى الحرب يعاملون كرقيق بل صارت لهم مكانة وحقوق وإن كانت هناك خروق، بينما بقي الرق في العالم الإسلامي والنخاسة، وهناك دول إسلامية لم تلغه إلا في النصف الثاني من القرن العشرين (في السعودية ألغي عام 1962)، وموريتانيا لم تلغ الرق حتى الآن!

وقد استندوا في إبقائه إلى أن الرسالة الإسلامية قد تمت ولم يكن في نية الدين إلغاء الرق، ولم يلغ أسواق بيع الرقيق/ النخاسة، وما شرعه الله لا يلغيه البشر!

كما ادعى د. مصطفى محمود بأن القرآن ألغى الرق من خلال تفسيره لآية (فك رقبة) والاستنتاج: (بهذا أغلق الباب أمام مصدر الرق وعمل على

تصفية الموجود) [32]، وادعاؤه تزييف للحقيقة ولا علاقة له بمعنى الآية، والتزييف استخدمه في مواضع كثيرة كما في حديثه عن الذرة!

كما انتقد الباحث فهم المفكرين الإسلاميين المغلوط عن الحرية استناداً إلى قول الخليفة عمر بن الخطاب مخاطباً عمرو بن العاص في القصة المشهورة: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً) فقال هذا الكلام لا علاقة له بتحرير الرقيق، فهو يتحدث عن الأحرار وليس الرقيق. فلا يجوز أن يُستعبد إنسان حر، ولكن في الحرب يستعبد الحر إن أسر، والرقيق يبقى رقيقاً إلى ما شاء الله. والذي يولد رقيقاً يبقى مستعبداً لصاحبه، كما هو متعارف عليه في نظام الرق الإسلامي!

وذكر بأن تلك المغالطات والتخبطات والتزييفات نتيجة فهمهم المغلوط الذي جعل القرآن كله مطلقاً، فلما وقفوا أمام الخصوصيات كقضية الرق وقعوا في مأزق فلجأوا إلى التبرير الذي لا يقنع عاقلاً!

وذكر آخرون أن الشورى صيغة عامة تخاطب مجموعة محددة بأن تتشاور في أمورها دون أية تفصيلات عن نوعية المشاورة أو إعطائها بعداً لنظام سياسي، وما تفسير الإسلاميين لها بالديموقراطية كرأي اجتهادي إلا تزييف للحقيقة وتحميل النص أكثر مما يتحمله لأن الشورى لا تلزم الحاكم بالخضوع لها فرأيه هو الفاصل. كما أنها يمكن أن تنطبق على النظام الديموقراطي أو البرلماني الليبرالي أو الشعبي أو النظام الملكي أو الجمهوري، بل يمكن إطلاقها على مجموعة من مستشاري الحاكم، وقد يكون الحاكم ديكتاتورياً ولكن له مستشارون يستشيرهم!

ورفض مفهوم القدر الخاطئ في الفكر الإسلامي وقال بأن الله لم يقرر حياة البشر ولم يرسم مسارهم (وما القدر إلا معرفته تعالى المسبقة لما سيكون بناء على ما سيجري دون تدخل منه)، والمعرفة الإلهية المسبقة حيادية في المجريات، وهذا هو المنطق الوحيد الذي ينفي عن الله الظلم وما يحدث في الحياة البشرية من أحداث ومآسٍ وشرور وتناقضات!

وتحدث عن المآسي التي وقعت في التاريخ فقال إنما هي صراعات على السلطة وكل فريق لفق أدلته بالاستناد إلى النص القرآني المفتوح على احتمالات متعددة لأنه حمال أوجه كما قال الإمام علي بن أبي طالب.

ورفض المعايير المزدوجة الشائعة مثل إن انتصر المسلم فالله قد نصره وإن خسر فلذنب ارتكبه أو لابتلائه. وكذلك الأمر مع قضية الغنى والفقر فليس فقر الفقير المؤمن امتحاناً من الله وليس فقر الفقير الكافر عقاباً له، وبالمقابل ليس غنى الغني إن كان مؤمناً لأن الله يزيده غنى، وإن كان الغني كافراً فالله يمدد له الحبل ليزداد في غيه، كذلك الأمر في الأمراض وغيرها..

وإن حدث قحط فهو غضب من الله لارتكاب المعاصي وينسون عام الرمادة في زمن الخليفة عمر بن الخطاب، وإن هطلت الأمطار فلأن الله تجاوز غضبه من أجل البهائم والأطفال، أو نتيجة دعاء شيخ ما!

***

تلك الآراء المتعددة بقيت معبرة عن وجهة نظر أصحابها، وقد حاربها الإسلاميون السلفيون التقليديون بعنف، بل وكفرها معظمهم!

ومفكرو هذا التيار كثيرون منهم د. حسن صعب، د. حسن حنفي، محمود طه، د. حسن الترابي، جمال البنا، د. محمد شحرور.. وسنستعرض في بحث مستقل أفكار حسن صعب ومحمد شحرور، بينما سنشير هنا إلى بعض آراء محمود طه، د. حسن الترابي، جمال البنا:

- **محمود طه** [33]: فكره خليط من الصوفية والفلسفة والاشتراكية.. ونظام الدولة عنده يقوم على حكومة فيدرالية ديمقراطية اشتراكية، تطبق الشريعة الإسلامية. ودعا إلى المساواة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وإلغاء الفوارق الطبقية والتمييز القائم على العقيدة أو اللون.. وهدفه الوصول إلى مجتمع شيوعي كما كان في زمن الرسول.

ورفض أموراً كثيرة عدها ليست من الإسلام كالحجاب وتعدد الزوجات!

- **د. حسن الترابي** [34]: مؤمن بالتعددية والديموقراطية والبرلمان..

وهو يرى أنه لا مرجعية في الدين الإسلامي غير القرآن، ودعا إلى تجديد أصول الفقه وفروعه على أساس عقلي فالاجتهاد مفتوح لتجديد الدين ومن حق الجميع الاجتهاد فلا وجود لعالم أو فقيه ولا شروط للاجتهاد. ورفض عصمة الأنبياء. وهو لا يعترف بالفرق الإسلامية ويعلن بأنه مسلم وليس سنياً ولا شيعياً.. فالفرق تشكلت تاريخياً وقد نشأت نتيجة القمع ولو كانت هناك ديموقراطية لما نشأت، ويجب العودة إلى ما كان عليه الإسلام قبل تكونها..

ورفض مفهوم الردة والتكفير وأجاز للمسلم تغيير دينه كما هو الحال بالنسبة للمسيحي. ورفض عذاب القبر وقال بأنه عند الموت تصعد الروح إلى ربها والجسد يبلى ويوم القيامة تسكن الروح جسداً جديداً. ورفض الطب النبوي واستنكر أحاديث مثل حديث الذبابة إذا وقعت في سائل، كما رفض المفهوم التراثي لليلة القدر..

وللمرأة دور ريادي في رؤيته، فقد دعا إلى مساواتها في الميراث مع الرجل. وأفتى بجواز اختلاط النساء والرجال حتى في الصلاة مع إبقاء مسافة بينهما. وأجاز إمامة المرأة الرجال في الصلاة إن كانت أعلم منهم. والمرأة يمكنها أن تكون حاكمة وقائدة ورئيسة دولة.. وشهادة المرأة العالمة تعادل أربعة رجال جاهلين. والحجاب ليس المقصود منه ذلك اللباس الإسلامي الشائع وإنما الستار، وما طلب القرآن ستره هو فقط فتحة الجيب حتى لا يظهر الصدر..

ورفض رجم الزاني وقال تلك شريعة يهودية، أما في الإسلام فالجلد فقط. وأجاز زواج المسلمة من مسيحي أو يهودي، لأن آيات التحريم تتعلق بالمشركين/ الوثنيين بينما هما من أهل الكتاب وليسا كافرين. ورفض حجة فقهاء المسلمين لأنها قائمة على فكرة سطوة الرجل فالعرب يعاملون المرأة بالقهر فظنوا أن المسيحيين مثلهم في ذلك. والمسلم يحق له أن يتزوج مسيحية من منطلق أنه منصف، يحفظ حقوق امرأته المسيحية لإيمانه بالديانة المسيحية، بينما المسيحي كرجل مسؤول عن المرأة لا

يؤمن بالديانة الإسلامية، فلن يحفظ حقوق زوجته المسلمة بل سيفرض عليها ترك دينها!

- **جمال البنا**: يعد زعيم (القرآنيين) أي الذين لا يعترفون إلا بالقرآن كأساس ودونه الأحاديث إن لم تتناقض مع النص القرآني والعقل. وهو يدعو إلى تطبيق القرآن بالحكمة ويرفض التمسك الحرفي بظاهر النص حيث يمكن العدول عن النص إن لم يؤد تطبيقه إلى العدل، ويستشهد بحكمة الخليفة عمر بن الخطاب في إيقاف العمل بالنص القرآني كما في قضية المؤلفة قلوبهم وحد السرقة في عام المجاعة..

وقد رفض كل التشريعات التراثية والتفاسير والفقه.. وهو يرى في تحديثه للفقه الإسلامي أنه لا يجوز قبول الفقهاء كمشرعين للحلال والحرام/ فهذا شرك، فالله وحده من يحدد ذلك. وما لم يرد فيه أمر هو اجتهاد شخصي ولا يلزم أحداً غير المقتنع به. ومن يريد جعله ملزماً فقد جعله موازياً لشرع الله ولا يمكن أن يكون اجتهاد الفقيه موازياً لشرع الله في الحلال والحرام!

ومن جملة آرائه رفضه النزاع السني الشيعي أو السني المعتزلي. ورفض جميع فتاوى الفقهاء التي تقول بوجوب قتل المرتد، لأن الإسلام يقوم على حرية العقيدة، والقرآن لم يذكر حداً للردة، فأي حديث يتعارض مع القرآن مرفوض وإن كان صحيح السند، والحديث الذي ورد (من بدل دينه فاقتلوه) كان في فترة محددة من فترات حياة النبي في المدينة وهو ليس حداً ولكنه قرار يسمى عند الفقهاء (سياسة شرعية لأمر محدد في وقت محدد) ولا يجوز تطبيقه حالياً، لأن الأصل العام في الإسلام أنه (لا إكراه في الدين).

والعلاقة بين الحاكم والمحكوم هى علاقة تعاقدية وليست علاقة مفروضة، أي أنها تتم بإرادة حرة متبادلة بين الجانبين. ورفض استمرارية الحاكم إلى نهاية عمره، ومن حق المحكوم عزله وتغييره، أي إلغاء العقد أو إعادة النظر فيه إذا ما شعر المحكوم بعدم التزام الحاكم ببنود العقد.

ورأى جواز إمامة المرأة العالمة للرجال في الصلاة، ورفض عد صوتها عورة لأنه لا يوجد في القرآن أو السنة شيء يقول إن صوت المرأة عورة. وأن

اللباس الإسلامي القديم هو عادة وليس أمراً تعبدياً فرضه الدين، وما طلبه القرآن فقط هو ستر الصدر وإرخاء الثوب. أما الحجاب فهو خاص بنساء النبي ويرتبط بستار يحجب نساء النبي عن المسلمين عند زيارتهم له في بيته.

كما ذكر بأن الدخان/ السجائر لا يفسد الصوم، ومن حرمه هو اجتهاد غير ملزم.. ومن المعروف أن السيستاني إمام الشيعة في العراق أباح للصائم تدخين ثلاث أو أربع سيجارات إن لم يكن يستطيع الصوم بسبب حاجته للدخان.

وليست القضية هنا الدعوة للتدخين فقد أثبت العلم والطب ضرره، وإنما القضية تكمن في المناقشة العقلية لمفسدات الصيام فما يفطر الصائم هو الطعام والشراب فقط، بينما السيجارة دخان وليس هو بطعام ولا شراب حتى يفسد الصيام!

***

ج- التيار التراثي العلماني:

خطاب مفكري هذا التيار في تحديث الفكر العربي الإسلامي يعتمد على أرضية العقل والعلم الحديث والديموقراطية بما تتضمنه من أبعاد كحقوق الإنسان وحرية التعبير والتسامح..

وقد اختلفت اتجاهات هذا التيار حول أرضية التحديث كما عند أصحاب التيار التراثي التحديثي، فمنهم من يراها تبدأ من القرآن فقط لأنه جامع وما عداه مرفوض، وقلة تقبل الأحاديث المقبولة عقلياً. وبعضهم ينطلق من عقلانية المعتزلة والفلاسفة كابن رشد كأرضية للتحديث، وآخرون يبدؤون من التحليل والنقد العلمي مباشرة..

وسنستعرض في بحث مستقل أفكار ثلاثة من هذا التيار وهم د. زكي نجيب محمود، د. أدونيس، د. محمد أركون.

فهؤلاء مجمعون على أن في التراث قضايا لا تصلح للمعاصرة وبالتالي يجب تجاوزها، ولكن التجاوز كلمة فضفاضة وفيها إشكالية، فقد يكون التجاوز عبر الغربلة كما عند زكي نجيب محمود - وهو من الوضعيين-

والغربلة قائمة على الانتقائية المبنية على النفعية/ البراجماتية، بينما عند أدونيس - وهو علماني- تصب الانتقائية في خانة الإمام المعصوم والباطنية!

أما محمد أركون فهو يختلف جذرياً عنهما بعمق تفكيره وبعد أفقه، وتحليله المعتمد على المنهجية العلمية النقدية المستمدة من المناهج الغربية الحديثة.

والمغرب العربي قدم مفكرين كثر فأركون من أصل جزائري والجابري والعروي من المغرب، والكبسي تونسي.. وكانوا على علاقة بالغرب مباشرة "فرنسا"، ومنهم من عاش هناك وكتب بالفرنسية ثم ترجمت أعماله كأركون.. والاتصال المباشر بالغرب أغنى تجربتهم ورؤيتهم.

وقد تم التركيز على أركون ودون إغفال البقية، لوجود قواسم مشتركة في المناهج المستمدة من الحداثة الغربية مثل: (فلسفة الجدلية المادية التاريخية/ ماركس، والعقلانية العلمية/ لالاند وباشلار، والإبستمولوجيا التكوينية/ بياجيه، والبنيوية/ شتراوس وألتوسير ولاكان، والتفسير والتأويل "الهيرمينوطيقا"/ هيدغر وغادامير، والحفر في عمق النص للوصول إلى الجذور "الأركيولوجيا"/ فوكو، وتفكيك النص وإعادة تركيبه/ دريدا..).

والعروي يتقاطع مع أركون في قضايا كثيرة أهمها منهجية البحث، وتوليد منهجية الأسئلة ولعل طرح السؤال بشكله المنهجي العميق أهم من الإجابة نفسها كما يرى. والعروي ينظر بمنظار تاريخي لأنه المعطى الأول في أيديولوجيا المعرفة، واعتمد على المنهج الجدلي الماركسي في دراسة وتحليل ونقد واقع العرب الماضي والتراث والمعاصرة مجتمعاً ومؤسسات، ولكن ضمن فهم خاص يرتبط بقاعدة العصر الحديث "الفكر الليبرالي" كما يرى، ولكنه طالب أن يكون للعرب ماركسهم الخاص بهم، رافضاً استنساخهم لماركس كما هو، لأن رؤيته تتعلق بالخصوصية الغربية. وقد حاول ضمن المنهجية التاريخية دمج الدين والعلم والماركسية معاً..

وقد دعا إلى الإصلاح الثقافي أولاً ثم الإصلاح السياسي، والحل كما يعتقد بيد السياسي.

والمنهجية العلمية النقدية تتيح رؤية مجريات الأحداث وحركة التاريخ بشكل موضوعي على أرض الواقع المادي، إن تمت ضمن رؤية جدلية العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والروحية.. وابتعدت عن هالة تقديس التاريخ أو الشخصيات أو الأفكار..

وفي الشرق العربي هناك كثر أيضاً اعتمدوا المنهجية العلمية النقدية المستمدة من المناهج الغربية الحديثة، فمن مصر وعلى سبيل المثال د. نصر حامد أبو زيد، د. حسن حنفي، د. سيد محمد القمني..

- **د. نصر حامد أبو زيد**: يتقاطع في كثير من أطروحاته مع أركون في المنهجية والرؤية وسعيه لتأسيس نظام معرفي حديث، فقد اخترق أبو زيد مثل أركون (السياج الدوغمائي المغلق) والمستحيل التفكير فيه ليفكر في زمن التكفير، فطرح أسئلة مهمة منها ما تناول مصحف عثمان، والتأكد من نقل صحة القرآن من عصر غاب فيه التنقيط والشكل، وترتيب سور القرآن وآياته التي لم ترتبط بأسباب النزول.. وما أورده السيوطي عن الفصل بين معنى القرآن وصياغته فالمعنى وحي، والرسول هو الذي صاغه بأسلوبه.

وهذه القضية التي يثيرها أبو زيد أثيرت في التراث فقد أُتهم القرامطة بأنهم يرون أن القرآن فيض من المعارف العلوية صاغها النبي بأسلوبه، فالقول بأن القرآن كلام الله هو مجاز، لأنه في الحقيقة كلام النبي. وقد ذكر السيوطي عدة آراء حول الوحي ومنها: (الرأي الثاني: أن جبريل إنما نزل بالمعاني خاصة، وأنه صلى الله عليه وسلم علم تلك المعاني وعبر عنها بلغة العرب، وتمسك قائل هذا بظاهر قوله تعالى "نزل به الروح الأمين على قلبك". والثالث: أن جبريل ألقى عليه المعنى، وأنه عبر بهذه الألفاظ بلغة العرب) [35].

ورأى أبو زيد أن ظاهرة الوحي تاريخية اجتماعية ثقافية لغوية، وعلى أساسها يفهم تجلي الميتافيزيقي/ الله/ المطلق، في الفيزيقي/ الإنسان، اللغة.

وتجديد الخطاب الديني ضرورة معرفية، ينطلق من حقيقة أن الخطاب الديني الموروث هو خطاب إنساني عن الدين وليس هو الدين، ولكن رجال

الدين وحدوا في خطابهم بين النص الديني وفهمهم وشرحهم له وغلفا معاً بالتقديس فصار الشارح كأنما هو الله.

وفكرة نصر حامد تلك أشار إليها أركون فالطبري يقول: قال الله ويشرح وكأنما هو في عقل الله فيحل مكانه ليبين مراده. لذلك يجب التحرر من سلطة النص ومن أية سلطة تعيق النقد العلمي والتطور، والتمييز بين الدين والفكر الديني، بين النص وفهم النص.

وقد كانت هناك قراءات متعددة في الإسلام قبل أن يحتكر المسلمون المتشددون تفسيرهم الأحادي الذي فرض الفهم الوحيد للقرآن.

ويقول أبو زيد بأنه يجب في القراءة المعاصرة للقرآن الاستناد إلى منهج علوم اللغة والتاريخ. وهو يضع القرآن في سياقه التاريخي فاصلاً بين معانيه العقائدية وما دخل عليه تاريخياً، والنص القرآني نص ميثولوجي لغوي أدبي بامتياز يخضع للدراسة كأي نص لغوي آخر [36]. وحتى يكون هناك تقدم يجب أن يكون هناك نقد علمي للتاريخ وللتراث والواقع ولا توجد (مناطق فكرية آمنة) بمعزل عن التساؤل والنقد والنقاش الحر.

كما يرى أبو زيد أن الحرية الفكرية والنقد تحمي من الجمود والفساد المحتمي بمقولات "الحفاظ على الهوية" و"حماية القيم"، وأن خرق الإجماع التقليدي يؤسس لإجماع جديد، فالتطور يكون من خلال النقد المستمر..

وقد اتهم أبو زيد بالردة والكفر، وبما أنه لا يوجد في مصر قانون ضد المرتد، حرك خصومه ضده "محكمة الأحوال الشخصية" لتطليق زوجته منه عام 1995 لأنه مرتد، كافر، ملحد.. فرفض وزوجته القرار وتركا مصر وسافرا/ هربا إلى هولندا.

- **د. حسن حنفي**: يعد المؤسس لليسار الإسلامي فقد تبنى منهجية العقلانية في الإسلام "المعتزلة وابن رشد" (لا سلطان إلا للعقل، ولا سلطة إلا لضرورة الواقع الذي نعيش فيه)، ورأى أن اليسار الإسلامي يرتبط بجذوره التراثية ولكنه يعيد قراءته ليثوره حتى تكون فروعه تقدمية

تصلح للعصر، وتثوير التراث الإسلامي يعني تحديثه بما يناسب كل زمان ومكان.

وعن صفات الله عند علماء أصول الدين يقول بأنهم عندما يتحدثون عن ذات الله وصفاته وأفعاله، فهم يتحدثون عن الإنسان الكامل، فكل ما وصفوه على أنه الله إن هو إلا إنسان مكبَّر إلى أقصى حدوده.. [37].

وما نقده للسلفية إلا لأنه يشاركها في الجذور فهو ليس معادياً لها ولا يكفر أحداً، وهدفه صياغة مشروع قومي يرتبط فيه الماضي بالحاضر.

ومع أنه طرح قضايا تمس المحظورات الإسلامية لكنه مفكر مؤمن وليس كافراً أو ملحداً كما اتهمه رجال الدين، وقد شن حنفي وكذلك سيد القمني وجمال البنا حملات ضد رجال الدين.

قال د. حسن حنفي منتقداً رجال الدين الدائرين في فلك السلطة من مقال له بعنوان (مشايخ السلطان): (بعد قرارات مؤتمر الخرطوم بعد هزيمة يونيو "حزيران" 1967، واللاءات الثلاث: لا صلح، ولا مفاوضة، ولا اعتراف بإسرائيل، انبرى مشايخ السلطان بتبرير هذا بالفتاوى والنصوص الدينية: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل"، "وجاهدوا في الله حق جهاده"، "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله علي نصرهم لقدير"، "وقاتلوا الذين يقاتلوكم"، وما أكثر الآيات والأحاديث في هذا السياق. وبعد أن انقلبت الجمهورية الثانية على الجمهورية الأولى، وعُقدت اتفاقيات كامب ديفيد في 1978، ومعاهدة السلام بين مصر وإسرائيل في 1979 انبرى مشايخ السلطان، هم أنفسهم، بتبرير قرارات السلطان الجديد بآيات وأحاديث أخرى: "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها"، "ادخلوا في السلم كافة". وأن سلام وشالوم من نفس الاشتقاق، وأن كلانا أولاد عم من نسل إبراهيم. وحدث نفس التحول على الصعيد الداخلي من الاشتراكية والقومية وعدم الانحياز، وهو اختيار الجمهورية الأولى، إلى الرأسمالية والقطرية والانحياز إلى أمريكا وإسرائيل، وهو انقلاب الجمهورية الثانية، والذي ما زال مستمراً في الجمهورية الثالثة والأخيرة في حقبة من تاريخ مصر المعاصر في النصف الثاني من القرن العشرين، نهاية لمرحلة، وبداية

لمرحلة أخرى. فأفتى مشايخ السلطان في الجمهورية الأولى، بأن الإسلام دين الاشتراكية، وجاءوا بالحديث النبوي: "الناس شركاء في ثلاث: الماء والكلأ والنار"، والقطاع العام من الإسلام كما مثله "الإقطاع"، وهو ما يقطعه الخلفاء للصالح العام كالمراعي للإبل، و"ليس منا من بات جوعان وجاره طاو"، "والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم".

ولما حدث الانقلاب في الجمهورية الثانية، انبرى مشايخ السلطان لتبرير سياسة الانفتاح ونقد الشيوعية الملحدة، "من لا إيمان له لا أمان له". والكسب الحر مشروع، والتجارة حلال في الأسواق، ومع الله تجارة لن تبور. وكل ما أتى الإنسان هو رزق، حلالاً أم حراماً، اعتماداً على رأي بعض القدماء، والرفاهية حق المؤمنين "قل من حرم زينة الله والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا". والغرب مؤمن، والشرق كافر. والانحياز إلى الغرب المؤمن ضد الشرق الكافر خير وبركة، ونصرة للإسلام والمسلمين...).

وقد كفر السلفيون أيضاً حسن حنفي على ما طرحه في كتبه، كما أثارت أطروحاته في ندوة نظمتها مكتبة الإسكندرية عن (الحرية الفكرية في مصر) عام 2006 ردوداً عنيفة كفرته حول رأيه ببعض صفات الله والحديث عن القرآن. وبعض الإسلاميين والعلماء الأزهريين أهدروا دمه وطالبوا بإقامة حد الردة عليه!

د. سيد القمني [38]: دعا إلى تبني مناهج الفكر الغربية، وأعاد قراءة التاريخ برؤية مادية مستبعداً المقدس عنه. ورأى أن الإسلام كتاب مفتوح للجميع وليس من حق أحد أن يعد قراءته هي الصحيحة وأن الآخرين على خطأ. وقد تعرضت كتاباته للنقد الشديد ولا سيما الإسلاميات منها مثل كتابه (الإسلاميات)، وصادر مجمع بحوث الأزهر كتابه (رب هذا الزمان) الذي صدر عام 1997، وأخضعه لاستجواب في نيابة أمن الدولة العليا حول الأفكار التي تدل على الارتداد.

وقد هاجم القمني بشدة الحركات الأصولية المسلحة لما قامت به في مصر من العمليات الإرهابية. وقد هددته جماعة أصولية متطرفة بالقتل إن

لم يتب ويتوقف عن الكتابة، فخشي على حياته وحياة أسرته وأعلن توبته وتوقفه عن الكتابة في ذلك الوقت!

***

وما جرى مع سيد القمني ونصر حامد أبو زيد وحسن حنفي، جرى مع آخرين أيضاً، فقد أصدرت ندوة علماء الأزهر فتوى بتكفير د. أحمد صبحي منصور أحد شيوخ الأزهر "وهو من القرآنيين"، وصديقه د. فرج فودة على كتابه (الحقيقة الغائبة)، وقد اغتالت الحركات الأصولية المتشددة فرج فودة بعد أيام من الفتوى عام 1992..

كما جرت اغتيالات كثيرين في دول أخرى كما حدث في الجزائر، وقد توقفت هذه المآسي حالياً ولكن الصفحة لم تطو نهائياً، وهي تذكرنا بما جرى في المرحلة الأولى من النهوض مع طه حسين وزكي مبارك وعلي عبد الرازق وغيرهم!

لقد رأى كثير من المفكرين أن ظاهرة التكفير وإصدار فتاوى التهديد والقتل لن تنتهي إلا بإلغاء حكم الردة الفقهي في كل المؤسسات الدينية الرسمية والخاصة، والسماح بالنقد العلمي الموضوعي رسمياً، وفتح باب الحوار والمناقشة الحضارية بدلاً من السباب والتهديد!

والكاتب الحر عندما يشعر بالغربة في مجتمعه ودولته نتيجة الاضطهاد الفكري السياسي أو الديني، يضطر إلى اختيار أحد المخارج التالية:

1- الانكفاء على نفسه والانطواء وما يمكن أن يخلق ذلك من أزمات نفسية "الموت البطيء قهراً".

2- الهروب من الوطن إلى بلاد يتمكن فيها من حريته والتعبير عن نفسه.

3- التمرد والإصرار على أداء رسالته، فيتعرض للقمع والاضطهاد، ويحيا في القلق والتوتر من ملاحقة السيف له!

أما الكاتب غير الحر فهو خارج المعادلة؛ لأنه إما أن يكون انتهازياً فيبيع قلمه للسلطة الحاكمة ولمن يدفع، أو يؤجر قلمه ونفسه لمن هم الأعداء الحقيقيون للوطن!

***

د- التيارات الماركسية والاشتراكية:

التيارات الماركسية مادية [39]. وقد حدثت فيها تعديلات في الرؤى وظهر مفكرون ماركسيون انقلبوا على الشيوعيين وربطوا بين الماركسية والقومية العربية مثل إلياس مرقص [40] الذي انتقد في كتبه الفكر العربي المعاصر والحركات السياسية القومية والناصرية والبعثية.. التي برأيه قدمت خطاباً سياسياً تعبوياً ولم تقدم فكراً، وقدم مشروعه التأسيسي للفكر العربي المعاصر القائم على العقلانية وتحديث الوعي العربي والفكر الماركسي اللادوغمائي. وانتقد موقف الشيوعيين من القضية القومية والموقف من الأمة العربية والوحدة إضافة إلى قضية الإمبريالية والاستعمار والصراع العربي/ الصهيوني والاستقلال، والتحرر من التبعية..

وقد عادت معظم الأحزاب الشيوعية لتبني فكرة الأمة العربية الواحدة والإيمان بالوحدة، وأعاد بعضها تقييم دور التيار الديني الثوري بإيجابية.

وبدأت تغيب مفاهيم الحتمية التاريخية والطبقة العاملة صاحبة الثورة وتغيير التاريخ والعالم. وأُنتقدت ديكتاتورية الأحزاب التي سادت الدول الاشتراكية، والأحزاب العربية الشيوعية والاشتراكية.

ولم يعد مقبولاً نرجسية الشمولية والرؤية الأحادية المطلقة التي تمتلك مفاتيح كل شيء، وقد أثبتت التجارب المريرة ذلك.

ورأت هذه التيارات أن معظم التجارب الاشتراكية العربية لم تكن تحريراً للإنسان العربي لأنها دمجت الاستبداد السياسي في الاستبداد الاقتصادي، وما تم هو تحويل ملكية الإنتاج من صاحبها الفرد إلى مجموعة من الدولة تحت مسمى الاشتراكية، وتلك المجموعة شكلت طبقة جديدة تمارس ما مارسه الفرد الرأسمالي السابق. لذلك نقدت مفهوم رأسمالية الدولة وأكدت على الديموقراطية الشعبية ليكون التحرر السياسي والاقتصادي بيد جماهير الشعب. وطرحت التعددية والديموقراطية والحرية والإصلاح والقضاء على الفساد..

والتمسك بالديموقراطية للوصول إلى السلطة، مارسته الاشتراكية الدولية حيث رفضت العنف للوصول إلى السلطة، وتبنت الطرق الديموقراطية فقط، وكانت الأصولية الماركسية تعدها منحرفة!

واليسار إجمالاً حلل بدقة الإمبريالية ودورها في نهب ثروات الشعوب، وجعل دول العالم الفقير سوقاً لمنتجاته وربطها بالتبعية الكاملة له. كما حلل بدقة طبيعة الأنظمة العربية المرتبطة بالغرب والإمبريالية وفقدانها القرار الوطني المستقل، وبأنها أدوات للاستعمار تلعب دورها في قمع حرية شعوبها. وكذلك كان دقيقاً بتحليله لطبقة الإقطاع وشبه الإقطاع والقوى الرجعية، والطبقة البرجوازية الكبيرة والبرجوازية الطفيلية والكومبرادور وارتباط الجميع بالعجلة الرأسمالية وانعكاس ذلك على مواقفهم من القضية الوطنية والتسوية ومحاربة القوى الثورية..

والاشتراكيون غير الشيوعيين أدركوا استحالة تحقيق الاشتراكية الحقيقية قبل خلق الاشتراكيين الحقيقيين وخلق الوعي الحقيقي عند الكادحين والفقراء (لا اشتراكية دون اشتراكيين). وهم بذلك يلتقون منهجياً التيار الديني المرن الذي اقتنع بأنه قبل قيام النظام الإسلامي لا بد من خلق المجتمع الإسلامي الحقيقي أولاً كما ذكر.

ومعظم الاشتراكيين بقوا متمسكين بالاشتراكية كحل وحيد لنهوض المجتمعات النامية والفقيرة، وبقوا مؤمنين بأنها العدالة الحقيقية ليس في العالم العربي فقط وإنما في العالم كله، وإخفاق تطبيقها لا يعني أن الخلل فيها، وإنما في حامليها.

وقد جرت سجالات بين الاشتراكيين والتيارات الدينية السلفية التي هاجمت الاشتراكية، ومما قاله السلفيون دفاعاً عن عدم تحديد الأسعار والأرباح في الإسلام: إن الإسلام حفظ الملكية الخاصة ولم يحدد الأسعار أو الأرباح وتركها لقوانين السوق بحسب الطلب والعرض، بل ويجوز الاحتكار في بعض المواد، وكل تشريع يخالف ذلك هو كفر. وساقوا أدلتهم ومنها: لما اشتكى الناس إلى النبي وطلبوا منه تحديد الأسعار رفض النبي، فقد جاء في سنن ابن ماجه الحديث رقم 2191: (حدثنا محمد بن المثنى

حدثنا حجاج حدثنا حماد بن سلمة عن قتادة وحميد وثابت عن أنس بن مالك قال: غلا السعر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله: قد غلا السِّعْرُ فَسَعِّرْ لنا، فقال: إن الله هو الْمُسَعِّرُ القابض الباسط الرازق، إني لأرجو أن ألقى ربي وليس أحد يطلبني بمظلمة في دم ولا مال).

وورد الحديث أيضاً في سنن الدارمي: "باب فى النهي عن أن يسعر في المسلمين"، الحديث رقم 2600: (أخبرنا عمرو بن عون أخبرنا حماد بن سلمة عن حميد وثابت وقتادة عن أنس قال: غلا السعر على عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال الناس: يا رسول الله غلا السعر فسعر لنا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله هو الخالق القابض الباسط الرازق المسعر، وإنى أرجو أن ألقى ربي وليس أحد منكم يطلبني بمظلمة ظلمتها إياه بدم ولا مال).

وعن جواز الاحتكار في الإسلام جاء في صحيح مسلم الحديث رقم 3012: (حدثنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب حدثنا سليمان يعني ابن بلال عن يحيى وهو ابن سعيد قال كان سعيد بن المسيب يحدث أن معمراً قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من احتكر فهو خاطئ.

فقيل لسعيد فإنك تحتكر، قال سعيد إن معمراً الذي كان يحدث هذا الحديث كان يحتكر).

وقد اختلف الفقهاء فيما يجوز احتكاره وما لا يجوز، ولكن هناك إجماع على احتكار كل شيء عدا ما يتعلق بقوت الناس، فقد جاء في شرح النووي للحديث: (وهذا الحديث صريح في تحريم الاحتكار. قال أصحابنا: الاحتكار المحرم هو الاحتكار في الأقوات خاصة، وهو أن يشتري الطعام في وقت الغلاء للتجارة، ولا يبيعه في الحال، بل يدخره ليغلو ثمنه، فأما إذا جاء من قريته، أو اشتراه في وقت الرخص وادخره، أو ابتاعه في وقت الغلاء لحاجته إلى أكله، أو ابتاعه ليبيعه في وقته، فليس باحتكار ولا تحريم فيه، وأما غير الأقوات فلا يحرم الاحتكار فيه بكل حال، هذا تفصيل مذهبنا، قال العلماء: والحكمة في تحريم الاحتكار دفع الضرر عن عامة الناس، كما أجمع العلماء

على أنه لو كان عند إنسان طعام، واضطر الناس إليه ولم يجدوا غيره، أجبر على بيعه دفعاً للضرر عن الناس. وأما ما ذكر في الكتاب عن سعيد بن المسيب ومعمر راوي الحديث أنهما كانا يحتكران فقال ابن عبد البر وآخرون: إنما كان يحتكران الزيت، وحملا الحديث على احتكار القوت عند الحاجة إليه والغلاء، وكذا حمله الشافعي وأبو حنيفة وآخرون وهو صحيح).

وجاء في صحيح الترمذي الحديث رقم 1188: (حدثنا إسحق بن منصور أخبرنا يزيد بن هارون أخبرنا محمد بن إسحق عن محمد بن إبراهيم عن سعيد بن المسيب عن معمر بن عبد الله بن نضلة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا يحتكر إلا خاطئ.

فقلت لسعيد يا أبا محمد إنك تحتكر قال ومعمر قد كان يحتكر. قال أبو عيسى وإنما روي عن سعيد بن المسيب أنه كان يحتكر الزيت والحنطة ونحو هذا. قال أبو عيسى وفي الباب عن عمر وعلي وأبي أمامة وابن عمر وحديث معمر حديث حسن صحيح والعمل على هذا عند أهل العلم كرهوا احتكار الطعام ورخص بعضهم في الاحتكار في غير الطعام. وقال ابن المبارك لا بأس بالاحتكار في القطن والسختيان ونحو ذلك) [41]..

ورد الاشتراكيون بالقول: إن التاجر هدفه أولاً وأخيراً الربح، فهو يشتري بأبخس الأسعار ويبيع بأعلى الأسعار، ومن يدفع ثمن الجشع الذي لا حدود له هو الإنسان الفقير، ومحدود الدخل!

والفقه الإسلامي أرسى دعائم التجارة وجعلها هي الأشرف والأعلى والأعظم، وأعطاها ميزات جواز احتكار المواد غير الغذائية الأساسية، وعدم تحديد الأسعار والأرباح لأن ما لم يرد فيه نص تحريم فهو مباح، ومن هنا مهما بلغت الأرباح فهي مباحة لأنه لا نص في تحديدها، وهذا تشريع لصالح التاجر وليس لصالح الفقير. فما قيمة العدالة وقد فتحت للتاجر الأبواب على مصراعيها للاحتكار وعدم تحديد الأسعار والربح غير المحدود المتوافق مع قوانين السوق الرأسمالية في العرض والطلب، فالتاجر يتلاعب كيفما شاء متجاوزاً الرأسمالية الغربية البشعة، فهي على الأقل

موجهة ومراقبة ولها منتقدوها، بينما هنا لا يحق النقد لأنه دين كما يدعون، والحقيقة أنه وجهة نظر الفقهاء فقط ورأيهم ليس هو الدين!

إن التجارة عمل طفيلي وسيط وليس منتجاً، وخلال التاريخ غدت التجارة سيدة الأعمال في الوقت الذي كان ينظر فيه إلى المهن والصناعات والزراعة على أنها في مرتبة أدنى، بينما تطور المجتمع يقوم على الإنتاج الزراعي والصناعي، والعمل يعكس أخلاقياته والتجارة كحرفة تسويقية وسيطة طفيلية لن تكون كأخلاقية المنتج والمعتمد على يده وجهده وعرقه في إنتاجه.

فهل يمكن قبول السماح بالملكية اللامحدودة، وأن تبقى المواد بلا تسعير والأرباح بلا حدود تحت شعار أنها مخالفة للدين!

أين هو الرأسمالي أو التاجر النزيه والورع الذي لا يغش ويرضى بالربح المعقول؟! فالرأسمالي والتاجر ليسا من الملائكة ولن يهتما بوضع الفقراء ولن يكونا، وبما أن هناك قاعدة فقهية تقول "الضرورات تبيح المحظورات"، وحديث "من غش فليس منا" والغش أنواع كثيرة وبيع السلعة بأكثر مما تستحق هو غش، لذلك لا بد إذاً من تحديد الملكية والأسعار والأرباح. أما حديث الاحتكار فهو واضح بأنه عمل خاطئ ولا داعي للخوض في دلالات الخطأ، لكن الراويين اخترقا الحديث وصار اختراقهما موازياً لنص الحديث!

وقد غاب عن الفقهاء حديثان، الأول: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)، وورد بصيغة أخرى: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب للناس ما يحب لنفسه)، والثاني: (ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به)!

كما ردوا على مدح رأسمالية الغرب المرفه قائلين: رفاهية الدول الغربية الرأسمالية جاءت نتيجة جشع الرأسمالية وسرقة ونهب الدول في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. أما رفاهية الطبقة العاملة في أوروبا فهي نتيجة كفاحها المرير والدموي في كثير من الأحيان، والذي أجبر الرأسمالي الغربي على تحسين أوضاعها. ثم إن الرأسمالي الغربي أخذ يفكر جدياً بكيفية منع قيام العمال بثورة قد تقضي عليه، واستنتج بأنه إذا تنازل عن

جزء من أرباحه لهم فتتحسن أوضاعهم مع شيء من الرفاهية، يستطيع أن يمتص ثورية العمال والثورة.. وهذا ما تحقق!

وفي هذه المرحلة درس بعض الماركسيين التراث على خلفية منهج المادية الجدلية وتعاملوا معه تاريخياً كما حدث على أرض الواقع المادي الصرف، وكشفوا عن العلاقات الثورية فيه، والتي تأتي نتيجة تحولات نوعية لتراكمات متعددة سياسية واجتماعية واقتصادية.. كما اكتشفوا النقاط الإيجابية فيه والتي طمسها التاريخ، وكذلك الأمر أعادوا الاعتبار لشخصيات شوهت.

ودراسة التاريخ الإسلامي والتراث مادياً كما عند جورج طرابيشي ومروة وتيزيني وغيرهم من التيارات الأخرى كسيد القمني، تعني نقد العقل العربي الإسلامي ودراسة الواقع المادي بعيداً عن المقدس والنبوة والوحي، والنظر إلى النبي محمد كزعيم عربي، وقائد عبقري فكرياً وسياسياً وعسكرياً، تمكن من لملمة القبائل العربية المتفرقة والمتناحرة في إطار دولة، وما قدمه من فكر طور أوضاع المجتمع الذي بناه. ولكن عبقريته مشروطة بإطارها الزمني، وذاك يعني بأنها ليست مطلقة تصلح لكل زمان ومكان.[42]

والخطأ هنا يكمن في تطبيق الجدلية بشكل ميكانيكي، أو في رؤية المادة/ الاقتصاد وحدها كمسير للحركة التاريخية في بعض الأحداث وتغييب العناصر الأخرى كما ترى الماركسية الدوغمائية!

* * *

هـ- التيارات العلمانية الليبرالية:

هذه التيارات تتبنى الليبرالية الفكرية على النمط الغربي والنظام الحر/ الرأسمالية. وتؤمن بأن الدين لله والوطن للجميع. وقد مال بعضها باتجاه أمريكا والمصالحة مع العدو الصهيوني والتطبيع!

ويتقاطع معظمها في بعض الأطروحات مع تيارات أخرى مثل:

1- تبني المنهج العلمي القائم على العقل والتجربة واليقين، والمنهج يناقش التراث بحرية مطلقة، ولا قدسية لأي طرح فكل الأطروحات تناقش بموضوعية وتنقد.

2- تحقيق الديموقراطية سياسياً واجتماعياً واقتصادياً.

3- تحقيق المجتمع المدني التعددي والتركيز على حرية الإنسان ليشعر بإنسانيته فلا إبداع ولا تقدم دون حرية.

4- محاربة الفساد وإصلاح السلطة والأجهزة الإدارية.

***

و- التيار القومي:

ذكرنا سابقاً أن هذا التيار لم يستطع أن يصوغ برنامجاً ملموساً، وما زالت تسيطر عليه الأيديولوجيا [43]، لكن هناك محاولات عند بعض اتجاهاته للملمة التيار وتقديم فكر حقيقي وصياغة برنامج واقعي.

وهذا التيار على تعدد اتجاهاته، لم يتخل عن فكره الوطني القومي ومقاومة المشروع الإمبريالي الصهيوني، ودعم التيار الديني الثوري.

***

ز- التيار اللاديني:

هناك عدة تيارات مختلفة نقدت الدين والإيمان بالله كالتيار الماركسي [44] أو الوجودية الملحدة أو الاتجاهات المادية أو العلمانية.. وهي تنفي المقدس عن النص الديني وتنظر إليه كأي نص تراثي آخر ضمن منظوره التاريخي؛ فالدين ظاهرة إنسانية تاريخية من صنع الإنسان.

والتيار اللاديني يقسم إلى قسمين:

الأول: ملحد (اللاديني/ الإلحادي) وهو لا يتنازل عن عقله وثقافته الواسعة ولا يسلم بأية قضية غير منطقية كما يدعي، ولا يتساهل في طرح آرائه. وهو بنقده للدين يختلف عن تلك التيارات بمنهجه النقدي للنص الديني ولا يكتفي بتحطيم الأديان كلها جذرياً ضمن صيغة عامة مادية.

ويرى أن المفكرين الإسلاميين كغيرهم من أتباع الأديان الأخرى منهجهم قائم على ثلاثة مبادئ:

الأول: التسويغ وتبرير كل شيء، والثاني: يعتمد على إبراز الإيجابيات في الدين، وطمس أشياء كثيرة تثير أسئلة تنقض ادعاءاتهم، وعد ذلك تزييفاً وخداعاً وقد انتهى عهد هيمنة أسلوب الاستغباء وإخفاء الحقائق، والثالث: رفض مبدأ نقد النص لأن النقد يكشف ضعفه!

وذكر بأن الدين ضد حرية الفكر لأن الرافض للدين تنتظره جهنم، بينما حرية الفكر تعني ألا تترتب على عدم الإيمان أية عقوبة!

ونقد براهين الوحي عند الكُتّاب الإسلاميين التي تثبت نسبة القرآن الكريم إلى الله، بالاعتماد على: 1- ما قدمه النص من أفكار وقيم ومفاهيم، 2- براهين الإعجاز القرآني البلاغي، 3- براهين الإعجاز العلمي.

وعلل لجوء المفكرين الإسلاميين إلى المجاز والتأويل لأن النص لا يدل على أنه غير بشري، وهدفهم هو تحويل النص البشري إلى نص ما فوق البشري. ويقول لو نظر المؤول إلى القرآن كنص بشري وليد معطيات عصره الزمانية والمكانية لأعطاه قيمة أكبر، والإشكالية عند المسلمين تكمن في إيمانهم بأن القرآن من عند الله، وبالتالي لا يستطيعون مواجهة النقد العلمي لقضايا كثيرة كالتناقض الذي حاول العلماء المسلمون حل بعضه عن طريق الناسخ والمنسوخ، وقد قال ابن الجوزي: (الشروط المعتبرة في ثبوت النسخ خمسة: الشرط الأول أن يكون الحكم في الناسخ والمنسوخ متناقضاً بحيث لا يمكن العمل بهما جميعاً) [45]!

وهدف هذا القسم كما يذكر مفكروه هو تأسيس عقل عربي علمي لا يؤمن بالغيبيات لأنها قائمة على التسليم اللاعقلي.

القسم الثاني (اللاديني المؤمن): وهذا القسم مؤمن بالله ولكن له رؤيته الخاصة عنه والمختلفة عن مفهوم الدين؛ لذلك لا يؤمن بنسبة الدين إلى الله ولا بمفهومه عنه، لأن الدين جعل الله ملكاً بشرياً بقدرات هائلة، وعملياً جعله دون أي ملك أو حاكم في المكانة فقد جعله قاضياً وشرطياً وحارساً بل وخادماً يدور بين الناس ليساعدهم في أمورهم وتلبية مطالبهم وحل مشاكلهم والتدخل في كل صغيرة وكبيرة.. وهذا يتناقض مع التنزيه

ومكانة الله وعظمته. ويرى أن الإيمان بالله لا يعني بالضرورة الإيمان بالدين، بينما الإيمان بالدين يرتبط جدلياً بتصور ما عن الإله.

ونقده للأديان الثلاثة قائم على المنهجية النقدية التحليلية العقلية لأفكار النص، لأن النقد كما يرى هو نقد للفكر للمضمون وليس للشكل، فلا قيمة للشكل مهما كان. وهو إضافة إلى تحليل بنية الدين والدراسة المقارنة، يوازن معطياتها الفكرية مع القيم المطلقة.

وذكر بأن نسبة النص الديني إلى الله تعتمد على النقل ولا يمكن إثبات نسبة أي دين إلى الميتافيزيقا ببرهان عقلي، والأديان كلها تقفز من أدلة وجود الله إلى أن الدين من عنده دون أية براهين عقلية تثبت تلك الصلة.

وفكرة الإيمان بالله من دون الدين (الدايزم: Deism) أي الإلهي أو الألوهي التي ازدهرت في القرن السابع عشر والثامن عشر في أوروبا ولا سيما في بريطانيا، ارتبطت بالصدام مع الكنيسة من جانب وعصر التنوير من جانب آخر، وهي تعني الدين الفطري/ الطبيعي ومن أعلامها في القرنين السابع عشر والثامن عشر: جون لوك، دافيد هيوم.. كما جاء في الموسوعة البريطانية (Britannica).

وقد وجدت في التاريخ جماعات مؤمنة بالله وحده دون أي دين غير القيم الأخلاقية [46]، إلى جانب مؤمنين عن طريق الدين والكهنوت والطقوس.

***

والتيار اللاديني تزداد مواقعه الإلكترونية على شبكة الإنترنت، فإذا ما تم تجاوز المواقع التي تقوم على المهاترات والشتائم والضحالة الفكرية والثقافية، تبقى هناك مواقع تتسم بالموضوعية وشروط البحث.

وإضافة إلى المواقع اللادينية، هناك مواقع دينية غير إسلامية تهاجم الدين الإسلامي، وهي توثق مقولاتها بالاستناد إلى عشرات الكتب الدينية الإسلامية.

***

إن القفزات الهائلة في عالم المعلومات والاتصالات أتاحت المعرفة التي حققت أحد مفاهيم القرية الكونية، وقد انتشرت آلاف الكتب التراثية على

أقراص (CD) والإنترنت، وصار التعبير عن الأفكار ومهاجمة الخصوم متاحاً للجميع دون أي استثناء.

ولكن تخمة المعلومات المتنوعة أدت عند البعض إلى الاهتمام بكم المعلومات الغزيرة فقط، بينما الأهم هو توظيف المعلومات في الفهم والاستيعاب والتحليل والربط والاستنتاج والاستقراء والاستنباط، المبني على البراهين العقلية والمنطقية والأدلة الملموسة.. والهدف هو بناء المنهج العلمي النقدي والرؤى العميقة والإبداع والخلق وحل الإشكاليات، وليس الهدف أن يتحول الإنسان إلى موسوعة متحركة كما يقول د. فؤاد زكريا: (فما زال عدد غير قليل من علمائنا يتصور أن العلم هو الاستيعاب، وما زال منهم من يتفاخر في مجالسه باتساع معلوماته، وتشعب معارفه، ويستعرض على الملأ قوة ذاكرته فيبهر الحاضرين بتلك الكمية الهائلة من المعلومات التي يضمها ذهنه، ويثبت لهم أنه موسوعة متحركة قادرة على استعادة واستظهار قدر غير عادي من الحوادث والوقائع. ولكن هذا كله لا يعدو أن يكون عملية استعراضية جوفاء، بل أن ملء الذهن بالمعلومات المكدسة كثيراً ما يكون على حساب قدرة هذا الذهن على الإبداع. وكأن التكدس والحشو الذي امتلأ به الذهن يمنعه من الحركة الطليقة، ويخلق لديه نزوعاً إلى ترديد ما سبق له أن قرأه أو سمعه، وهو نزوع مضاد لكل إبداع. فالذهن المزدحم بالمعلومات، المنشغل دائماً ما يأتيه من المصادر الأخرى، لا تعود لديه قدرة أو طاقة على كشف الجديد، بل يجد متعته الكبرى في إفراغ محتوياته أمام الناس في كل مناسبة، وهو عمل قد يبهر البعض، ولكنه لا يدل على أصالة أو ابتكار) [47].

***

تلك هي التيارات بشكل عام التي تسود الآن الساحة العربية، والصراع الجوهري بينها هو حول الدين والتحديث والتحرير، وقد تفاوتت أطروحات المفكرين والباحثين، فبعضهم ومن تيارات مختلفة لم يلعب الدور المطلوب من المفكر والباحث والكاتب تجاه العقل والمنهج العلمي، مع أن مهمة المثقف كما يقول أركون: (فتح العقليات المغلقة وتحريرها).

والمفكر نتاج من داخل البيئة وخارج عليها، فهي خلقته ولكنه لكونه مفكراً يتجاوزها ليعيد صياغتها ضمن رؤية جديدة متقدمة. وجدلية الداخل والخارج قد تصطدم بظروف ذاتية أو موضوعية، ولكن الخلل عند أولئك ذاتي وليس موضوعياً أي ليس بسبب خارجي وإنما لعلة في المفكر نفسه!

وقد سيطرت الانفعالية على بعض الرؤى والتحليلات فكانت مجرد ردود أفعال ولم تكن منهجية، لذلك ما إن تتبدل الظروف حتى تلحقها تبدلات التحليلات والقناعات، وفجأة ما كان مؤطراً بالأمس كحقيقة مطلقة، يصير عكسه المؤطر الجديد وهكذا دواليك.

ليس الهدف من الثقافة والمعرفة العصرية هو توظيفها أيديولوجياً للدفاع عن الفكر، والرد على أطروحات الآخر المغاير بالبحث عن نقاط ضعف ينفذ منها ويجعلها هي المبتغى في النقاش والحوار، ومن يكن ذاك هدفه يبق ضعيفاً في المنهجية العقلية العلمية في الخطاب والحوار والدفاع عن أفكاره!

فهدف الثقافة والمعرفة هو تطوير العقل وتحديثه والوصول إلى منهج النقد العلمي، وهذا يؤدي إلى استيعاب الجدلية الثلاثية من أجل النهوض الحقيقي.

* * *

الهوامش

(1) د. محمد أركون: قضايا في نقد العقل الديني - ص 126.

ويعلق المترجم د. هاشم صالح في الهامش بأنها كانت حلماً طوباوياً ولم تتحقق في زمن الأمويين ولا العباسيين ولا العثمانيين، فالمبادئ المثالية في الدين لم تطبق!

(2) هناك كتب إسلامية تعلم المحاور المسلم آداب الحوار مثل: "آداب الحوار وقواعد الاختلاف" لعمر بن عبد الله كامل، "كيف تكسب الناس" لمازن بن عبد الكريم الفريح، "رسالة عاجلة للدعاة" لخالد بن ثامر السبيعي..

(3) تحدثنا سابقاً عن موقف الإسلاميين تجاه القومية.

راجع كتاب: "نقد القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع" لعبد العزيز بن عبد الله بن باز.

(4) تزامنت نشأتها مع نشأة حركة الإخوان المسلمين، وقد أنشأها محمد حامد الفقي "توفي 1959" في عام 1926 في مصر وانتشرت في مصر والسودان وفي عدد من الدول الإفريقية والآسيوية. ورجالاتها كانت لهم علاقات بالسعودية فساهموا في النهضة العلمية في السعودية إذ أنشأوا المعاهد والجامعات الدينية ووضعوا لها البرامج والمناهج الدراسية.

وقد تعرضت الجماعة للمضايقات والملاحقات والاعتقالات على الرغم من رفضها للعنف واستخدام السلاح، ومثلها الأعلى أحمد بن حنبل في تحمله التعذيب.

(5) هناك حركات في العالم الإسلامي تأثرت أيضاً بابن تيمية والوهابية مثل: "جماعة أهل الحديث" في الهند والباكستان فهم يرون النقل قبل العقل، وترجموا الكثير من الكتب السلفية الوهابية حتى المعاصرة منها ككتب عبد العزيز بن باز والمحدث محمد ناصر الدين الألباني.

والجماعة قاتلت في أفغانستان.

راجع كتاب محمد بن عبد الله بن سليمان السلمان: دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي.

(6) راجع كتاب د. محمد أركون: أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟ - كيف نتحدث عن الحركات الإسلاموية؟ ص 125 وما بعد.

(7) برزت هذه الجماعة بعد العملية العسكرية التي قادها الملازم أول خالد الإسلامبولي مع مجموعة، وقتلت أنور السادات أثناء العرض العسكري بمناسبة 6 تشرين الأول عام 1981 في مدينة نصر بالقاهرة، وقد أعدموا جميعاً.

وتابعت الحركة نشاطها باغتيال شخصيات بارزة ومهاجمة مراكز الشرطة والأمن.. ولاحقتها قوى الأمن وقتلت الكثير منهم واعتقلت الكثير أيضاً. وقد تحولت الجماعة بعد ذلك إلى العمل السياسي وتخلت عن العنف..

وهذه الجماعة شاركت في الحرب في أفغانستان.

(8) أسسها في مصر علي إسماعيل في السجن ثم تخلى عنها، فتزعمها شكري مصطفى وهو من جماعة الإخوان المسلمين، وقد سجن مع مجموعة منهم عام 1965، وعند خروجه من السجن عام 1971 قام بتنظيم الحركة وانسحب من جماعة الإخوان.

وقد عدت الحركة زعيمها مهدي الأمة. وقد انتشرت الدعوة في مصر وامتدت إلى الأردن واليمن والجزائر..

واصطدمت الحركة في مصر مع قوى الأمن واعتقل شكري مصطفى ومجموعة معه وأعدموا يوم زار السادات القدس في 30 آذار عام 1978.

وقد انتهى وضع الحركة بعد ذلك حيث التحق قسم منها بتنظيم القاعدة ومن بقي في مصر تخلى عن العنف.

(9) أركون: قضايا في نقد العقل الديني - ص 243.

(10) التيار الشيعي الأصولي التقليدي يرتبط بفكرة قدسية الأئمة، وقضية الإمام المختفي. وباب الاجتهاد عند التيار مفتوح تاريخياً، والمرجع الديني المجتهد/ المجتهد المطلق "آية الله العظمى" له مكانته العليا عند الشيعة

والفقهاء عبر التاريخ. والقيادة الدينية مستقلة ولها نفوذها في الحوزات الدينية والمؤسسات التابعة لها.

وقد طبق الخميني مفهوم ولاية الفقيه المتعلقة بالإشراف على قيادة الدولة وتوجيهها/ فقيه الدولة والنظام، والولي الفقيه هو نفسه المجتهد المرجع الذي يخضع له الفقهاء كلهم لأنه هو الأعلم والأعدل، وصار الخميني المجتهد المطلق فهو عملياً السلطة العليا الحقيقية. ولم تحدث هذه القضية إشكالية في زمن الخميني لأنه كان هو نفسه مرجعاً دينياً مجتهداً فجمع بين الاجتهاد والقيادة الإرشادية.

لكن حلول ولاية الفقيه عملياً مكان المرجعية الدينية، خلق إشكالية بين المرجعية الدينية وولاية الفقيه فيما بعد. وبعض المرجعيات الدينية الشيعية لا تعترف بولاية الفقيه.

(11) تؤمن الأحمدية باستمرارية النبوة "لا الرسالة والدين"، والنبي/ الخليفة تعيين إلهي لأنه مجدد للرسالة الإسلامية.

وتعد ميرزا غلام أحمد القادياني "توفي عام 1908م" المجدد/ الإمام المهدي المنتظر/ والمسيح الموعود / النبي..

والأحمدية مضطهدة في بعض دول العالم كبنغلادش.

(12) أركون: من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي - ص 39.

(13) المصدر السابق - ص 69 .

ويعلق المترجم هاشم صالح في الهامش فيقول: تلك القضية للتحايل والخداع لتثبيت ما يريده المفسر!

(14) البهائية في الأصل حركة شيعية "اثنا عشرية" أسسها الميرزا علي محمد رضا الشيرازي "1819- 1850م"، وقد مرت بأدوار، ويعد المؤسس الحقيقي "بهاء الله" ميرزا حسين علي النّوري، وهو المظهر الإلهي لهذا العصر كما ترى الحركة.

والتيار الشيعي العام كفرها ولاحقها واضطهد أتباعها.

والحركة مؤمنة باستمرار النبوة "وهو أن يأتي في نهاية الزمان موعود كل الأزمنة مجدداً للدين"، وتؤمن بوحدة الأديان السماوية ودوام تعاقبها. كما

تؤمن بأن: "دينهم هو دين مستقل وله كتبه المقدسة الخاصة به وله شرائعه وقوانينه ومبادؤه المستمدة من القرآن والأحاديث النبوية".

(15) تنظيم "الأحباش" أنشأه عبد الله الحبشي وأصله من أثيوبيا جاء إلى لبنان عام 1969. وفكره خليط من أفكار المعتزلة وصوفية ابن عربي "شيخ الإسلام بنظره" والجبرية والمرجئة.

ومع أنه سني ومذهبه شافعي إلا أنه كفر كل من قاتل علياً، كما كفر ابن تيمية والوهابية وسيد قطب..

وقد انتشر فكره في لبنان وانتقل إلى أوروبا وأمريكا من خلال اللبنانيين الذين سافروا أو هاجروا.

(16) راجع كتابه: "العرب والتحدي". وراجع رؤيته التحديثية في كتبه: "نظرة جديدة إلى التراث"، "الطريق إلى اليقظة الإسلامية"، "الإسلام والثورة"..

وقد كان عمارة ماركسياً ثم انتقل من الفكر الماركسي إلى الإسلام، ومثله د. مصطفى محمود.

(17) هناك حركات إسلامية في الوطن العربي تلتقي منهج حركة الإخوان المسلمين بصورة عامة مع وجود وجهات نظر مختلفة حول بعض القضايا:

- حركة الاتجاه الإسلامي "حزب النهضة" في تونس: حركة تهتم بالعمل السياسي السلمي ونشر الثقافة الدينية والديموقراطية أسسها د. راشد الغنوشي عام 1969 وفق أفكار حركة الإخوان المسلمين ولا سيما سيد قطب، رداً على خطوات بورقيبه العلمانية مثل: قانون الأحوال الشخصية المخالف للشريعة، عدم مراعاة الصائمين في العمل في مؤسسات الدولة، منع التعليم الديني، إلغاء التقويم الهجري، مهاجمة الدين والقرآن..

والحركة تؤمن بأن انتشار الإسلام بين الناس يرتبط بتجديده بالاعتماد على العقل قبل النقل ليناسب العصر دون مس الأصول.

ودعت إلى محاربة ما دخل الإسلام من العادات الغريبة عنه. ونادت بالتوزيع العادل للثروة ورفض الاستغلال بكل أنواعه. وقد وقفت الحركة إلى جانب حزب الله ومقاومة العدوان الصهيوني على لبنان وشعبه.

وأعضاء الحركة ملاحقون ومطاردون وقسم منهم في السجون.

- "الجبهة الإسلامية للإنقاذ" في الجزائر: تشكلت عام 1989 ورئسها د. عباسي مدني. دعت إلى تطبيق الشريعة الإسلامية كحل وحيد لإصلاح انهيار الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وفساد السلطة، وحل مشكلة التغريب. وقد وجهت نداء للسلطة الجزائرية "جبهة التحرير" بضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية. واصطدمت السلطة معها وتصدت للمظاهرات التي كانت تطالب بالإصلاحات.

وقد اكتسحت الجبهة الإسلامية الانتخابات البلدية عام 1990.

وعلى الرغم من اعتقال المدني ونائبه الشيخ علي بلحاج بتهمة التآمر على أمن الدولة، تابعت الجبهة الإسلامية انتخابات البرلمان في نهاية عام 1991، وفازت في المرحلة الأولى بـ 188 مقعداً من أصل 228، بينما حصل حزب جبهة التحرير على 16 مقعداً، وإثر ذلك شنت حملات شرسة ضد الجبهة الإسلامية في الجزائر، وفي أوروبا حيث صرحت فرنسا وغيرها بأنها لن تسمح للإسلاميين باستلام السلطة في الجزائر!

وقد ألغيت المرحلة الثانية من الانتخابات، واستقال الرئيس الشاذلي بن جديد، واغتيل خلفه محمد بوضياف، وبدأت حملات الاعتقالات والصدامات المسلحة وصدر قرار من السلطة بحل الجبهة، ودخلت الجزائر في دوامة العنف المريرة حتى هدأت بنسبة كبيرة في عهد الرئيس عبد العزيز بوتفليقة وبدأت المصالحة الوطنية التي لم تنته حتى الآن نتيجة العقلية العسكرية البوليسية التي تسيطر على الوضع كما تقول الجبهة.

(18) على الصعيد الإسلامي تأثرت بحركة الإخوان المسلمين: "الجماعة الإسلامية" في شبه القارة الهندية التي أسسها أبو الأعلى المودودي عام 1941، وهي وإن تأثرت بالفكر الوهابي لكنها أقرب إلى فكر الإخوان المسلمين وقد عملت في السياسة والدعوة. والمودودي رفض الأحاديث التي تخالف العقل والذوق وإن كانت صحيحة في البخاري ومبدؤه في ذلك "الدراية على حساب الرواية".

وقد قاتلت الجماعة في أفغانستان.

(19) على سبيل المثال حدثت انشقاقات في داخل حزب الإخوان المسلمين في سورية، فقد نشبت خلافات حادة فيه قبل وحدة عام 1958. ثم بعد تحوله إلى العمل السري عام 1963 انشق الحزب إلى قسمين، ثم عاد الحزبان للوحدة عام 1981. ثم حدث انشقاق عام 84، وعادت الوحدة ثم حدث انشقاق آخر..

(20) حزب التحرير أسسه تقي الدين النبهاني "توفي 1977"، وقد كان على علاقة مع الإخوان المسلمين ثم استقل عنهم عام 1952 وأنشأ حزب التحرير الذي انتشر في فلسطين والأردن والعراق ولبنان ومصر.. ونتيجة موقف الأنظمة العربية منه تعرض الأعضاء للملاحقة والاعتقالات وقد اتهموا بتدبير محاولة لاستلام السلطة في الأردن وفي مصر.

(21) شكله منتصر الزيات في عام 2007 وقد كان "محامي الجماعات الإسلامية التكفيرية في مصر"، وهو في الأصل من المتطرفين لكنه خرج منهم وتبدل.

(22) التابو هو المحرم والمحظور مسه، راجع كتاب فرويد: "الطوطم والتابو". وكتاب بو علي ياسين: الثالوث المحرم "دراسات في الدين والجنس والصراع الطبقي".

(23) استخدام مصطلح اليمين واليسار مفيد في تحديد الرؤى والاصطفافات وتدرجاتها في الفكر والسياسة على الصعيد الوطني والقومي ولا سيما النهوض والتحرر والعلاقة بالآخر، سواء أكانت التيارات معاصرة أم قديمة. وليس كلام د. خليل أحمد خليل في كتابه "مستقبل الفلسفة العربية - ص 94" صحيحاً عندما يقول: "ونرى أن العودة المعاصرة إلى أدلجة التراث العربي، وتشطيره يميناً ويساراً، مثالياً ومادياً، رجعياً وتقدمياً، قد تسيء لفهم هذا التراث أكثر مما تنفعه، بل أكثر مما تنفعنا في فهمه".

فالتيار الأصولي السلفي المتشدد يقف في أقصى اليمين بينما التيار الديني التحديثي يقف إلى يساره، والتيار التراثي العلماني يقف إلى يسار

التيار الديني التحديثي. وكذلك الحركات التي كانت تسمى باليسارية فمنها ما صار اصطفافها إلى جانب اليمين!

(24) راجع قضية الحجاب وغطاء الرأس وتفسيره أسطورياً في كتاب د. علي زيعور: التحليل النفسي للذات العربية "أنماطها السلوكية والأسطورية". وراجع ما كتبته د. فاطمة المرنيسي عن الحجاب في كتابها "الحريم السياسي: النبي والنساء"، و"الحجاب والنخبة الذكورية".

(25) إقبال بركة: الحجاب، رؤية معاصرة - ص 59.

(26) المصدر السابق - ص 133، 134.

(27) د. حسن صعب: تحديث العقل العربي - ص 98.

(28) د. حسن صعب: الإسلام وتحديات العصر - ص 147.

(29) الحاجة درية العيطة: فقه العبادات، على المذهب الشافعي - ص 172.

(30) د. وهبة الزحيلي: الفقه الإسلامي في أسلوبه الجديد - ص 563.

(31) محمد قطب: شبهات حول الإسلام - ص 46.

(32) د. مصطفى محمود: القرآن محاولة لفهم عصري - ص 245، 246.

(33) أسس المهندس محمود طه "الحزب الجمهوري" في السودان. وقد أعدم عام 1985 أمام أتباعه بتهمة الزندقة ولاعتراضه على تطبيق الشريعة الإسلامية في السودان!

(34) د. حسن الترابي رجل فكر ديني تحديثي ومفكر "ثورة الإنقاذ"، ورجل سلطة ديموقراطي وله نضاله السياسي الطويل، وقراءة بعض محطاته التاريخية تعطي صورة عامة عنه؛ فقد بدأ عضواً في "جبهة الميثاق الإسلامية" وهي فرع سوداني للإخوان المسلمين. وصار أمينها العام سنة 1964.

في عام 69 قام النميري بانقلابه وحل الجبهة ورمى الترابي في السجن لمدة 7 سنوات. ثم في عام 1977 صالحه النميري وأطلق سراحه. وفي عام 1983 أعلن النميري تطبيق الشريعة الإسلامية، وانقلب ثانية على الترابي وجبهة الميثاق.

وبعد سقوط النميري عام 1986 شكل الترابي "الجبهة القومية الإسلامية" وانفصل عن الإخوان المسلمين. وتحالف عام 1989 مع عمر البشير. وفي عام 1991 أسس الترابي "المؤتمر الشعبي العربي الإسلامي" وقد ضم 45 ممثلاً من دول عربية وإسلامية. وفي عام 1996 اختير رئيساً للبرلمان السوداني، ونتيجة محاولة البرلمان الحد من صلاحيات رئيس الدولة حل البشير البرلمان عام 1999، وتحول الترابي إلى المعارضة، وشكل عام 2001 حزب "المؤتمر الشعبي السوداني". اعتقله البشير في العام نفسه لتوقيع حزبه مذكرة تفاهم مع الحركة الشعبية لتحرير جنوب السودان، ثم أفرج عنه ثم اعتقل ثانية عام 2004 بتهمة تنسيق انقلاب على البشير، ثم أفرج عنه فيما بعد..

لقد انتقد الترابي فترات حكم حزبه في مقابلة صحفية فقال بأن السلطة والمال أفسدت معظم حزبه: "السلطة أفسدتنا، وصلواتنا وحجنا كانت معلولة وأصبح الأمين عندنا لصاً بعد السلطة"!

من كتبه: "تجديد الفكر الإسلامي" و"تجديد الدين"..

(35) السيوطي: الإتقان في علوم القرآن - بحث "في كيفية الإنزال والوحي"، ص 48، 49. "من المكتبة الشاملة".

(36) د. نصر حامد أبو زيد: "الخطاب الديني، رؤية نقدية - 1992"، و"مفهوم النصّ: دراسة في علوم القرآن - 1990".

(37) راجع كتاب د. حسن حنفي "التراث والتجديد". ومن كتبه أيضاً: من العقيدة إلى الثورة، الإسلام والحداثة، من النقل إلى الإبداع، الدين والثورة فى مصر..

(38) من كتبه: الأسطورة والتراث، الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية، النبي إبراهيم والتاريخ المجهول..

(39) لم نصنف التيارات على أساس المادية والمثالية نتيجة التنوع في الاتجاهين، فالمادية عامة تشمل الماركسية اللينينية، واللادينية وبعض العلمانية الليبرالية، وتشمل الوضعية أيضاً فهي مادية لا تؤمن إلا بالمحسوس، وقد أحلت العلم مكان الدين.

(40) راجع كتابيه "تاريخ الأحزاب الشيوعية في الوطن العربي" و"الماركسية والمسألة القومية".

(41) تم توثيق مصادر كتب الأحاديث التي ذكرت وأرقامها من المكتبة الشاملة.

(42) يعد د. حسين مروة "اغتيل عام 1987 ولم ينته من مشروعه كله" من الأوائل الذين لفتوا نظر الماركسيين إلى أهمية دراسة التراث دراسة مادية من خلال كتابه "النزاعات المادية في الفلسفة العربية والاسلاميّة" إذ قدم دراسة تحليلية تاريخية تستند إلى المادية الجدلية.

لكن دراسته فيها إسقاطات قسرية على التاريخ والحضارة الإسلامية، نتيجة تلك المادية الصارمة والأيديولوجيا الماركسية المبنية على الاقتصادوية وصراع الطبقات، وهي تعطي النتائج مسبقاً، فيصير البحث موظفاً قسرياً لتحقيق تلك الرؤية.

و د. طيب تيزيني اتبع المنهجية نفسها في كتابه: "من التراث إلى الثورة"، وكتابه: "مشروع رؤية جديدة في الفكر العربي في العصر الوسيط".

والجدير بالذكر أن تيزيني فيما بعد انقلب على مفاهيمه الماركسية في تحليل الطبقات وصراعها ودورها في مسار التاريخ، وتبنى نظرية "الكتلة التاريخية" فلم يعد ينظر بمنظار طبقي إنما بمنظار المرحلة التاريخية وخطورتها على الكيان العربي.

ومشروعه التحديثي الجديد في عصر وحشية العولمة التي تريد ابتلاع العرب كما يذكر في كتابه: "بيان في النهضة والتنوير العربي" يعتمد على الكتلة التاريخية المؤلفة من الوطنيين والقوميين الديموقراطيين لتجاوز "الحطام العربي المفتوح"، بشرط رؤيتها الواعية لنفسها كنتاج للتطور التاريخي، وتبنيها للحوار القائم على النقد العلمي العقلاني المستند إلى نظريات المعرفة المعاصرة.

(43) استخدمنا مصطلح أيديولوجيا هنا بمعناها الدقيق السلبي، فالأيديولوجيا لها مفهومان عام متداول كمرادف للفكر وهو غير دقيق،

والآخر دقيق وهو رؤية محددة تستند إلى خطاب حماسي/ تزييفي/ تبريري/ غير علمي هدفه تحريك الجماهير بالضرب على وتر القضايا التي تسيطر على مشاعرها ووجدانها.

(44) من الكتب الماركسية العربية في نقد الدين كتاب "نقد الفكر الديني" عام 1969م للد. جلال صادق العظم. وقد أثار الكتاب ضجة وقدم إلى المحاكمة، ولكن انتهت قضيته بسلام.

ونقده إذا تجاوزنا تبرئة إبليس التي وردت في التراث الصوفي كموحد رفض السجود لغير الله مما يعني أن معصيته كانت توحيداً، نجد أن جوهره يطرح أسئلة للإجابة عنها مثل التناقض بين خلق الإنسان من تراب في القرآن وبين ما يقوله العلم.

وقد رفض الغيبيات الدينية كما في قوله في ص 59: "إن كلامي عن الله وإبليس والجن والملائكة والملأ الأعلى، لا يلزمني على الإطلاق بالقول بأن هذه الأسماء تشير إلى مسميات حقيقية موجودة ولكنها غير مرئية". وقد ذكر بأن الدين بديل خياليّ عن العلم، وطالب بتكوين تصور علمي مادي للكون.

الكتاب لم يضف شيئاً جديداً عما قاله كثيرون قبله، ونقده للدين يمكن تصنيفه ضمن التيار اللاديني.

كما ظهرت كتب في نقد الديانة المسيحية مثل: "المسيح في مفهوم معاصر" لعصام الدين حفني ناصف.

(45) ابن الجوزي: نواسخ القرآن - ص 23.

(46) في أندونيسيا ما يشبه ذلك فالدستور يقوم على المبادئ الخمسة المعروفة باللغة المحلية باسم بانتشاسيلا "بالإنكليزية: Pancasila" والتي وضعها سوكارنو بعد الاستقلال عام 1945 وهي: الإيمان بالله الواحد الأعلى، وحدة الأندونيسيين، الإنسانية المتمدنة والعادلة، الديمقراطية الموجهة بحكمة/ بعقل بين النواب في مناقشاتهم/ مشاوراتهم، العدالة الاجتماعية لكل الشعب الأندويسي.. "من موسوعة الإنكارتا: Encarta".

(47) د. فؤاد زكريا في كتابه: التفكير العلمي - ص 157.

* * *

المرحلة الثالثة من النهوض:

1- التيار الديني التحديثي

فتح هذا التيار باب الاجتهاد على مصراعيه حتى في النص البنية. ومفكرو التيار لهم رؤى متعددة: فمنهم من ينطلق من البنية الأساسية أي القرآن برؤية جديدة له متجاوزاً الأحاديث النبوية والفقه، ومنهم من ينطلق من النص القرآني والأحاديث النبوية، ومنهم من ينطلق مباشرة من عقلانية المعتزلة والفلاسفة، وقد تتداخل الرؤى.

وسنستعرض فكر اثنين من مفكري هذا التيار هما: د. حسن صعب، د. محمد شحرور.

***

1- **د. حسن صعب**:

يدعو صعب إلى ثورة ثقافية تحديثية شاملة للقيم والبنى والتربية والإعلام والقيادة.. ويعطي الأولوية للممارسة: (ندعو العقل العربي للتحول من صناعة الكلمات إلى صناعات الأشياء، ومن اجترار المنظومات والأراجيز إلى نظم الفكر والحياة بل نظم الكون نظماً إبداعياً جديداً) [1].

ومن مستلزمات التحديث: الحرية الإنسانية، التجريبية العلمية، التنظيمية العقلانية، الإبداعية الفكرية وهي: (ليست كافية ولكنها ضرورية لأي تقدم) [2].

ويطالب بإدخال الروح العلمية والمنهجية التجريبية: (التحول المنهجي من التجريد والتغييب إلى الملاحظة والتجريب) [3]. أي الانتقال من: (التجريب التجريدي المطلق إلى التجريب المنهجي المطلق)، وتغيير خريطة الكون في العقل العربي التي هي: (أسطورية أكثر مما هي خريطة علمية) [4].

وهو يرى أن المنهج الجدلي ضروري في تفسير المجتمع، ولكنه رفضه كمنهج وحيد للحقيقة.

يستند صعب إلى القاعدة الإسلامية الروحية لمواجهة قضايا العصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحقوقية والفقهية [5]، ولبناء مجتمع صناعي علمي تكنولوجي. ويرى أن: (أهم الثورات المنشودة في الظرف الإنساني الراهن، هي الثورة الإنمائية اللازمة لإلغاء الهوة المتسعة بين الأقلية المتقدمة والأكثرية المتخلفة) [6].

وهو يبني التحديث على ثلاث نقاط: 1- العقل قبل النقل فالعقل يأتي أولاً ثم النقل، أي العقل يرجح على النص، 2- الاجتهاد، 3- الديموقراطية.

يقول صعب: (إن التحديث يتطلب أولاً تجديد مفهومنا للكتاب وللكلمة الإلهية. ولا بد أن يكون هذا التجديد منهجياً لا عشوائياً. ولا بد أن تستند منهجيته إلى مبدأ ذاتي إسلامي لا إلى المبادئ المنهجية الحركية الحديثة وحدها) [7]. و(إذا كان الوحي طريقنا والإلهام منهجنا لعالم ما بعد الطبيعة أي لله، فإن ما بينه وما بين عالم الطبيعة يقتضينا أن نعي وأن نستوعب وأن نصطنع مناهج المعرفة متكاملة. وهذا ألزم للإسلام، حيث يقوم الدين على نظرة شاملة لكل ما هو موجود منه لأي دين آخر) [8].

فتجديد مفهوم الكتاب/ القرآن، يقوم على منهجية عقلانية مستمدة من التراث نفسه، وهو يتبنى إحياء فكر المعتزلة وابن رشد وابن خلدون ونجم الدين الطوفي.. فابن رشد كما يرى صاحب منهجية عقلانية تصلح لأن تكون منطلقاً لفلسفة سياسية عربية حديثة. وابن خلدون منهجيته العلمية الطبيعية تصلح كمنطلق لعلم سياسي عربي حديث. والطوفي صاحب منهجية تجريبية تصلح كمنطلق لفقه دستوري عربي حديث [9].

وهو في هذا الاتجاه يلتقي د. محمد عابد الجابري، الذي ينطلق من القرآن كأساس: (وإذن فالمعقولية في البيان العربي إنما تتحدد أولاً وقبل كل شيء داخل "الكلام" القرآني، وبالضبط في جدلية المعقول واللامعقول في خطابه) [10]. ويرى في ابن رشد وابن خلدون إضافة إلى ابن حزم والشاطبي أساساً معقولاً للانطلاق من التراث [11].

ورؤية الاثنين تلتقي موقف د. زكي نجيب محمود - وهو من التيار التراثي العلماني- إذ يقول: (فإذا شئنا أن يكون لنا موقف نستمده من تراثنا فليكن هو موقف المعتزلة والأشاعرة معاً) [12].

ودعا صعب إلى فتح باب الاجتهاد لأن: (الاجتهاد مبدأ التجديد في الإسلام) [13]، وهناك: (ديموقراطية اجتهادية مطلقة) [14]. والاجتهاد كما يراه يتعلق: (بروح الإسلام وبقابليته للتكيف مع أحوال الإنسان المتغيرة، وحاجاته المستجدة في كل زمان ومكان) [15]. ويستنتج بأن الإسلام ليس مجرد ديموقراطية اجتهادية مطلقة، بل هو أيضاً: (ثورية اجتهادية دائمة) [16].

وأدوات الاجتهاد عنده: (القياس، الإجماع، الاستحسان، الاستصلاح، الاستصحاب).

ويعلل سبب إقفال باب الاجتهاد تاريخياً بأنه نتيجة تواطؤ بين أهل النقل والسلطة: (فلما قيض لأهل النقل الانتصار على أهل الرأي بالتواطؤ مع الحكام في نهاية القرن الثاني عسر، جاء قفل باب الاجتهاد كنتيجة من نتائج هذا الانتصار، وكنتيجة من نتائج تحول المسلمين من حال الخلق والابتكار إلى حال التقليد والاجترار) [17].

فالاجتهاد هو الحجر الأساس عنده في سبيل تجديد العقل العربي (على كل مسلم واجب الاجتهاد)، والنص يبقى كما هو لا يمس؛ فالقرآن ثابت لا يغير ولا يعدل وكذلك الحديث النبوي المتواتر غير المشكوك فيه، ولكن الذي يتغير ويتعدل هو فهم الإنسان للنص الديني. وهذا يعني أن كل مسلم يصير رسولاً في عصره كما يطرح [18].

وقد عدّ صعب تطبيق مصطفى كمال/ أتاتورك للعلمنة بفصل الدين عن الدولة اجتهاداً، وكذلك موقف بورقيبه من الصيام أثناء العمل، وتعدد الزوجات..

والاجتهاد والتأويل لا حدود لهما وإن وضعت قواعد لهما، فالتأويل لا يستند إلى أية أسس علمية أو عقلية، وقد كان مفتوحاً تاريخياً عند الباطنية وخضع لمزاجية مصنف الشروط!

***

2- **د. محمد شحرور**:

دعا شحرور إلى قراءة جديدة للقرآن بحسب معطيات العصر وبعيداً عن التأثر بالقراءات القديمة التي هي نتاج عهودها المشروطة زماناً ومكاناً، وليست رؤاها مطلقة كما يفرض التيار السلفي التقليدي.

وقراءة شحرور المعاصرة للقرآن قائمة على العلم والديالكتيك والتأويل والفهم اللغوي بحسب أحدث نظريات اللغويات بحسب رأيه. وهو يرفض التفسير الباطني والتصوف.

وقد حاول أن يثبت أن القرآن مطلق وفيه جدل الكون والوجود والإنسان، وهو يصلح لكل زمان ومكان. ويصل إلى أن معجزة القرآن تكمن في الفهم المستمر له عبر العصور من خلال التأويل [19]، ولكل عصر رؤيته وفهمه بحسب تطور فكره وعلومه.

وما الأحاديث النبوية إلا تطبيق زمني يعبر عن فهم النبي للقرآن في عصره فقط. والنبي كان يعرف القراءة والكتابة [20]، وأميته في القرآن لا تعني جهل القراءة أو الكتابة، وإنما تعني أن العرب لم يكن لديهم أنبياء كما لليهود.

لقد تحدث كثير من الباحثين عن هذه القضية وأثارت جدالاً، لكنها في الحقيقة ليست مشكلة لأن القراءة والكتابة لم تكن من مستلزمات الثقافة في ذلك العصر، وقد اعتمدت على المشافهة وهو عصر الثقافة الشفوية، والسماع هو أداة تلقي المعارف. والشعراء الجاهليون كانوا مثقفين من الطراز الأول على الرغم من جهلهم القراءة والكتابة فالأذن هي وسيلة الثقافة في عصرهم!

والتأويل عند شحرور له شروط كما عند د. صعب [21]، وقد استفاد شحرور من البرمجيات وعلوم الكمبيوتر كالذاكرة وتخزين المعلومات الهائلة في أحجام صغيرة من شرائح السيليكون وغيرها، ليفسر المصطلحات: القرآن، الكتاب، أم الكتاب، اللوح المحفوظ، السبع المثاني.. نذكر منها اللوح المحفوظ: وهو لوحة التحكم في الكون وقد برمج القرآن داخله [22]، والكتاب

المكنون: البرنامج الذي بموجبه تعمل قوانين الكون العامة كمعلومات، والإمام المبين: قوانين الطبيعة الجزئية (ظواهر الطبيعة المتغيرة) وفيه أرشفة الأحداث التاريخية بعد وقوعها!

ولسنا ندري مع تأويله ذاك أهو العلم والديالكتيك أم هو صوفية عصرية أم علم الباطن المعلوماتي، فتأويله مبني على ما يريده مسبقاً من المعاني لا على ما يمكن أن تفتحه آفاق القراءة مهما حفرنا في أعماقها!

وهو هنا يتجاهل قضية مهمة وهي الناسخ والمنسوخ وتعدد القراءات، فأيتها هي الثابتة في اللوح المحفوظ؟! علماً بأن هناك من رفض النسخ في القرآن وله تأويلاته المتعلقة بالآيات المتعارضة.

وحاول شحرور أن يثبت أن القرآن يدعم نظرية التطور عند دارون من خلال قصة آدم وحواء وبأن الروح في الآية القرآنية: (قل الروح من أمر ربي) هي لحظة أنسنة البشر، أي تحول البشر الكائن الحيوان من المملكة الحيوانية إلى الإنسان، وعد ذلك الحلقة المفقودة عند دارون!

وقضية تناقض نظرية دارون مع النص الديني قديمة فقد أثيرت ضجة حول ذلك في أوروبا لمخالفتها نص الكتاب المقدس وما يرويه عن بدء الخليقة وقصة آدم وحواء، وفي عصر النهضة عند العرب نشر الشيخ طنطاوي جوهري عام 1910 مقالاً في مجلة "الهداية" حاول فيه التوفيق بين نظرية دارون والإسلام، إضافة لتفسيره العلمي للقرآن كما مر معنا!

إن الاستعانة بالديالكتيك الماركسي والاتكاء على نظرية النشوء والارتقاء لدارون شيء، وإسقاط ذلك على القرآن شيء آخر؛ ففيه تحميل النص القرآني أكثر مما يتحمل، ويعطي الآيات أبعاداً لم تصل إليها شطحات الصوفية في التأويل. كما أن إسقاط النظريات العلمية الحديثة على القرآن عبر تأويل ملفق للآيات فيه إساءة إلى النص لأنه كتاب ديني وليس كتاباً علمياً كما ذكرنا، وقد يعرضه لموقف حرج فيما لو تغيرت معطيات النظرية العلمية!

ويذكر شحرور أن الجنة والنار [23] والملائكة والجن والشياطين حقائق لها ذوات مجسدة لها كينونتها خارج وعي الإنسان وليست رموزاً.

وأقحم العلم والديالكتيك لتفسير السحر أو الشهب التي تطلق على الشياطين التي تريد التنصت إلى عالم السماء.

ومن قراءته أجاز ربا البنوك في الإسلام وإن وصلت فوائدها إلى ضعف مبلغ الدين [24]، وهناك من رجال الدين من سبقه إلى إباحة الربا ولكن ليس إلى إباحة تلك الفوائد الفاحشة.

وبالنسبة إلى تعدد الزوجات رأى أن التعدد في القرآن يتلو الحديث عن الأرامل، فالتعدد من الأرامل فقط. ورفض الحجاب بالاعتماد على تفسيره اللغوي للجيب بالفتحة، والفتحات هي العورة فقط [25]!

ويعلل شحرور عدم إلغاء الرق في القرآن لأنه يخرب القاعدة الاقتصادية السائدة في عصر النبي [26]، ولم يبين الحد الفاصل في تأويل العتق أو الإبقاء عليه!

وقد رفض العلمنة/ فصل الدين عن الدولة، لأنه لا حاجة لذلك ما دام القرآن يفسر بحسب الحاجة ومفاهيم العصر [27]!

وكتابه لم يسلم من النقد الحاد والمؤذي، والهجوم العنيف الذي وصل عند بعض المتشددين إلى تكفيره!

***

القراءة الجديدة للنص القرآني بحسب معطيات العصر مهما تعددت ستبقى ذاتية، وإذا ما تحولت إلى قراءة جماعية لتوحيدها تتحول إلى قراءة مؤسساتية، وهي ستفرض نفسها كحقيقة مطلقة في موازاة النص، وستصير هناك قراءات مؤسساتية متعددة للنص تعبر عن وجهات نظر الطوائف والمذاهب. فبناء على أية قراءة وأية رؤية وأية شروحات وتأويلات، سيقدم النص إلى المسلمين؟!

***

منهج المعتزلة وابن رشد

لقد طرح كثيرون من مفكري هذا التيار ومن مفكري التيار التراثي العلماني، العودة إلى التراث العقلاني تراث المعتزلة والمفكرين والفلاسفة العقلانيين كابن رشد.. لاستنباط منهجيتهم للنهوض، وهو تكرار لما دعا إليه رواد النهضة في المرحلة الأولى من النهوض كما مر.

ولا بد من استعراض النقاط الأساسية التي طرحتها تلك العقلانية لمعرفة آفاقها.

***

1- **منهج المعتزلة**:

رأى أركون أن: (المعتزلة يشغلون وضعاً متوسطاً بين أهل النقل ممن ينزعون إلى التعقيل، وبين الفلاسفة الذين يمثلون ذروة الموقف العقلي والموقف الجانح إلى العلمانية في الفكر العربي) [28].

المعتزلة هم أهل العدل والتوحيد وقد وضعوا المنهج العقلي "علم الكلام" للاستدلال بالبراهين العقلية على العقائد الدينية ولا سيما التوحيد، وطبقوه على الأصول الخمسة الأساسية التي يقوم عليها مبدأ الاعتزال: التوحيد "ذات الله وصفاته وقضية خلق القرآن"، والعدل الإلهي و"المسؤولية" والحسن والقبح، ومنزلة مرتكب الكبيرة بين المنزلتين، والوعد والوعيد في الآخرة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والتوحيد عند المعتزلة أهم تلك الأصول الخمسة: (فقد أثبتوا وحدة الذات الإلهية، ونفوا الصفات الزائدة عن الذات لأنها تؤدي إلى الشرك، ولهذا سموا بالمعطلة) [29]. فالله وصفاته شيء واحد، ونزهوا الله عن التشبه بصفات الإنسان، فهو خلاف ذلك لأنه ليس كمثله شيء، لذلك أولوا آيات التشبيه.

والقول بأن القرآن كلام الله المخلوق المحدث يعني بأنه ليس هو الله الأزلي نفسه، فالكلام سواء أكان جسماً أم عرضاً هو محدث. أما مقولة أن القرآن كلام الله الأزلي فهي تعني الثنائية: فالله قديم أزلي والكلام

"القرآن" قديم أزلي. وقد استفاد التحديثيون من المقولة الأولى حيث يمكن التعامل مع القرآن كأي مخلوق من مخلوقات الله في هذا الوجود.

وقضية العدل الإلهي ارتبطت بمسؤولية الاختيار الدينية فهي حرية الفعل مقابل الثواب والعقاب لرفع الظلم عن الله لذلك أولوا الآيات التي تشير إلى الجبرية. ولكن الحرية هذه لم ترتق إلى مستوى مفهوم الديموقراطية، ولم تكن حرية الفكر واردة في ذهن المعتزلة كما يقول د. زكي نجيب محمود: (فلم تكن حرية الفكر ذات موضوع) [30].

والعدل الإلهي لم يكن هدفه الموازنة بينه وبين عدل الحاكم لفضح الحاكم كما رأى د. أركون حيث زعم بأن التأكيد على عدل الله: (كان وسيلة لفضح ظلم الحكام، الأمر الذي ينطوي على رباط يتصل بالقدرية بل وبالخوارج) [31]، فالقضية دينية، والمعتزلة لم يستخدموا العقل ليحرروا الفكر والإنسان، فقد فرضوا الأحادية المغيبة لما عداها، ومارسوا إذلال الآخرين وإهانتهم واضطهادهم وقمعهم تحت شعار "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" [32]!

إن المعتزلة لم يكونوا عقلانيين بالمطلق وقضايا العقل عندهم محددة، يقول د. خليل أحمد خليل: (لقد بات محققاً أن مسعى المعتزلة للتقريب بين المعقول والمنقول سيأخذ المنحى التوفيقي الذي يصل، أحياناً، إلى مرتبة التلفيق) [33].

وقد قدموا كل ما عندهم ولم يبق أي شيء في جعبتهم لذلك انتهوا، والفكر في النهاية - في تلك العصور- محكوم ضمن منظومة دينية سياسية اجتماعية اقتصادية مغلقة، وليس بوسعه تجاوز تلك المنظومة دونما حدود. وليس صحيحاً تعليل أركون لنهايتهم فهو في الوقت الذي هاجم فيه الدوغمائية الماركسية في جعل الاقتصاد المحرك الوحيد، نسي ذلك وهو يتحدث عن سقوط المعتزلة فقال بأنهم كانوا مدعومين من التجار، ولما ضعف حال التجار واضمحل نتيجة تحول التجارة إلى المتوسط على يد الإيطاليين، تخلوا عن المعتزلة فانتهوا!

وقد شكك نصر حامد أبو زيد بعقلانية المأمون فتساءل هل موقف المأمون نتيجة عقلانيته، أم سلطته الغاشمة القامعة لمن لا يطيع، أم لهدف غير معلن وهو تأديب بعض الحنابلة لأنهم رفضوا الانصياع لسلطة عسكره في بغداد في الوقت الذي كان مشغولاً بقتال أخيه الأمين في مرو؟!

لقد استمر الفكر المعتزلي أربعة عشر عاماً في عهد المأمون والمعتصم والواثق، إلى أن جاء المتوكل فقضى على الفكر المعتزلي. ولم يتمكن الأشاعرة من الحلول مكانهم مع أنهم كانوا وسطاً بين المعتزلة والسنة، والسبب أنهم لم يخرجوا على المعتزلة في كل القضايا ولم يتخلوا عن العقل كلياً.

إن الدعوة لإحياء منهج المعتزلة لن يفيد إلا في إصلاح العقيدة والدين وليس التحديث. وتبني المنهج العقلي في قراءة الخطاب الديني لا يتطلب العودة لهم إنما يكفي التأكيد على سيادة العقل وبأنه هو الذي يقرر الحسن والقبح أي بوضع العقل قبل النقل، وهذا جوهر الموضوع لأن النقل والعقل هما محور الصراع الفكري بين المحافظة والتحديث!

***

2- **منهج ابن رشد**:

ليس المقصود هنا دراسة فكر ابن رشد فهذا خارج إطار البحث، مع العلم بأن له آراء جيدة تتعلق بهدفية الإنسان في إسعاد الآخرين، وأيضاً رفعه لشأن المرأة ومطالبته بإعطائها حقها أكثر مما هو سائد في عصره، فهي في نظره كالرجل عليها أن تخدم الدولة والمجتمع، وإذا ما فتحت لها المجالات يمكن أن تصير فيلسوفة أو حاكمة أو قائدة جيش..

وما يهمنا هنا أنه يمثل ذروة الفلاسفة الإسلاميين والاتجاه العقلاني، ولكن العقلانية كلمة فضفاضة ونسبية، ولم تكن عقلانية ابن رشد مطلقة، ولأركون تحفظات عليه: (ولكني لا أتبع ابن رشد في عقلانيته المركزية المغلقة، ولا أتبعه في ممارسته لوظيفة الفقه لأنه كان فقيهاً دوغمائياً يطبق قواعد الاجتهاد كأي فقيه آخر).

وأهم ما طرحه ابن رشد هو:

1- التوفيق بين الفلسفة/ الحكمة/ العقل/ الرأي، والدين/ الشريعة/ الوحي.

2- التوفيق بين العلم والدين.

3- التأويل: الشرع له ظاهر وباطن فإن حصل تعارض بين الظاهر والعقل فلا بد من التأويل للوصول إلى باطن النص العقلاني. وتأويل الشرع خاص بالفلاسفة لأنهم يدركون مقاصد الدين. وابن رشد صاحب مدرسة تأويل النصوص الدينية عقلياً، والتي لا يمكن أن تحظى بالإجماع، لذلك لا يجوز تكفير أحد على تأويله كما قال.

4- منطق أرسطو: هاجم منهجية المعتزلة في علم الكلام، واعتمد على منطق أرسطو.

يرى ابن رشد أن الفلسفة تدعم الدين ولا تناقض بين العلم والدين، وقد وظف الفلسفة لصالح الدين فهي فلسفة دينية حاولت التوفيق بين النقل والعقل، باللجوء إلى التأويل في حالة التضارب بينهما.

لم تعد هناك أية إضافات جديدة على قضية العقل والنقل، لأن الإيمان والعقيدة والعبادات قائمة على النقل وليس العقل، أي التسليم مسبقاً، وليست هذه إشكالية العصر.

أما قضية الظاهر والباطن التي طرحها ابن رشد ووردت عند الباطنيين الإسلاميين قديماً بتأثير من الغنوصية اليهودية والمسيحية فلم تصل إلى رؤية واحدة. والتأويل الذي يكشف الغطاء عن الباطن لا يستند إلى أية أسس علمية أو منطق، وإن حاول البعض وضع ضوابط له، فهي مزاجية فردية تعكس مفاهيم وثقافة محددة تسقط قسراً على النص.

وهناك مفكرون كثيرون من التيار الديني التحديثي نظروا إلى خطاب القرآن كمجاز عقلي غير حقيقي، كما أن هناك كثيرين أيضاً من التيار التراثي العلماني تبنوا تلك الأفكار كمحمد أركون ونصر حامد أبو زيد [34].. وتلك القراءة تؤدي إلى قراءة جديدة تخرج كثيراً من آيات القرآن من الأحكام التي تشير إليها الدلالة المعجمية الحرفية التي تمسك بها الأصوليون.

والمجاز إن قبل لتأويل صفات الله المادية لأنه (ليس كمثله شيء)، ولكن لا مرجعية له في بقية القرآن كمعاني الجنة والنار والجن والملائكة والبعث والقصص كقصة آدم وحواء وإبليس.. فهذه الكلمات عند الأصوليين حقائق حرفية وليست مجازية، بينما هي عند أولئك مجازية ورمزية!

فإذا كان المجاز هو ما يرفضه العقل كحقيقة حرفية، فعقل من الذي يقرر الحقيقة أو المجاز؟!

تحدث د. أحمد داود عن قضية الظاهر والباطن في النص القرآني، والباطن كما يعتقد يدرك من خلال التأويل والفهم العميق: (إن الوقوف عند ظاهر المعنى فقط في كثير من آيات القرآن الكريم يحدث تناقضاً عقلياً لدى ذوي العقول العاملة والأفهام النيرة، مما يدفعهم إلى الولوج إلى ما هو أعمق من ظاهر المعنى) [35]. وهو يرى أن الجنة والنار نعيم روحاني وليس مادياً ومتعاً جنسية [36]. ويستخدم حساب الجمل لفهم باطن القرآن كما في شرحه للآية (سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً) [37].

ويصل في إطار تحليله لكلمة "طائر" في الآية القرآنية (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه) إلى أن اللغة العربية مقدسة سماوية: (وإن هذا، في حد ذاته، يضعنا أمام عبقرية اللغة العربية ذاتها التي حق لأبنائها أن يعتبروها لغة سماوية مقدسة) [38]!

والباطنية عند أهل السنة كما يعرفها ابن الجوزي: (الباطنية: سموا بذلك لأنهم يدعون أن لظواهر القرآن والأحاديث بواطن تجري من الظواهر مجرى اللب من القشر، وأنها بصورتها توهم الجهال صوراً جلية. وهي عند العقلاء رموز وإشارات إلى حقائق خفية. وإن من تقاعد عقله من الغوص على الخفايا والأسرار والبواطن والأغوار، وقنع بظواهرها كانت تحت الأغلال التي هي تكليفات الشرع. ومن ارتقى إلى علم الباطن انحط عنه التكليف واستراح من أعبائه) [39].

لقد انتقد المفكرون العقلانيون الباطنية والعرفانية عند أهل الباطن جميعاً ولا سيما الإسماعيليين، فرسائل (إخوان الصفا وخلان الوفا) [40] الموسوعة الإسماعيلية الشاملة لمعارف وعلوم عصرها في القرن العاشر الميلادي،

عدها أنصارها بأنها فلتة من فلتات الزمان في العلم والمعرفة، بينما نجد في خاتمة رسائلهم مثلاً رسالة تتحدث عن ماهية السحر والعزائم والعين بيقين مطلق، وقد رأى د. زكي نجيب محمود أن حركة إخوان الصفا كفكر: (امتزج فيه الأساس العقلاني بالتهاويم الخرافية الشاطحة) [41]!

وقال د. محمد عابد الجابري عن الكشف العرفاني بأنه: (ليس شيئاً فوق العقل كما يدعي العرفانيون بل هو أدنى درجات الفعالية العقلية. ليس شيئاً خارقاً للعادة، ليس منحة من طرف قوة عليا بل هو فعل العادة الذهنية غير المراقبة فعل الخيال الذي تغذيه، لا المعطيات الموضوعية الحسية ولا المعطيات العقلية الرياضية، بل معطيات الشعور حالم غير قادر على مواجهة الواقع والتكيف معه والعمل على السيطرة عليه سيطرة عقلية أو مادية أو هما معاً، فيلجأ إلى نسج عالم خيالي خاص به ينتقي عناصره من الدين والأساطير والمعارف الشائعة، والتي تحمل طابعاً سرياً بصفة خاصة. وبما أن أرض الواقع تكذب هذا العالم، وبما أن التاريخ يرفضه، فإن العرفاني يهرب به إلى عالم الميثولوجيا "المُفَلسَفة"، عالم الأفلاك والعقول السماوية الإلهة، عالم أسطورة الإنسان السماوي - أو الإنسان الكامل- التي تجد أصلها في الديانات القديمة والتي تبنتها الهرمسية وجعلت منها أحد عناصر فلسفتها الدينية الأسطورية الطابع، "فلسفة" المبدأ والمعاد) [42].

وذكر الجابري أن الجهد الذي بذله الفلاسفة الإسماعليون وعلى رأسهم الكرماني ليس هدفه تسويد العقل إنما (نفي العقل) [43]!

إن سبيل فهم النص القرآني هو اللغة ومدلولاتها بما في ذلك البلاغة الفنية كالاستعارة، لأنه باللغة العربية ويخاطب العرب ليفهمه كلهم وليس فيه لغتان. أما القول بأن ذلك هو الظاهر وهو لمن عقله محدود ساذج وغبي، منحط القدرات لأنه لا يستوعب العمق والإشارة والمجاز وما وراء النص.. فهذا يدل على الغطرسة والتبجح والتعالي، والاستخفاف بعقول الآخرين، لأنه يقسم الناس إلى قسمين: ذاك العقل المحدود أحدهما، أما

الآخر فهو النخبوي العبقري "الأرستقراطي" الذي يمتلك المعرفة والفهم، بينما هو يميع الفهم ويضيع المعاني.

والرؤية الباطنية قراءة خاصة تخلق نصاً آخر موازياً للنص الأول ولكنه لا يمت إليه بصلة، وعلى الرغم من ذلك تمنحه الرؤية القداسة كما هي للنص الأصلي.

واللجوء إلى خلق نص جديد له دوافع عديدة فقد يكون منبعها عدم اقتناع القارئ بما يطرحه النص الظاهر لتعارضه مع العقل في الوقت الذي يؤمن به بأنه نص إلهي. أو يريد القارئ خدمة أفكار مسبقة يبحث عن شرعية لها فيوظف النص ليدعم تلك الأفكار والمفاهيم. أو قد يدفع الإيمان بالبعض إلى نوع من الحب والغيرة فيحمل النص أبعاداً لا حصر لها ليمنحه أكثر ما يستطيع من العظمة والتفرد وهو بذلك يحمل النص ما لا يستطيع النص أن يحمله، فتؤدي محبته المفرطة إلى نتائج عكسية. ويمكن أن نضيف هنا رأي ابن تيمية الذي يرفض التأويل والظاهر والباطن لأن تلك المقولات تتهم النبي وصحابته بالجهل لعدم معرفتهم بها [44]!

إن كل أطروحات المجاز والباطن لن تصل إلى فضاء العقلانية والتحديث، ولكنها يمكن أن تصل إلى إصلاح الدين فقط وضمن أفق محدود!

ونحن لا نشك بأن هدف مفكري التحديث هو الوصول إلى ما هو أبعد من الإصلاح الديني، ولكن المنهج الذي استخدم في التحليل والرؤى وما وصل إليه لا يدل على ذلك، فهناك طرح مقدم عندما نقرؤه ونحلله وننظر في آفاقه وفضائه ونتائجه فلا نجد أمامنا غير ما قلناه!

ولو استمرت أطروحات المعتزلة وابن رشد في تلك العصور فلن تبلغ الحضارة ذروة جديدة يخترع العرب فيها آلة الطباعة [45] أو الآلة البخارية في ذلك الوقت!

إنها لن توصل إلى أي جديد فالحضارة قدمت أقصى ما تستطيع واستهلكت تماماً، ولم تعد تحمل سمات التجديد والإبداع لأن عوامل النمو الداخلي توقفت وانتهت عند أفق مقيد بظروف مكانية وزمانية!

* * *

الهوامش

(1) حسن صعب: تحديث العقل العربي - ص 4.

(2) المصدر السابق - من المقدمة.

(3) المصدر السابق - ص 14.

(4) حسن صعب: الإنسان العربي وتحدي الثورة العلمية التكنولوجية - ص 158.

(5) حسن صعب: الإسلام وتحديات العصر - ص 54.

(6) المصدر السابق - ص 105.

(7) حسن صعب: تحديث العقل العربي - ص 86.

(8) المصدر السابق: ص 98.

(9) حسن صعب: الإسلام وتحديات العصر - ص 194 وما بعد.

(10) محمد عابد الجابري: تكوين العقل العربي - ص 136.

(11) راجع كتاب: بنية العقل العربي لمحمد عابد الجابري.

(12) زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي - ص 136.

(13) د. حسن صعب: تحديث العقل العربي - ص 108.

(14) المصدر السابق: ص 111.

(15) المصدر السابق: ص 101.

(16) حسن صعب: الإسلام وتحديات العصر - ص 48.

(17) حسن صعب: تحديث العقل العربي - ص 107.

(18) راجع كتاب الإسلام وتحديات العصر لحسن صعب - الحوار مع أدونيس ص 209 وما بعد..

(19) محمد شحرور: الكتاب والقرآن - قراءة معاصرة - ص 177 وما بعد.

(20) المصدر السابق - ص 139. وهذا ما ذهب إليه د. أحمد داود في كتبه مثل كتابه "العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود" - ص 288" فهو يعتقد بأن الأمي هو المنسوب إلى الأميين وهم بنو إسماعيل

بن إبراهيم، وقد أطلقها عليهم بنو عمهم أبناء يعقوب ليعيروهم بأنه لم يظهر منهم نبي أو ليس لهم كتاب سماوي.

(21) محمد شحرور: الكتاب والقرآن - قراءة معاصرة - ص 196. وهو يضع ست قاعدات للتأويل. وكنموذج لتأويلاته يؤول الشهر في "سورة القدر" من الشهرة وليس الفترة الزمنية كما في ص 205!

(22) المصدر السابق - ص 92 وما بعد..

ومحمد أركون في كتابه "الفكر الإسلامي - ص 50" حاول التمييز بين تلك التسميات.

(23) عد كثير من المتصوفة قديماً الجنة والنار رمزين لا أكثر، وكذلك بعض الفلاسفة كابن رشد.

(24) محمد شحرور: الكتاب والقرآن - قراءة معاصرة - ص 470.

(25) راجع في كتابه: المرأة في الإسلام: قضية المرأة والتعدد، لباس المرأة ص 592 وما بعد.. وتفسيره للجيب وعورة المرأة أثارت حفيظة منتقديه أكثر من أية قضية أخرى!

(26) ادعاء شحرور وغيره بأن عدم إلغاء الرق في الإسلام لأنه وسيلة للإنتاج، وتحريره يعني تدمير العلاقات الإنتاجية، غير صحيح!

لقد كان الرق عماد الزراعة في الولايات الجنوبية الأمريكية، والرئيس لنكولن عندما أصدر قراراً بإلغاء الرق عام 1860 كان يعرف خطورة ذلك على العمل الزراعي في الولايات الجنوبية، ولكنه مضى في تنفيذ قراره من منطلق إنساني مع أنه أدى إلى حرب أهلية، ونجح في النهاية في تطبيق القرار والانتصار في الحرب الأهلية. راجع كتاب: "الرق - ماضيه وحاضره"، تأليف: عبد السلام الترمانيني.

(27) محمد شحرور: الكتاب والقرآن - قراءة معاصرة - ص 719 وما بعد.

(28) د. محمد أركون: الفكر العربي - ص 111، 112.

(29) د. محمد علي أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام - الجزء الأول - ص 157. وراجع كتاب "مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين" لأبي الحسن الأشعري ص 582 وما بعد، وكتاب: "شرح الطحاوية في العقيدة

السلفية" لصدر الدين علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي، تحقيق أحمد محمد شاكر.

(30) د. زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي - ص 188.

(31) د. محمد أركون: الفكر العربي - ص 73.

(32) رفض الإمام أحمد بن حنبل القول بخلق القرآن في عهد المأمون، ومات المأمون قبل مقابلته، وفي عهد المعتصم تعرض ابن حنبل للتعذيب والضرب والسجن!

(33) د. خليل أحمد خليل: مستقبل الفلسفة العربية - ص 46.

(34) راجع كتاب نصر حامد أبو زيد: "دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة". وهو في كتابه عن ابن عربي "هكذا تكلم ابن عربي - 2001" يتحدث عن رؤيته لجدلية الظاهر والباطن في النص القرآني، وتأسيسه لدين الحب بين الحق والخلق يتجاوز العقائد والأديان فقلبه المفعم بالحب الإلهي يتسع لكل دين، فتكون تلك النظرة الإنسانية كونية تتسع لكل الثقافات والحضارات!

(35) د. أحمد داود: تاريخ سوريا الحضاري القديم 1- المركز - ص 357.

(36) المصدر السابق - ص 308.

(37) المصدر السابق - ص 585.

(38) المصدر السابق - ص 322.

(39) ابن الجوزي: تلبيس إبليس - ص 111. وهي رؤية المتصوفة أيضاً كما يذكر في ص 372. والغزالي في كتابه "فضائح الباطنية" لا يخرج تعريفه عن تعريف ابن الجوزي كما ورد في ص 11. وراجع كتاب: "الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة" لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله.

(40) عددها 52 رسالة، اعتمد معظمها على التجميع، وقد تناولت في موضوعاتها الفلسفية: الله، الروح/ النفس "النفس هي الروح عندهم"، الكون "قديم/ محدث"، الخلود والفناء، الوحي/ النقل والعقل، حرية الإنسان..

وقد ادعى أنصارها بأنها توصلت إلى نظرية النشوء والارتقاء، كما عند ابن خلدون في مقدمته!

(41) د. زكي نجيب محمود: المعقول واللامعقول - ص 191.

(42) محمد عابد الجابري: بنية العقل العربي - ص 378.

(43) الجابري: تكوين العقل العربي - ص 207.

(44) كتب ابن تيمية الكثير في نقد تلك المقولات، راجع على سبيل المثال كتابه: درء تعارض العقل والنقل.

(45) في القرن الثامن نقلت الطباعة عن الصين، وانتشرت معامل الورق في العالم الإسلام ولكن كان نسخ الكتب يدوياً ولم يعمل الحكام على تطوير الطباعة كيلا ينتشر العلم والثقافة!

وقد طرح د. أحمد سليم سعيدان في كتابه "مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الإسلام - ص 131 وما بعد"، السؤال التالي: لماذا لم يخترع العرب الطباعة، وقد كانت الطريقة القديمة الصينية "القوالب" مقتصرة على الرسائل وشؤون الدولة، أما الكتب فقد بقيت تنسخ باليد؟

بينما أوروبا في القرن الخامس عشر طورت الطباعة فاخترعت آلة الطباعة مع أنها كانت دون العرب معرفة وثقافة!

* * *

المرحلة الثالثة من النهوض:

2- **التيار التراثي العلماني**

معظم دراسات هذا التيار تستند إلى أحدث ما وصلت إليه نظريات المعرفة الإنسانية. ومع أن المنهجية العلمية في التحليل والنقد مهمة جداً، ولكن الأهم هي النتائج التي يريد صاحبها الوصول إليها، فدراسة البنية بتفكيكها وتحليلها شيء، وتجديد تلك البنية شيء آخر!

وسنستعرض ثلاثة مفكرين من هذا التيار: د. زكي نجيب محمود، د. أدونيس، د. محمد أركون.

1- **د. زكي نجيب محمود**:

الحل الذي يقدمه زكي نجيب محمود للتجديد هو الغربلة وهي قائمة على المذهب النفعي/ البراغماتي: (فإذا كان عند أسلافنا طريقة تفيدنا في معاشنا الراهن، أخذناها وكان ذلك هو الجانب الذي نحييه من التراث، وأما ما لا ينفعنا نفعاً عملياً تطبيقياً فهو الذي نتركه غير آسفين)، (نأخذ من تراث الأقدمين ما نستطيع تطبيقه اليوم تطبيقاً عملياً..) [1]، وما لا ينفع يوضع على الرف لينفع المؤرخين فقط. فالعلاقة بين القديم والجديد قائمة على رابطة بين الآباء والأبناء في: (النظرة العقلانية المنزهة عن الهوى) [2].

ويؤكد على الثنائية الروحية والمادية والتي تشطر الوجود إلى شطرين: (الخالق والمخلوق، الروح والمادة، العقل والجسم، المطلق والمتغير، الأزلي والحادث، أو قل هما السماء والأرض، إن جاز هذا التعبير) [3]، والثنائية هذه تجعل: (للشطر الروحاني الأولوية على الشطر المادي، فهو الذي أوجده، وهو الذي يسيره، وهو الذي يحدد له الأهداف) [4].

وهي: (تضع الإنسان على قدميه فوق الأرض، وترفع رأسه إلى السماء، أي أنها تتيح له أن يعيش لهما معاً: فعلى الأرض يسعى علماً وعملاً، بكل

ما يتطلبه العلم من دقة، وما يتطلبه العمل من صبر ودأب، وفي السماء يهتدي بالمثل التي ترسم أمامه لتكون له على الطريق أهدافاً وغايات) [5].

والتراث كما يرى مزيج من المعقول واللامعقول؛ فالمعقول يصلح ربطه بالحاضر، واللامعقول لا يصلح كالتصوف والكرامات والأولياء والسحر والتنجيم.. إلا أنه يذكر: (إن دراستنا للتراث دراسة علمية واعية تنتهي بنا هي نفسها إلى ترك مادة التراث من حيث هي مضمون فكري بذاته وخصائصه) [6].

وهو يستثني من الغربلة القيم: (الإسلام مجموعة من القيم التي لا أحسب عاقلاً على وجه الأرض يرفض شيئاً منها من حيث هي مثل عليا) [7]. لكنه لم يحدد تلك القيم المطلقة، والتي تضيع عندما يطالب بأن يكون التحول من الجذور والمبادئ: (لا تحول إلا إذا بدأناه من الجذور: من المبادئ، نقتلعها لنضع مكانها مبادئ أخرى فنستبدل مُثُلاً عليا جديدة بمثل كانت عليا في أوانها ولم تعد كذلك) [8].

والتحول يمس النص القرآني، وإن ورد كمثال وليس ضمن منهجية واضحة كحديثه عن القوامة والتعدد وهما من آيات القرآن، فهو يتحدث مثلاً عن المرأة المتعلمة والمثقفة إذا كانت وزيرة أو عضوة في مجلس الشعب أو دكتورة في القانون.. فهل يمكن أن يقال لها: (ما كان يقال لسالفتها من قوامة الرجال عليها بالمعنى القديم، ومن حق الرجل في أمثالها العاملات العالمات المثقفات القائدات مثنى منهن وثلاث ورباع..) [9]!

والمعقولية في التراث تبدأ من المعتزلة والأشاعرة معاً: (فإذا شئنا أن يكون لنا موقف نستمده من تراثنا فليكن هو موقف المعتزلة والأشاعرة معاً) [10].

ولكنه عندما يتحدث عن فكر العلاف المعتزلي يقول بأنه لا ينفع المعاصرة إلا إذا أخذنا نتفاً منه: (الإيمان بقدرة الإنسان على الاختيار الحر المسؤول) [11]. وما يبقيه من العلاف والنظام المعتزليين الإطار النظري العقلي الذي يستند إلى الاستدلال المنطقي الذي لا تشعر به الأهواء!

فالاستفادة هي من منهجية الفكر المعتزلي لأن المعتزلة: (جعلت "العقل" مبدأها الأساسي كلما أشكل أمر) [12]، (إطار النظر العقلي، الذي يحاول أن يحتكم إلى الاستدلال المنطقي الذي لا تشوبه الأهواء) [13]، (فإذا أخذنا عن الأسلاف منظار العقل، الذي استخدموه وهم أشداء أقوياء، انبثقت على الفور أسس جديدة نقيم عليها حياتنا الفكرية بدل الأسس السائدة..)، والأسس ترفض الأفكار التي تهبط: (كالقدر على رؤوس الناس) [14].

وتلك الاستفادة من التراث العقلاني هي شكلية لأنها في الصورة لا في المضمون أي الأفكار التي ناقشوها: (ما نأخذه من تراثنا هو الشكل دون مضمونه) [15].. (الإحياء الصحيح هو أن يأخذ العربي المعاصر من موقف العربي القديم صورته لا مادته) [16].

ومقابل تأسيسه للفكر العقلاني ينتقد سيطرة العواطف والمشاعر على العربي: (نحن في حاضرنا الثقافي والعملي رومانسيون بمعنى الدفعة الغريزية والنفور من كل ما يحيط بالتفكير العقلي من ضوابط وحدود، فالرومانسية في جوهرها ضيق بالقواعد والقوانين، حتى لو كانت هذه القواعد والقوانين قد وضعت لضبط معايير الأخلاق ومعايير الفنون، فوسيلة الرومانسي في إدراك ما يدركه هي وجدانه لا منطق عقله، ما ينبض له قلبه هو الحق، واقذف في جهنم ما قد يمليه عليك منطق العقل إذا جاء مخالفاً لما مالت إليه العاطفة) [17].

تطرح رؤية د. زكي أسئلة إشكالية:

من الذي يحق له أن يغربل، أن يختار، أن يحدد ما هو معقول وصالح للعصر، ويرفض ما عدا ذلك؛ أهو عقل الفرد أو عقل مجمع التجديد، وما الأسس العلمية العقلانية التي يستند إليها؟ وما مدى الثنائية المادة والروح، وما حدودهما والعلاقة الجدلية بينهما في غربلة بعض القضايا؟

وما فائدة تكرار مقولات المنطق والعقل والعلم دونما تحديد واضح وملموس لكل صغيرة وكبيرة؟

***

2- **د. أدونيس**:

يرى أدونيس أن التراث هوية الأمة، والبحث فيه هدفه الكشف عما يحمله من طاقة تضيء المستقبل: (أما من ناحية الارتباط بالتراث، فيجب أن يكون مع التحول: مع عناصره الأولى وآفاقه. لكن هذه العناصر لا قيمة لها من حيث أنها ماض، وإنما قيمتها في كونها تختزن طاقة في إضاءة المستقبل، أي في مدى قدرتها على أن تكون جزءاً من المستقبل) [18].

والمجتمع العربي بنيته دينية: (إن البنية التأسيسية للمجتمع العربي هي البنية التي غلبت عليه، في مساره التاريخي، وإنها بنية دينية) [19].

والدين يفرق ولا يوحد: (فالدين لا يوحد بين الإنسان والإنسان، بل على العكس، يفرق بينهما. أما الذي يوحد بينهما فهو العقل). ويصل إلى نتيجة ذلك بأنه: (لا بد إذن من إزالة الدين من المجتمع، وإقامة العقل)، (والإزالة هنا لا تقتصر على الدولة أو الدين العام، بل يجب أن يزال الدين الخاص أيضاً، أي دين الفرد ذاته) [20].

فالنهضة كما يرى لا تكون إلا بهدم تلك البنية التقليدية الدينية: (لا يمكن، بتعبير آخر، كما يبدو لي، أن تنهض الحياة العربية ويبدع الإنسان العربي، إذا لم تتهدم البنية التقليدية السائدة للفكر العربي) [21].

و(تحرير العربي من كل سلفية، ووجوب إزالة القدسية عن الماضي والنظر إليه كجزء من تجربة أو معرفة غير ملزمة إطلاقاً، والنظر إلى الإنسان، تبعاً لذلك، على أن جوهره الإنساني الحقيقي هو في كونه خلاقاً مغيراً أكثر منه وارثاً ومتابعاً) [22].

وهو يرى أن الإلحاد حرر الإنسان من الله، في الوقت الذي يرى فيه أن التصوف: (حرره من الشريعة واضعاً الله في الإنسان)، والله: (هو الإنسان نفسه في تحققه الأكمل) [23].

ولكن التهديم عند أدونيس ليس شمولياً وعاماً بل هو ضد تيار محدد، التيار التقليدي الاتباعي، وليس ضد التيار الثوري المتغير والمبدع الذي تتضح هويته في: (جدلية الظاهر والباطن والمرئي واللامرئي، هي التي تفصح عما سميناه بزمن الإبداع) [24].

ومن خلال حديثه عن الطبقات المسحوقة يتضح مفهوم أهل الظاهر وأهل الباطن: (وقد تمثل التحول على الصعيد النظري الفكري، بما سمي الباطن أو الحقيقة، مقابل الظاهر أو الشريعة، وتمثل على الصعيد السياسي الاجتماعي، بالدعوة إلى الاشتراكية أو المساواة الاقتصادية. واقترن النظر بالعمل فكانت الثورة المستمرة) [25].

وبما أن الصوفية برأيه ترى الحقيقة، فهي تجاوز للشريعة/ الظاهر الحرفي، والعالم الحقيقي هو عالم الباطن عالم الحرية، فالصوفية ثورة [26].

ورأي أدونيس هنا يلتقي رأي د. العروي و د. حسن حنفي: فالحرية بالمفهوم الفلسفي المطلق تحققت عند المتصوفة وما الفناء الإشراقي إلا التفاني الكلي في فكرة الحرية، والمتصوفة الأوائل هم من عبر عن روح الإسلام، وليس الفقهاء أو علماء الكلام.

ويفرق بين باطنية الإسماعلية وباطنية الصوفية بعد أن يتحدث عن البسطامي والحلاج.. فالقرمطية: (تبني مجتمع الفقراء والاشتراكية)، والصوفية: (ترفض الجماعية، وتقيم الدخيلاء الذاتية) [27].

(الصوفية رؤيا ثورية) والتاريخ يعيد نفسه إن كان تقليداً واتباعاً، ولا يعيد نفسه إن كان إبداعاً في الثورة والتغيير [28].

والفرق المعارضة هي الثورية: (وهكذا ارتبطت الحركات الفكرية الرفضية دائماً بحركات ثورية)، وهي تعمل على: (تأويل الدين تأويلاً يلائم الحياة الإنسانية القائمة)، (ولهذا كانت الحركات الثورية التي استندت إليه تهدف إلى إزالة النظام القائم، أكثر مما تهدف إلى إقامة الحرية). والحركات الباطنية: (كانت رفضاً لشروط المجتمع القائم وعملاً لتغييرها)، ولكن نقدها كان طوباوياً مذهبياً [29]، وتتميز بردود أفعال أكثر من فعالية!

والسلطة دائماً قمعية اتباعية تقليدية برأيه، وهذا ينساق على التيار السني فهو سلفي تقليدي اتباعي، وبالتالي الباطنية أو الرافضة "الدين الشيعي/ العلوي" هي المتحول والمبدع والمطور [30].

لكنه يستثني منهجية المعتزلة لاعتمادها على العقل مقابل النقل: (الاعتزالية، في إطار النقلية الدينية كانت ثورة حقيقية، فلم يعد النقل

محور المعرفة، بل صار العقل محورها) [31]، و(الاعتزال لا يرى أن العقل مناقض للدين، بل يرى أن الدين هو نفسه عقل) [32].

ولكن أدونيس يرى من جانب آخر أن المعتزلة فصلوا بين الله والإنسان وبالتالي ثورتهم ليست أصيلة إنما هي ثورة منهجية، بينما الإمامية الصوفية أقامت جدلاً بين الله والإنسان بين المرئي واللامرئي!

وبما أنه مؤمن بأن للقرآن ظاهراً وباطناً، و(الباطن هو النور الذي يكشف ويضيء، وهو المعنى الذي يعطي للوجود صورته، أي قيمته ودلالته) [33].

والتأويل عنده هو الكشف عن المعنى الباطني عرفانياً: (إدراك الحقيقة لا يتم استناداً إلى العقل أو إلى النقل، لأن الحقيقة ليست في ظاهر النص، وإنما يتم عن طريق تأويل النص بإرجاعه إلى أصله والكشف عن معناه الحقيقي. والتأويل مرتبط بعارف يدرك المعنى الباطن، وهذا العارف هو الإمام).. (ومن هنا يعطي القول بالباطن للدين حركية لا تتناهى) [34].

والتأويل هو رؤية تنسجم مع التاريخ: (التأويل هو قراءة لنصوص الوحي بشكل لا يتعارض مع حركة التاريخ، بل على العكس، يتوافق معها) [35]، وبالتالي هو: (صيغة عقلية لفهم الحركة التاريخية والتآلف مع تغيرات الزمن) [36]. والمقصود من العقلانية هنا هو عقلانية العارف بالله والمدرك لمعنى الباطن وهو الإمام!

والمجاز هو تأويل أيضاً: (وليس المجاز إلا اسماً آخر للتأويل) [37]!

فالنص الديني البنية عند أدونيس يحتاج إلى تأويل وفهم، وفيه تكمن الحقيقة، والذي يحق له التأويل للكشف عن الحقيقة هو الإمام العارف بالله، وهو الثورة: (ومن هنا يمكن اعتبار مفهوم الإمامة ثورة دينية - اجتماعية في آن)، (فكرة العدالة المستمرة اجتماعياً، تقابلها، دينياً، فكرة الإمامة المستمرة) [38]، (وقد اقترن القول بالإمامة، تاريخياً، بإعلان الثورة في سبيل القضاء على الظلم والجور، وإقامة الحق والعدل) [39].

وقضية الإمامة/ الولاية العارفة والمعصومة هي جوهر الفكر الشيعي بكل تفريعاته عبر التاريخ، وما يقوله أدونيس هو أدلجة تحديثية تعطيها بعداً ثورياً وإضاءة ونوراً وعلماً، لأن بيدها الحل لكل الإشكالية: (ولئن كانت النبوة

المحمدية خاتمة النبوات، فإنها خاتمة الظاهر، ذلك أن لها ما يتممها في الباطن وهو الإمامة أو الولاية. فالولاية، بهذا المعنى، هي باطن النبوة. النبوة، بتعبير آخر، هي الشريعة، أما الولاية فهي الحقيقة) [40].

فإذا كان مقام الإمام عملياً فوق مقام النبي لأن الإمام هو الباطن والجوهر والحقيقة، فمن البديهي أن يكون فوق الخليفة/ الحاكم/ السلطة: (ويختلف الإمام عن الخليفة في أن الإمامة أولاً حق أصلي، أما الخلافة فسلطة اكتسابية واقعية).. والفرق بين الخلافة والإمامة: (الخلافة عن الرسول مطلقة في مسائل الدنيا لكنها مقيدة في مسائل الدين، أما الإمامة فمطلقة في الدين والدنيا)، والإمام ينوب عن الله نفسه: (الخليفة ليس نائباً عن الله، أما الإمام فينوب عنه) [41].

وهو يهاجم الكتب التي شوهت فكر الفرق الباطنية: (فإن المخطوطات التي أتيح لي أن أطلع عليها والتي كتبها أشخاص من هذه الفرق ذاتها، تناقض، جوهرياً، ما ينسب إليها من أفكار ومعتقدات في الكتب المطبوعة المشهورة) [42].

وتلك الطوائف: (كانت في هذا المجتمع نواة لذهنية مقابلة، تحاول أن تفجر المجتمع، أطراً ومفهومات، في اتجاه التحول)، وهي أيضاً: (خلقت مفهومات جديدة للصلة بين الله والإنسان، وبين الإنسان والإنسان. وأعطت للدين والسياسة والحياة أبعاداً جديدة) [43].

تلك قراءة أدونيس العلماني للتراث، ففي الوقت الذي يطالب فيه بإلغاء الدين وإحلال العقل مكانه، يطرح بقاء ما هو مشرق في التراث ومفيد للتحديث ولا يطرح هنا الغربلة، فقد غربل التراث ووجد أن معرفة الباطن لا تستند إلى العقل ولا إلى النقل وإنما إلى علم لدني خاص بالعارفين، والعارف هو الإمام القادر على الغوص في أعماق النص وفهمه وإعطاء الدين مفهوماً ثورياً وإبداعياً في تجديده المستمر.

صحيح بأن الحركات السياسية المعارضة حملت مدلولات اجتماعية ثورية أحياناً شأنها شأن الحركات المتنوعة في المعارضة، ولكن أفكارها كانت

ذات مستويات متنوعة يصل بعضها إلى غيبية وسطحية لا مكان للعقل فيها!

وكل حركة معارضة لا تستطيع الخروج كلياً من المنظومة الفكرية لعصرها مهما كانت ثورية ومبدعة. وقد استغل قادة قسم من المعارضة فكرة الوراثة والإمام "الظاهر أو المستتر" والفلسفة والعلوم ليقودوا جماعتهم وليضموا إلى صفوفهم المزيد من المعارضين ولا سيما الفقراء والمحرومين الذين كانوا بحاجة ماسة إلى فكر ما مغاير لفكر السلطة لمواجهته، فوجدوا في قضية الوراثة والإمام شرعية مقبولة مع أنهما لا يختلفان عن وجهة نظر السلطة في الوراثة وعبقرية الخليفة، بينما كان فكر الخوارج في هذه النقطة بالذات هو الإبداعي والمتجدد لأنه طرح فكرة الديموقراطية وتداول السلطة بمفهومنا المعاصر!

والذين ثاروا ضد السلطة لم يثوروا من أجل الحرية والعدل للشعب كله، إنما ثاروا لأنهم كانوا يؤمنون بأنهم هم وحدهم أصحاب السلطة الشرعية التي اغتصبت منهم، وأن الإمام زعيم ديني وزمني وهو معصوم ومعين مسبقاً، أي السلطة وراثية إلهية!

إن وضع السلطة/ الفكر السني الجامد السكوني، مقابل تلك الفرادة التي تستحق الديمومة، ليس طرحاً عقلانياً، فإذا كان أدونيس يريد التحديث والتجديد وحل إشكالية التخلف والنهوض بالاستناد إلى المتحول المشرق والمضيء، وتمكين الإمام المعصوم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، من القيادة، ليخرج المسلمين والفكر العربي من الانحطاط.. إن كان ذاك فالعقل والعلم خارج القوس أمام تلك الأطروحات، ولو لم يطرح أدونيس نفسه كمفكر علماني لصنفناه في تيار آخر وناقشناه على أساس مجدد للدين!

وقد تعرض أدونيس لهجوم حاد ووصف بالرجعية وبالطائفية، فرد على منتقديه عادّاً هجومهم بأنه: (نشأ في معظمه، عن سوء الفهم حيناً، وسوء النية حيناً) [44]!

لقد رأى أدونيس أن النهضة الحديثة عصر تنميط للأسئلة التقليدية ولأجوبتها، ولم تكن عصر إنتاج يكتشف ويضيف، أي أنها كانت عصر استعادة وتكرار (استهلكت ما أنتجته العصور السابقة) [45]، فهي كررت الماضي ولم تفهم الحداثة ولم تترك ما يمكن التأسيس عليه خلا جبران، بل عصر النهضة أحيا ما كان يجب أن يبقى ميتاً..

فإذا كان الأمر كذلك فلماذا استعاد وكرر ما استهلك، تحت شعار الاكتشاف والإضافة؟!

ولماذا قدم مشروعه ما دامت الثقافة العربية هي ثقافة اتباع وتقليد، وصورة الثقافة الآن تشير إلى أن: (العرب شعب لا يقدر أن يعيش وأن يفكر إلا بموروثه وبقوة هذا الموروث، والثاني يشير إلى أن العرب شعب لا يقدر أن يعيش إلا بإبداع الشعوب الأخرى) [46]!

* * *

3- **د. محمد أركون**:

المحاور الرئيسية التي سنستعرضها عند أركون ثلاثة هي: نظرية المعرفة، الإيمان والدين، العلمنة.

1- **نظرية المعرفة**:

يرى أرغون أن الغرب يسيطر على المناهج العلمية والفكرية [47] لذلك يلجأ الباحثون العرب والمسلمون إلى كتابات المستشرقين لمعرفة تاريخهم والاطلاع عليه: (لأن العرب والمسلمين لم يدخلوا بعد في مرحلة البحث العلمي والإنتاج الذاتي للبحوث التاريخية الرصينة. أو قل ابتدأوا يدخلون ذلك مؤخراً، ولكن ليس بالشكل الكافي حتى الآن) [48].

إن تطبيق نظرية المعرفة النقدية (Epistemology) كمنهج نقدي نظري وعملي "قراءة نقدية تفكيكية - تركيبية".. يعني الحداثة وهي الانتقال من مرحلة العقل الدوغمائي إلى العقل العلمي النقدي المنفتح والمتطور باستمرار.

وهو يدعو إلى الاستفادة من (المنهجية التعددية) لكل أنواع العلوم، ويرى كمؤرخ أن علم التاريخ الحديث صار يشمل العلوم الإنسانية كلها: (يكاد

علم التاريخ كما يمارسه المتخصصون اليوم يجمع بين العلوم الإنسانية كلها) [49]، (الأبستمولوجيا التاريخية التي تستوعب كل منتوجات العقل. ويمكن أن ندرس داخل هذه الأبستمولوجيا العلاقات التفاعلية المتبادلة بين العقل الديني، والعقل الفلسفي، والعقل العلمي) [50].

وتطبيق الأبستمولوجيا التاريخية على التراث الإسلامي هدفها: (الدراسة النقدية والعلمية للتراث هي وحدها القادرة على كشف جوانبه الإيجابية وتبيان قيمته الحقيقية، وفتح الطريق لتجاوز سلبياته التي لا تزال تعيق نهضة العرب والمسلمين عموماً) [51].

والسبيل إلى التحرير الفكري: (في الواقع إن التحرير لا يمكن أن يحصل ما لم نقم بتفكيك جذري لماضي كل أمة أو كل طائفة دينية من أجل فهمه وإعادة تقييمه من جديد.. ثم من أجل طرح ما لم يكن صالحاً فيه والإبقاء على العناصر الإيجابية التي يمكن استخدامها في البناء الجديد. لذلك أقول بأن الأولوية الآن هي لتطبيق النقد التاريخي والألسني والسيميائي "الدلالي" والأنتربولوجي على التراث) [52].

لقد قام أركون بتطبيق المنهجية التاريخية والاجتماعية في دراسة التاريخ والدين "القرآن والسنة" والمذاهب والمعارف العقلانية للبحث عن الجذور المنطقية والعقلانية والتنويرية في الفكر العربي، وطالب بضرورة وضع أسس جديدة للاجتهاد والعقلانية الجديدة. وعد أن المعرفة الدينية وبكل أنواعها قابلة للتطوير والتغيير.

ومشروعه في نقد العقل الإسلامي بعيد عن السرد والوصف بل هو في عمق العمق الذي تفتقر إليه كل مشاريع الفكر [53]، ودراسة الدين دراسة منهجية تفكيكية/ دريدا، وإركيولوجية "حفر"/ فوكو، تعني الانتقال من الوصف إلى الدراسة النقدية التفكيكية والوصول إلى العمق/ الجذور. وتفكيك النص ألسنياً يؤدي إلى معرفة طريقة تشكيله، وتلك المعرفة تستفيد من كل الدراسات الفلسفية والأنثروبواوجية والتاريخية ثم الفلسفة أخيراً لتؤطر الرؤية وتقيمها.

وبناء على رؤيته تلك انتقد أركون أطروحات المفكرين العرب المسلمين في التحديث، إضافة إلى نقد الدراسات الإسلامية التي قام بها المستشرقون القائمة على التعالي والغطرسة والاحتقار، بهدف تغيير تلك النظرة إلى الإسلام والمسلمين. ورفض التحليلات الماركسية الدوغمائية المبنية على الرؤية الاقتصادوية المحركة وإغفال ما عدا ذلك من العلاقة الجدلية مع الظروف السياسية والاجتماعية حتى البعد الديني والروحي، نتيجة نظرية الانعكاس الميكانيكية المبتذلة [54].

2- **الإيمان والدين**:

أركون مؤمن بالله ولا يجد في الإلحاد حلاً [55]، ويرى أنه: (في التوحيد المنزه المطلق تتجلى عبقرية الإسلام). والعوامل المادية ليست هي كل شيء ويمكن للعامل الروحي المتأصل أن يتحول إلى قوة مادية "الخميني"، فالعامل الروحي مؤثر إلى جانب عوامل أخرى: (إذا ما أردنا أن ندرس القوى التي تلعب دوراً ما في حسم حركة التاريخ أو التأثير على وجهته فإننا لا نستطيع أن نهمل العامل الروحي. صحيح أنه ليس كل شيء، ولكنه عامل مؤثر من جملة عوامل أخرى "كالعامل الاقتصادي، والعامل السياسي، والعامل الاجتماعي، والعامل العرقي- اللغوي..") [56]، كما أن: (الدين يمثل اليوم بعداً مهماً لا يمكن تجاهله حتى ولو لم يكن ذلك إلا نظراً للعدد الكبير من الناس المؤمنين به) [57].

ويرى أركون أن هناك: (ثورة إسلامية واحدة في التاريخ هي ثورة محمد، وما عداها فتقليد باهت لا يأتي بشيء جديد. ظهور الإسلام يعتبر بمثابة تدشين جديد للتاريخ أو تأسيس جديد لنموذج غير معروف سابقاً) [58].

ولكن: (ينبغي أن يعلم القارئ أن الإسلام ليس كياناً جوهرانياً لا يتغير ولا يتبدل على مدار التاريخ. إنه ليس كياناً أبدياً أو أزلياً لا يتأثر بأي شيء ويؤثر في كل شيء كما يتوهم جمهور المسلمين. هذا تصور مثالي جداً وغير تاريخي للأمور. إنهم يتوهمون أن الإسلام المثالي هذا يتولد عن النصوص التأسيسية "القرآن والحديث" ويطبع كل المجتمعات التي انتشر فيها

بطابعه ويعبر العصور دون أن يطرأ عليه أي تعديل أو تبديل. ينبغي أن نعلم أن الإسلام المعاصر "كالإسلام الكلاسيكي، والإسلام الوليد مع القرآن والممارسة التاريخية لمحمد" هو نتاج الممارسة التاريخية للبشر، وبالتالي فهو يتطور ويتغير. إنه يخضع للتاريخية، مثله مثل أي شيء على وجه الأرض..) [59].

وقد انتقد المحافظين والدوغمائية السنية والشيعية التي تفرض العقائدية وترفض دراسة ومناقشة الدين، وتعزل الدين والثقافة الإسلامية والتاريخ عن الحداثة.

وبعد أن استعرض أركون تاريخ القرآن الكريم من مرحلة الخطاب الشفوي إلى مرحلة تدوينه في كتاب "المصحف" [60]، ميز بين القرآن والظاهرة القرآنية التي تكونت حوله، فاللغة القرآنية: (رمزية أو مجازية في معظم الأحيان. لهذا السبب فإنه لا يزال "يحبل" بالمعاني المتجددة حتى الآن). و(لغة القرآن ليست حرفية بقدر ما هي منبجسة، متفجرة بالمجاز الرائع الذي يخلب الألباب) [61].

والخطاب الديني القرآني أسطوري (ليس بمعنى الخرافي) قائم على الرمز والمجاز، ولهذه الخصوصية يجب أن يقاس بمعايير مختلفة عن معايير الخطاب العلمي [62].

وتلك اللغة المجازية العالية تحتمل تأويلات وتفسيرات متعددة وكل فئة اجتماعية تاريخية فهمت القرآن بطريقتها وحولته إلى عقيدة لها وانغلقت عليها، واعتبرت أية قراءة ورؤية مغايرة لها ضالة/ كافرة. وهكذ نشأت الفرق الإسلامية عبر التاريخ وكل منها يدعي بأنه الإسلام الصحيح، فأيها نصدق كما يقول؟! والسنة فرضوا رأيهم لأن السلطة السياسية كانت معهم وتدعمهم "الأمويون والعباسيون والسلاجقة والعثمانيون..".

ويرى الحل للخروج من تلك الانقسامات العودة إلى الأصل وهو القرآن لأنه مشترك عند الجميع وهو ليس بسني أو شيعي، أما الفروع فهي التي تفصل وتفرق.

وهذا يعني نزع القداسة عما تأسس على الظاهرة القرآنية فهو من صنع بشري مرتبط بالسلطة لإقامة دولة، والسلطة صادرت الدين لمصلحتها وأضفت على مفهومها القداسة وفرضته لتعطي الشرعية لنفسها. وما طبق في الشريعة البشرية التي أخذت الصفة الإلهية قليل، فالقرآن لم يطبق حقيقة. والقرآن فيه قيم ومثل كنظرية أما التطبيق فكان مخالفاً، فهناك فرق بين النص الإلهي المفتوح/ المنفتح، والبشري المغلق في التطبيق.

كما ميز أركون بين الظاهرة القرآنية والظاهرة الإسلامية [63]، فالظاهرة الإسلامية تاريخية.

وتحدث عن الأحاديث النبوية فذكر بأن الشافعي هو من جعل الحديث (مصدراً ثانياً للشرع بعد القرآن) [64]، والشافعي ومن جاء بعده فرضوا تأصيل الأحكام الشرعية في نصوص القرآن والحديث [65].

ثم جاء ابن تيمية ليصنع حول الدين (السياج الدوغمائي المغلق) مانعاً أي أحد من اختراق المحظورات [66]، ورافضاً أي تجاوز لمفاهيم ابن حنبل. وهناك أسيجة مصغرة ضمن السياج الكبير الدوغمائي الإسلامي العام.. وقد استمر ذاك السياج حتى الآن!

فالعقائد في الوسط الإسلامي تسيطر في صيغتها الدوغمائية والمتصلبة التي لا يمكن مسّها أو حتى مجرد مناقشتها منذ الغزالي وابن تيمية!

واختراق السياج الدوغمائي المغلق يتطلب التفكير بـ (اللا مفكر فيه)، (المستحيل التفكير فيه): (الظاهرة الدينية بشكل عام، تظل حتى الآن شيئاً لا مفكراً فيه داخل الفكر العربي الإسلامي) سواء في العقائد أم في القضايا كخلق القرآن وجمعه والحديث.

ثم هناك مسألة الدولة أو النظام السياسي وتنظيم السلطات وتنظيم المجتمع المدني والحريات الفردية وخصوصاً الحرية الدينية "حرية الاعتقاد الديني"، ثم مسألة العلمنة.. (كل هذه المسائل لا يزال مستحيلاً التفكير فيها إلى حد كبير) [67].

فمقابل التفكير المشروع هناك تفكير آخر مصاحب له يتم تجنبه وتجاهله لأنه من المحرمات، لذلك دعا أركون إلى استحضار ودراسة (اللا مفكر فيه) ودراسة أسباب إغفاله أو تغييبه وهي سياسية بالأساس كجمع عثمان للقرآن، وصحة الأحاديث والأصول التي بناها الشافعي..

ومفهوم السياج والدوغمائية وامتلاك الحقيقة المطلقة لا يقتصر على الدين الإسلامي بل يشمل الأديان كلها، والحل: (ولا بد من إحداث القطيعة الإبستمولوجية، وبالتالي العقلية، مع المفهوم المطلق للحقيقة اللاهوتية المسيطرة في الأديان الثلاثة كافة من أجل إقامة المساواة في الحقوق والواجبات على المستوى القانوني بين أنواع البشر كافة) [68].

إن المنهج النقدي التفكيكي في: (تحطيم الأرثوذكسية التقليدية المهيمنة على الخطاب الديني/ الطائفي) [69]، أي تحطيم السياج الدوغمائي المحيط بكل طائفة ومذهب منذ القرون الوسطى، هو للوصول إلى رؤية إسلامية حديثة توحد الطوائف الإسلامية كلها.

وهو يدعو المفكرين العرب لتصحيح النظرة التراثية والتقليدية للدين وشق طريق عربي إسلامي مسيحي للعلمنة الإيجابية.

3- **العلمنة**:

يقسم أرغون العلمنة إلى علمنة إيجابية وعلمنة سلبية وما يهمنا هنا العلمنة الإيجابية فهي موقف الروح أمام مشكلة المعرفة، والظاهرة الدينية تشكل أحد أبعاد الإنسان والمجتمع ولا يجوز الاستهانة بها أو الانصراف عن دراستها: (إنها الموقف الحر والمفتوح للروح أمام مشكلة المعرفة، ولا شيء ينبغي أن يحول بين الإنسان وبين كشف المجاهيل المادية أو الروحية للوجود. وهذه هي العلمنة الإيجابية في رأيي. إنها تأخذ الإنسان في كليته المادية والروحية دون أن تؤثر بعداً من أبعاده على حساب البعد الآخر) [70].

فالعلمنة الحقيقية هي: (فأنا أعتقد أن الفكر العلماني المنفتح والممارس بصفته موقفاً نقدياً تجاه كل فعل من أفعال المعرفة، وبصفته البحث الأكثر حيادية والأقل تلويناً من الناحية الإيديولوجية من أجل احترام حرية الآخر

وخياراته، هو أحد المكتسبات الكبرى للروح البشرية. وهذه هي العلمنة الحقيقية) [71].

والعلمنة بذاك المفهوم الإيجابي ضد القضاء على الدين: (فالعلمنة لا تعني القضاء على الدين أو منع الناس من ممارسة شعائرهم الدينية) فهذه حرية، وبالمقابل لا يحق لأحد أن يفرض على أحد التمسك بالدين أو بالعبادات فهذه قضية حرية شخصية.

ولا يحق لأحد استخدام وسائل الإعلام الرسمية للدعاية الدينية [72]، وهو ضد الذين يستغلون الدين ويتاجرون به: (العلمنة بحسب المعنى الذي أقصده تحرص كل الحرص على البعد الروحي والديني للإنسان، وتضعه في مكانته اللائقة والصحيحة وتمنع السياسيين والمتاجرين من استغلاله لأهداف غير نزيهة وغير تنزيهية. إنها تولي الإسلام كل مكانته الروحية العالية والمتعالية) [73].

وما يهدف إليه من علمنته هو: (تأسيس علاقة جديدة بين الله/ والإنسان، بين المجال المقدس/ والمجال الدنيوي، بين العبادات/ والمعاملات) [74]، والتحرر من التصورات القديمة لتلك العلاقات.

ومفهومه التحديثي لله: (ويمكن القول بأن التصور الحديث لله يتجلى في الأمل، في الانفتاح على أفق الأمل: الأمل بالخلود، الأمل بالحرية، الأمل بالعدالة، الأمل بتصالح الإنسان مع ذاته) [75].

وعندما يصير الفكر الإسلامي متحرراً/ معلمناً، يكون المقصود منه الفكر الديني/ التعبدي. وهو يرى أن العلمنة بوجهها الإيجابي ذاك لا تتعارض مع الإسلام: (فالإسلام في رأيي يسمح بالعلمنة والحرية والتمييز بين الدين والسياسة على عكس ما يتوهم الجميع) [76].

وقد انتقد أركون العلمنة الغربية لفقدانها الروحانية والقيم الدينية مما أفقدها التوازن. فالحداثة الغربية لها وجهان: وجه قدم إنجازات عظيمة على الصعيد العلمي والتكنولوجي والفكري والحضاري.. والوجه الآخر سلبي مادي يكمن في نظرتها المنفعية؛ فالمفيد في نظرها هو المادي والاقتصادي وحذفت البعد الروحي. وقد ارتكبت أوروبا خطأ في: (حل العقل

محل الدين في أوروبا)، و(حلت الأخلاق العلمانية محل الأخلاق الدينية) [77] كما في أوروبا وأمريكا الشمالية وتركيا.

ولا يوجد عقل محض فهناك شيء من الخيال والمشاعر.. وليس الإنسان مجرد حيوان يأكل ويشرب وينام، فهو مكون من مادة وروح تواقة للاتصال بالمطلق. وهناك جوع للروحانية في الغرب، ونتيجة الفراغ الروحي والأخلاقي في القيم بدأ الحديث عن عودة الله في الغرب: (فأوروبا هي التي أعلنت عن موت الله، وهي التي علمت الإلحاد الرسمي. وبالتالي فهي التي ترى هذا الإله بالذات يعود الآن بكل قوة وفرقعة في فضائها الثقافي والسياسي بعد أن كانت قد ظنت أنها فرغت منه إلى الأبد) [78].

ولكن أركون لا يدعو للعودة إلى المفهوم التقليدي للدين الكلاسيكي، وإنما إلى ابتكار دين جديد حديث: (فالفراغ الروحي الحالي أو انعدام المعنى في المجتمعات الأوربية المتقدمة لا يمكن سده عن طريق العودة إلى الوراء، وإنما عن طريق استنباط أشكال جديدة للأخلاق والروح والمعنى) [79].

* * *

إن التحديث الذي طرحه التيار التراثي العلماني يلتقي معظم أطروحات التيار الديني التحديثي في:

1- أهمية الجانب الروحي المستند إلى القرآن وحده لأنه الأساس الجامع للطوائف كلها.

2- مجازية الخطاب القرآني، وبما أنه لا توجد مرجعية علمية واحدة للظاهر الحرفي الحقيقي والمجازي، يصير عقلُ القارئ وفكره وثقافته ووعيه المرجعيةَ في إطلاق المجاز على أي طرح لا يقتنع به.

3- إبقاء التأويل مفتوحاً على التاريخ، ولكل عصر فهمه المناسب لتطورات الحياة والفكر والعلوم.

4- رفض الرؤية الأحادية الدوغمائية.

5- العلم.

6- المنهج النقدي.

7- قضايا الحرية والديموقراطية والعدالة..

* * *

الهوامش

(1) زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي - ص 18.

(2) زكي نجيب محمود: المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري - ص 147.

(3) زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي - ص 274.

(4) المصدر السابق - ص 275.

(5) المصدر السابق - ص 284. وحديثه عن تلك الثنائية، يلتقي تعادلية توفيق الحكيم.

(6) د. زكي نجيب محمود: المعقول واللامعقول - ص 234.

(7) زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي - ص 68.

(8) المصدر السابق - ص 204.

(9) المصدر السابق - ص 79.

(10) المصدر السابق - ص 136.

(11) زكي نجيب محمود: المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري - ص 132.

(12) زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي - ص 118.

من الذين يمثلون الحركة العقلية في التراث الإسلامي: الجاحظ، أبو الحسن الأشعري، رسائل إخوان الصفا، أبو حيان التوحيدي، ابن جني، عبد القاهر الجرجاني، المعري، ابن الراوندي، الرازي، الفارابي، ابن سينا، ابن رشد..

(13) زكي نجيب محمود: المعقول واللامعقول - ص 132.

(14) زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي - ص 30.

يذكر زكي نجيب محمود في كتابه "الوضعية المنطقية" بأن المعرفة اليقينية تبنى على الوقائع التجريبية المحسوسة والاستقراء يقوم على الملاحظة وما عدا ذلك يبقى في إطار الظن!

(15) زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي - ص 102.

(16) المصدر السابق - ص 327.

(17) زكي نجيب محمود: كتاب العربي - نافذة على فلسفة العصر - ص 143.

(18) أدونيس: الثابت والمتحول - الأصول - ص 33.

(19) المصدر السابق - ص 3.

(20) المصدر السابق - ص 90.

(21) المصدر السابق - ص 32.

(22) المصدر السابق - ص 34.

(23) المصدر السابق - ص 98. وهو يقول في الكتاب نفسه ص 105: "الله معنى مطلق لا يتحد في صورة"!

(24) المصدر السابق - ص 104.

(25) المصدر السابق - ص 273.

(26) المصدر السابق - ص 97.

(27) أدونيس: الثابت والمتحول - تأصيل الأصول - ص 211.

(28) أدونيس: الثابت والمتحول - صدمة الحداثة - ص 264.

(29) أدونيس: الثابت والمتحول - الأصول - ص 84.

(30) المصدر السابق - ص 59.

(31) المصدر السابق - ص 85، 86.

(32) المصدر السابق - ص 87.

(33) أدونيس: الثابت والمتحول - تأصيل الأصول - ص 92.

(34) المصدر السابق - ص 91.

(35) أدونيس: الثابت والمتحول - الأصول - ص 93.

(36) المصدر السابق - ص 94.

(37) المصدر السابق - ص 106.

(38) أدونيس: الثابت والمتحول - الأصول - ص 274.

(39) المصدر السابق - ص 277.

(40) أدونيس: الثابت والمتحول - تأصيل الأصول - ص 91.

(41) أدونيس: الثابت والمتحول - الأصول - ص 275.

(42) المصدر السابق - ص 22.

(43) المصدر السابق - ص 31.

(44) المصدر السابق - ص 7.

(45) أدونيس: الثابت والمتحول - صدمة الحداثة - ص 215.

(46) المصدر السابق - ص 226.

(47) استفاد أركون من المفكرين الغربيين مثل: كانت وماركس، والمنهجية الجديدة التي أسسها ميشيل فوكو وجاك دريدا وبيير بورديو.. وهو يعد نفسه تلميذاً لمدرسة فيرنان بروديل زعيم المدرسة التاريخية الفرنسية الحديثة "مدرسة الحوليات"، التي انتشرت في الولايات المتحدة قبل انتشارها في فرنسا، فبروديل كما يقول أركون في كتابه "قضايا في نقد العقل الديني" - ص 82: "زعيم التجديد في مجال البحث التاريخي والمنهجية التاريخية".

(48) محمد أركون: قضايا في نقد العقل الديني - ص 81.

(49) محمد أركون: الفكر العربي - ص 6.

(50) محمد أركون: الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي - ص 26.

(51) محمد أركون: الفكر الإسلامي - ص 16.

(52) محمد أركون: قضايا في نقد العقل الديني - ص 225.

(53) المصدر السابق - ص 49.

(54) المصدر السابق - ص 91.

(55) محمد أركون: من فيصل التفرقة إلى فصل المقال.. أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟ - ص 73.

(56) محمد أركون: قضايا في نقد العقل الديني - ص 120.

(57) محمد أركون: الفكر الإسلامي - الحوارات - ص 256.

(58) محمد أركون: قضايا في نقد العقل الديني - ص 176.

(59) المصدر السابق - ص 174.

(60) يرى أركون في كتابه: "قضايا في نقد العقل الديني" - ص 188، أن عملية الجمع تعرضت للكثير: "من عمليات الحذف والانتخاب والتلاعبات اللغوية". كما يرى في كتابه "الفكر الإسلامي" - ص 87 وما بعد.. أن ترتيب آيات القرآن فوضوية وهي لم ترتب بحسب النزول والناسخ والمنسوخ.

(61) محمد أركون: قضايا في نقد العقل الديني - ص 177.

(62) محمد أركون: الفكر الإسلامي - الحوارات - ص 296.

(63) محمد أركون: الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي - ص 199 وما بعد..

(64) محمد أركون: الفكر العربي - ص 76.

(65) المصدر السابق - ص 19.

(66) هذا من المصطلحات التي تتكرر في كتبه، راجع على سبيل المثال كتابه "الفكر الإسلامي" - ص 6، وكتابه "قضايا في نقد العقل الديني" - ص 49. والمحظورات/ التابو "الله والدين والجنس".

(67) محمد أركون: الفكر الإسلامي - ص 16، 17. وراجع كتابه: "قضايا في نقد العقل الديني" - ص 43، و ص 233، 234.. فهو يكرر هذه المصطلحات: الممكن التفكير فيه، والمستحيل التفكير فيه، واللامفكر فيه.

(68) محمد أركون: الفكر الإسلامي - ص 111.

(69) على الرغم من إصرار أركون على القراءة العقلانية الجديدة للقرآن، إلا أنه - ولربما لمرة واحدة في كل كتاباته- تغيّبه روحانية النص القرآني فيطالب بشاعرية منفلتة من عقال اللغة المنطقية التي تسيطر عليه، بقراءة جديدة للقرآن، يقول عنها في كتابه "الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي - ص 76: "طريقة محررة في آن معاً من الأطر الدوغمائية الأرثوذكسية ومن الاختصاصات العلمية الحديثة التي لا تقل إكراهاً وقسراً. إن القراءة التي أحلم بها هي قراءة حرة إلى درجة التشرد والتسكع في كل الاتجاهات... إنها قراءة تجد فيها كل ذات بشرية نفسها، سواء أكانت مسلمة أم غير مسلمة.."!

(70) محمد أركون: الفكر الإسلامي - الحوارات - ص 292.

(71) المصدر السابق - ص 57.

(72) المصدر السابق - ص 290.

(73) المصدر السابق - ص 294.

(74) محمد أركون: قضايا في نقد العقل الديني - ص 281.

(75) المصدر السابق - ص 282.

(76) محمد أركون: قضايا في نقد العقل الديني - ص 210.

(77) المصدر السابق - ص 178.

(78) محمد أركون: الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي - ص 317.

(79) محمد أركون: قضايا في نقد العقل الديني - ص 257.

* * *

المرحلة الثالثة من النهوض:

3- **التيار الديني الثوري**

رأت الحركات الإسلامية الثورية أن المخرج من المستنقع العربي يكمن في العودة إلى الإسلام لحل ما عجزت عنه الأنظمة العربية الرسمية والثورة العربية، والأيديولوجيات الشرقية والغربية.

وقد ولدت تلك الحركات بين الجماهير وعاشت أوجاعها وأحزانها وجوعها وقهرها، ولمست تطلعها للحرية وعشقها للمقاومة والتضحية، فكانت تعبيراً صادقاً عن آلام وآمال الجماهير الفقيرة الثائرة.

وتحليل الحركات الإسلامية للكيان الصهيوني وارتباطه بالإمبريالية الأمريكية والغرب، لا يختلف عن تحليل الثورة أيام نقائها، وهناك في أدبيات تلك الحركات أحاديث عن رفض الإقطاع وشبه الإقطاع والباشوات والباكوات.. وأحاديث عن العدالة الاجتماعية ورفض الاستغلال والنهب والفساد والامتيازات. وقد تجاوزت اليساريين في الارتباط الطبقي وربطه بالثورة، وفي تحديد أصدقاء الثورة وأعدائها وفي تكتيكات تحالفاتها.

وهي تقف إلى جانب قضايا التحرر العالمي وتطلعات الشعوب إلى الحرية والتخلص من الاستعمار والتبعية كما كانت تطرح قوى اليسار.

وقد آمنت بأن المشروع الصهيوني هو نقيض للمشروع العربي النهضوي والوحدة العربية، وهو عدو للأمة العربية والإسلامية. ورأت أن بقاء الكيان الصهيوني يعني استمرار التجزئة والتبعية والتخلف، فهو العائق الأكبر أمام النهضة الحقيقية ووحدة الأمة العربية، ولا بد من إزالته فهو سرطان خبيث وجسم غريب. وبناء على ذلك رأت أنه لا يحق لأحد مهما كانت صفته سواء أكان فلسطينياً أم غير فلسطيني، أن يتنازل عن ذرة تراب من أرض فلسطين للصهاينة وبالاستناد إلى رؤية شرعية بأنها أرض وقف إسلامية ففلسطين ملك للعرب والمسلمين، ويجب تحريرها كلها من النهر إلى البحر.

وهي لا تقف عند عدم الاعتراف بالكيان فقط، بل لا تعترف بقرارات الأمم المتحدة الجائرة لأنها قرارات الدول الأوروبية الاستعمارية والإمبريالية الأمريكية.

ومنهج هذا التيار الديني الثوري يتجلى في النضال والتحرير والحياة الكريمة، والمصداقية في الربط بين النظرية والممارسة، بين الفكرة وتحقيقها. وهو ما افتقرت إليه معظم التيارات والاتجاهات الدينية الأخرى وغير الدينية، وأغرقت نفسها خطاباً وممارسة بعيداً عن أماني الشعب وطموحاته وحقوقه، فأضاعت المفاصل الرئيسية في النهوض، وتهاونت في الصراع الحقيقي، وتصالح بعضها مع أعداء الأمة بحجة النهوض والتحديث والتطوير، والاستسلام والرضوخ لأحادية القطبية الأمريكية تحت ستار الشرعية الدولية!

لقد تحول مشروع الخلاص إلى الحركات الجماهيرية والقيادات الشعبية، حيث سلمت الجماهير الشعبية المسحوقة والفقيرة، قيادةَ الثورة للذين يستحقونها بصدقهم وإخلاصهم وجذريتهم في العودة إلى الثوابت والالتزام بثقافة المقاومة، وأعطت الأمل الذي يدغدغ مشاعر الشعب العربي بل والإسلامي في تحرير فلسطين. وقد عاد كثير من العرب والفلسطينيين المترددين إلى تبني برنامج التحرير الكامل!

والمعطيات التي حدثت على الأرض عقب انتصار تموز، وما حدث في غزة والمقاومة في العراق، تشير إلى منعطف جديد في تاريخ الصراع العربي الصهيوني، إذا ما ترسخ سيؤدي إلى انهيار المشروع الإمبريالي الصهيوني، وسيكون بدء ولادة المشروع النهضوي العربي، وهو عكس ما كانت تحلم بها الإمبريالية الأمريكية.

إن ما حققه هذا التيار يبين بأن الدين حيادي يمكن أن يكون بيد المتدين أداة للوطنية [1]، ويمكن أن يكون بيد اللاوطني أداة للخيانة [2]. كما يمكن أن يكون الدين بيد العاقل والمتنور أداة للتطور والتحديث، ويمكن أن يكون بيد المتخلف أداة رجعية لتكريس الواقع والوقوف بصلابة أمام أي تطور لصالح الشعب. وليس صحيحاً تحميل الدين المسؤولية عن الواقع

المتخلف، يقول د. علي زيعور: (ليس الدين مسبباً للواقع التخلفي في الفكر والحضارة والاقتصاد، ولا المكوّن لسائر الأنماط التفكيرية والعلاقات الاجتماعية القائمة. إنه عامل من عوامل عدة ليس هو أوحدها، ولا أشدها مسؤولية وتأثيراً وليس هو عقبة، ولا يعيق تطوراً) [3]، و د. نصر حامد أبو زيد رأى بأن الأزمة ليست في الدين، بل في المجتمع والثقافة والفهم.

وتيار المقاومة الثورية يمكنه تحقيق مشروع تحرير الأرض إذا تأمن له الدعم والحماية ووضعت بين يديه الإمكانيات المطلوبة، ولكنه وحده لن يتمكن من إنجاز بقية أنواع التحرير ولا النهضة الحقيقية على مستوى الدولة والشعب ولا التحديث المطلوب، مما يعني البحث عن القواسم المشتركة بين الأفكار المتنوعة والمتناقضة والتي جمعها خندق المقاومة، لصوغ نظرية معرفية علمية تحديثية.

وهنا سنستعرض فكر حزب الله وحماس والجهاد الإسلامي:

***

آ- حزب الله:

حزب ديني وطني شعبي قوي سياسياً وتنظيمياً وعسكرياً. وهو يؤمن بالعمل السياسي وبالديموقراطية والتعددية [4].. ودخل الحياة البرلمانية لكنه لا يفكر على المدى المنظور بإقامة النظام الإسلامي لأن الظروف الموضوعية لا تسمح بذلك، شأنه في ذلك شأن الحركات الدينية التي قبلت بالحياة الديموقراطية.

واستطاع الحزب أن يملأ الفراغ الذي لم يستطع أن يملأه أحد غيره، لأنه لم يكن صاحب خطاب وشعارات فقط، فقد حقق منجزات ملموسة على الأرض في الصدام المباشر مع العدو مستقطباً الشارع اللبناني الوطني والعالم العربي والإسلامي، ووقف بصلابة ضد التدهور والانحطاط والفساد الذي أفرزه تيار السلطة تيار الاستسلام والرضوخ.

لقد أمسك حزب الله بالحلقة المركزية في طرحه برنامج المقاومة والتحرير كأساس للنهضة، فما دامت هناك المسماة "إسرائيل" وهناك المشاريع الأمريكية الصهيونية، للهيمنة والسيطرة والنهب والاستغلال،

والدول الأوروبية الداعمة للكيان الصهيوني والماشية كذيل وراء أمريكا، ووجود الأنظمة العربية الرجعية التي باعت نفسها للأمريكان والصهاينة، لا يمكن أن ينهض الوطن العربي ولن يتحقق التحديث والتطوير.

والحزب الآن على رأس هرم برنامج المقاومة الشعبية وثقافتها على الصعيد اللبناني والفلسطيني والعربي. وهناك تعاون كبير بينه وبين المقاومة الفلسطينية الدينية الثورية، وهو لم يقف مكتوف الأيدي أمام الاعتداءات الصهيونية على الشعب الفلسطيني في الضفة والقطاع وقد برز ذلك في مواقف متعددة لتخفيف الضغط العسكري على الشعب الفلسطيني وعلى المقاومة كان آخرها في تموز عام 2006!

* * *

والحزب شيعي يؤمن بالأصولية الشيعية وعصمة الإمام، والذي ينوب عنه حتى يرجع هو الولي الفقيه العالم والخبير والعادل. وهو يرى أن ولاية الفقيه ليست على إيران فقط وإنما على العالم الإسلامي كله، وطاعته واجبة شرعاً كما يرى شيعة إيران وقسم من شيعة العراق ولبنان وغيرهما.

وبدايات الحزب كانت ضمن حركة أمل (أفواج المقاومة اللبنانية) حركة المحرومين، وهي حركة دينية شيعية شكلها الإمام موسى الصدر عام 1975، واختفى خلال زيارة قام بها إلى ليبيا عام 1978. واستلم قيادة الحركة نبيه بري عام 1980. وفي المؤتمر العام لحركة أمل عام 1982 ونتيجة اختلافات حول أسلوب معالجة نتائج الاجتياح الصهيوني انسحبت من أمل مجموعة كبيرة وشكلت (حزب الله).

عندما انتخب عباس الموسوي أميناً عاماً لحزب الله في أيار عام 1991 كانت له جملته المشهورة: (أطمح لأن أكون دائماً بين المقاومين ومع المجاهدين)، فتاريخه الالتزام التام بثقافة المقاومة والتحرير وقيادة الفقراء المحرومين. وكان ينظر إلى المقاومة على أنها حركة جهادية إيمانية، وأن التخلي عنها هو تخلٍ عن الإيمان، وأن المقاومة تكليف شرعي، والعمل

السياسي يجب أن يكون في خدمة المقاومة، ولا مجال مطلقاً للمساومة عليها.

وقد استشهد بعد تسعة أشهر من انتخابه إذ اغتالته الطائرات الإسرائيلية التي كانت تترصد حركاته في شباط 1992، وانتخب حسن نصر الله تلميذه وصديق دربه وأقرب المقربين إليه، فتابع مسيرة التحرير محققاً انتصارات عظيمة على العدو الصهيوني ولا سيما في حرب (تصفية الحساب) في تموز عام 1993، وحرب (عناقيد الغضب) في نيسان عام 1996 التي فرضت على العالم وأمريكا شرعية المقاومة في (تفاهم نيسان). واستطاع بالتزامه ومصداقيته وشعبيته أن يقود المقاومة ويحقق انتصارات جزئية في حرب طويلة خلقت تراكمات استنزفت العدو، وتحولت تلك الانتصارات الجزئية إلى انتصار كبير بعد 22 سنة من الكفاح والنضال، أدى إلى تحرير الأراضي اللبنانية [5] في الجنوب وأجبر المسماة "إسرائيل" على الانسحاب من معظم الجنوب (عدا مزارع شبعا وتلال كفر شوبا) دون قيد أو شرط في 25 أيار عام 2000.

لقد انهزم العدو بسرعة مفاجئة وتخلى عن دويلة أنطوان لحد العميلة له دون اكتراث لمصيرها ومصير عملائه الذين فروا إلى داخل الكيان. وسقوط دويلة لحد درس يجب أن يتعلمه عرب أمريكا وعملائها!

ثم جاء الانتصار الكبير على العدوان الصهيوني في 12/ 7 - 14/ 8 عام 2006، فصنع زلزالاً حقيقياً!

وسنستعرض أهم نتائج انتصار تموز، ثم أهم أسباب ذاك الانتصار.

أهم نتائج انتصار حزب الله في تموز:

1- أسقط الانتصار زيف الأسطورة والخرافة الكاذبة التي حاكتها الميديا والدعاية عن القوة الإسرائيلية التي لا تقهر، والتي ساهمت معظم الأنظمة العربية في ترسيخها في العقل العربي لتبرير الاعتراف بالعدو ومنح وجوده الصفة الشرعية والتطبيع معه!

وقد تبين أن دولة القاعدة العسكرية هشة وأن قوتها وهمية، لأنها في الحروب الحقيقية لا تستطيع الاستمرار، وإستراتيجيتها تعتمد على

هوليودية الردع لزرع الرعب وعدم التفكير بالتعرض لها. وقد ذكر بن غوريون في مذكراته بأن إستراتيجية الجيش الصهيوني بنيت على القوة الوحشية المدمرة، لتخيف وتردع العرب عن التفكير بمهاجمة الكيان!

فالقوة التدميرية الوحشية للمنشآت المدنية هدفها بث الارتباك والخوف والاستسلام.

ولكن يمكن تجاوز عقدة جدار الرعب والخوف التي نشرها جيش الحرب الصهيوني بسهولة، إذا توفرت إرادة الكفاح وصلابة المواجهة والاستمرار، فتقلب القوة العسكرية الاستعراضية إلى عدو هزيل يسهل ضربه والانتصار عليه، فهي قوة يهلع منها الجبان فقط، الذي لا يمتلك إرادة القتال والنية في التحرير، ولا يعتز بكرامة وطنه وحريته، ولا يعد أرض الوطن شرفه وعرضه وقيمه.

2- زرع الانتصار ثقة وأملاً كبيرين في إمكانية تحرير فلسطين كلها، فليس وجود الكيان الصهيوني قدراً لا مفر منه، فهو مجرد كيان استعماري مصطنع كأي كيان استعماري في العالم مصيره الزوال.

3- كشف الانتصار معظم الأنظمة العربية التابعة لأمريكا والصهيونية ومعاداتها للمقاومة والتحرير، وعلى رأسها مصر والسعودية والأردن والخليج، والسلطة اللبنانية، وسلطة رئاسة الحكم الذاتي الفلسطيني.. وهؤلاء في القاموس الأمريكي التيار المعتدل، بينما تيار المقاومة وأنصارها هم التيار الإرهابي!

والملفت للنظر أن الأنظمة العربية الدائرة في فلك الإمبريالية الأمريكية كانت دائماً تسرع لتقديم التنازلات؛ فقد قدمت مشروعها للصلح والسلام والاعتراف بالعدو الصهيوني أربع مرات: الأولى في قمة فاس الأولى وقد فشلت القمة والمشروع. والثانية تمت في قمة فاس الثانية التي هي تتمة للأولى (القمة العربية الثانية عشرة في فاس/ المغرب في أيلول عام 1982) وأقر مشروع الأمير فهد للسلام. والثالثة المبادرة العربية للسلام في بيروت عام 2002 (مشروع الملك السعودي عبد الله للسلام) بعد تحرير الجنوب اللبناني عام 2000. والرابعة عام 2007 وقد جاءت أيضاً بعد

انتصار تموز عام 2006، وهي تأكيد على الثالثة مع تشكيل لجنة رباعية لتقوم بالحركة والتسويق، مما يعني نية تلك الأنظمة في إجهاض الانتصار الشعبي المقاوم بعد هروبها هي كأنظمة من لعب دورها في الصراع.

4- وكشف أيضاً المزيفين والمزاودين ومدعي العقلانية التابعين والمهرولين لإنهاء القضية، وأولئك بخطابهم المزيف وإن قللوا من أهمية الانتصار ولكنهم في أعماقهم يدركون حقيقة ما حدث، لأن إعلام العدو الصهيوني نفسه عكس وقع الكارثة على الكيان كله بشكل مباشر وغير مباشر!

5- أعاد الانتصار الكيان إلى الخانة الأولى خانة قيامه عام 48، وباتت قضية حقيقة استمرارية وجوده تؤرق كثيراً من الإسرائيليين حتى أن الصهيوني شمعون بيريز رئيس الكيان قال أثناء الحرب بأنها قضية حياة أو موت!

6- حول صورة الكيان الصهيوني إلى صورة هزلية بعد أن فقد هيبته، وصار موضع تندر في الإعلام والشارع ولا سيما في الإعلام والشارع الصهيونيين!

7- رسخ الانتصار موقع حزب الله الإستراتيجي في الصراع على صعيد الساحة اللبنانية والعربية والإسلامية والدولية.

***

أهم أسباب انتصار حزب الله:

1- وضوح الرؤية في البرامج وهي تخدم الهدف الإستراتيجي المؤمن إيماناً صادقاً بالتحرير الكامل، وعدم الاعتراف بالكيان الصهيوني.

2- القيادة الواعية والمثقفة والملتزمة والتي هي بمستوى التحدي في الخطاب والممارسة بما تمتلكه من التفكير العلمي في قراءة الواقع (المنهجية العلمية في التحليل)!

3- مصداقية الزعيم حسن نصر الله بالتزامه وإخلاصه في الخطاب والممارسة، وهذا ما جعله زعيماً شعبياً على الصعيد الوطني والعربي بل والإسلامي دون منازع [6].

4- منهجية حزب الله العلمية في التخطيط والسلاح والتدريب وخوض المعارك. وامتلاك التكنولوجيا الحربية الحديثة، والقدرة على استيعابها واستخدامها الدقيق، والاستمرارية في التدريب وملاحقة تطور التقنيات العسكرية، واستمرار الاستعداد القتالي.

وقد أثبت حزب الله أنه يولي العلم عناية كبيرة من خلال قدرته على استخدام التكنولوجيا الحديثة وتطوير بعضها.

5- التنظيم المتين والمترابط، والعلاقة الهرمية التي تفرض الطاعة الواعية لأنها مؤسسة على القيم الأخوية من المحبة والاحترام والتقدير.

6- خلق المقاوم الثوري المثقف والمشبع بالالتزام والممارسة الواعية، المتدرب عسكرياً وفق أحدث النظريات وإجادته استخدام أحدث التقنيات العسكرية المتاحة له في إطار حرب العصابات، والمتصف بالشجاعة والصدق والوفاء والإخلاص والتضحية.

7- السرية التامة في العمل العسكري: السلاح، التدريب، الاتصالات، التخطيط، التحركات، تنوع أساليب النضال والمفاجآت غير المتوقعة..

8- الحيطة والحذر واليقظة المستمرة، وحماية الحزب من أي اختراق أمني معاد له [7].

9- امتلاك النفس الثوري الطويل الأمد، وتحمل مشاق ذلك وعدم استعجال قطف ثمرة الحرب، وهذه النقطة كانت السبب الرئيسي في خسارة الكثيرين ممن ملوا لأنهم لا يمتلكون ذاك النفس ويريدون الانتهاء بأسرع وقت وتحقيق شيء ما وإن كان لا قيمة له، وإن كان على حساب أشياء كثيرة، وهم بارعون في أدلجة تعجلهم [8]!

10- توظيف الإعلام والحرب النفسية بشكل ذكي جداً. وهنا لا بد من الإشارة إلى تهريج العدو في حربه النفسية كما برز في المحطة الإذاعية التي أخذت تبث برامجها أثناء الحرب، فلم تكن تعكس سوى الحقد والغباء والشتائم والكذب الصبياني لا أكثر.

11- المتابعة الدقيقة لكل ما يتعلق بالعدو الصهيوني: أخباره "الميديا"، فكره، تصريحاته، مشاكله، نقاط قوته وضعفه، تركيبته، تناقضاته.. وعلى الصعيد العسكري رصد كل ما يمكن وبكل الطرق.

وكذلك متابعة السياسة العربية والدولية وبكل تفاصيلها..

12- بناء قاعدة جماهيرية عريضة موحدة الاتجاه والأهداف، اعتمد فيها على طبقة الفقراء وخاصة المتضررين مباشرة من الاعتداءات الصهيونية المتكررة على أرض الجنوب وقراه. والعمل بين صفوفها والمساهمة في حل قضاياها اقتصادياً واجتماعياً وصحياً وتعليمياً وثقافياً..

13- العمل على أرضه وبين شعبه، وتوطيد علاقته به ليكون الحاضن له والحامي من خلال التثقيف والتوجيه والتوعية، وتقديم العون والخدمات الملموسة ليشعر بأنه منه وإليه ومن أجله.

14- تأمين الموارد المالية اللازمة لتغطية قسم من النفقات، وفي الوقت نفسه عمل الحزب على تأسيس بنية تحتية اقتصادية ساهمت في تغطية قسم آخر من تلك النفقات.

15- ضرب عمق الأراضي المحتلة عام 1948، وهذا يعني أن نقل المعركة إلى داخل الكيان يزعزعه ويضعفه ويسقط هيبة الجيش والأمن العاجزين عن حماية الإسرائيليين. وقد برزت التناقضات الحادة التي كشفت عن حقيقة الكيان وهشاشة البنية الداخلية للإسرائيليين، وبأنها مركبة اصطناعياً تتغذى من الخارج ولا تحمل بذور الديمومة.

ونشير هنا إلى أن العمليات الاستشهادية البطولية التي نفذتها المقاومة الإسلامية في الأراضي المحتلة عام 48 والصواريخ فيما بعد.. لعبت دوراً أساسياً في خلق توازن الرعب!

16- وأخيراً لا بد من الحديث عن قضية الاستشهاد وما تحمله من دلالات وطنية ودينية لها أهمية كبرى عند المتدين، فهي بالنسبة له في طليعة الأسباب المعنوية؛ فالإيمان بالحياة الآخرة والجنة لعب دوراً عظيماً في التضحية.

والشهادة ليست عملية انتحارية نتيجة اليأس أو أزمة نفسية خانقة كما يصورها الغرب الذي لا يستوعب حقيقتها، فالمقدم عليها يكون بكامل قواه العقلية والنفسية والجسدية والقناعة التامة بما هو مقدم عليه، فهو يضحي بنفسه إرضاء لله والدين والوطن، يضحي بنفسه ليمنح الآخرين الحياة وهذا قمة العطاء والكرم!

وعند حزب الله للشهادة دلالات أخرى إضافة إلى ما ذكر فهي ترتبط بجرح تاريخي وبفكرة التماهي بكربلاء واستشهاد الحسين ورفضه الذل والعار.

***

ب- حركة حماس والجهاد الإسلامي:

إن بروز النهوض الإسلامي/ السياسي المقاوم في الأرض المحتلة كان نتيجة عوامل متعددة يلتقي معظمها العوامل التي ذكرناها عن المد الإسلامي في الوطن العربي، ولكن هناك عوامل خاصة وأهمها:

1- المعاناة الفظيعة التي يحياها الشعب الفلسطيني في ظل الاحتلال من قمع وذل وفقر وحصار وقتل وتدمير واعتقال..

2- إخفاق المنظمة وفصائلها المتعددة وتقاعسها عن دورها التاريخي الذي بدأته، وتخليها عن الثوابت الوطنية.

3- إخفاق القوى الوطنية والقومية في حل معضلة الثورة العربية وتحرير فلسطين.

4- الانتصارات التي حققتها المقاومة الإسلامية في لبنان وعلى رأسها حزب الله، دلت على إمكانية هزيمة المشروع الصهيوني إن توفرت النية الصادقة والإرادة والإخلاص والتضحية والاستشهاد.

لقد أعطت الحركتان الأولوية لتحرير الأرض الفلسطينية كلها ورفض السقوط في وحول التسوية والاستسلام، وهما تمثلان برنامج الصمود والمقاومة في فلسطين المحتلة.

والحركتان تؤمنان بأن معركة تحرير فلسطين هي مسؤولية عربية وإسلامية، لذلك ستبقيان تشغلان العدو وتتصديان له وتردان اعتداءاته عن الشعب الفلسطيني حتى يتم تجهيز القوى العربية والإسلامية، وفتح الحدود أمام المجاهدين والمقاومة. فالصراع يجب أن يبقى مستمراً حتى تنهض الأمة كلها لتخوض المعركة الفاصلة والحاسمة على أرض فلسطين.

وقد قادتا النضال الفلسطيني في الانتفاضتين بدءاً من الحجر فالعمليات الاستشهادية فالصواريخ، محدثتين مع المقاومة الفلسطينية الأخرى توازن رعب في الصراع مع العدو الصهيوني.

والحركتان لم تنضما إلى منظمة التحرير، على الرغم من قبولهما بالتعددية والديموقراطية.

***

1- **حماس**:

تعد حماس نفسها امتداداً لحركة الإخوان المسلمين في فلسطين والتي تعود إلى الأربعينيات من القرن الماضي، وقد حملت أسماء مثل "المرابطون على أرض الاسراء" و"حركة الكفاح الاسلامي"..

وقد أطلقت جماعة الشيخ أحمد ياسين [9] التي تكونت عام 1983 على نفسها تسمية (حماس) في بيانها التأسيسي في كانون الأول عام 1987 في الانتفاضة الأولى.

وشكلت جهازاً عسكرياً في عام 1986، وفي منتصف عام 1991 أطلقت عليه تسمية (كتائب الشهيد عز الدين القسام)، وبرز واشتهر كجناح عسكري لحماس في الأول من كانون الثاني 1992.

في البيان التأسيسي لحماس ذكرت بأنها الذراع الضارب لجماعة الإخوان المسلمين في فلسطين المحتلة، وهي تؤمن بأن الإسلام هو الحل لقضية فلسطين، والجهاد هو الطريق لتحريرها كلها، وهو فرض عين على كل مسلم ومسلمة، ويحق للمرأة الخروج للجهاد دون إذن من زوجها [10]!

وهي التي فجرت الانتفاضة الأولى (انتفاضة أطفال الحجارة) عام 1987 والتي استمرت حتى عام 1993، وتلك الانتفاضة استطاعت أن تفرض على المجتمع الدولي التعاطف معها، وأن تجر فصائل المقاومة في الداخل إليها، وأن تطور أساليب نضالها رغم ضعف الإمكانيات.

وكانت العمليات الاستشهادية العظيمة التي تمت في عمق الأراضي المحتلة عام 1948 أعظم إنجازاتها هي وحركة الجهاد الإسلامي، فقد خلقت رعباً في قلب الكيان وزعزعت أمنه واستقراره. وقد تآمر الجميع على الانتفاضة، وأسرعت أمريكا والكيان الإسرائيلي إلى فتح الحوار مع قيادة المنظمة بهدف توظيفها كشرطي لوأدها!

وشاركت حماس والجهاد بفعالية في الانتفاضة الثانية، انتفاضة الأقصى في أيلول عام 2000.

ولحماس أنشطة دينية وسياسية واجتماعية.. وهي تقدم خدمات متنوعة للشعب الفلسطيني في الضفة والقطاع.. مما قربها من الجماهير

الفلسطينية المسحوقة. وقد دخلت اللعبة البرلمانية وفازت في الانتخابات التشريعية كانون الثاني عام 2006، بأغلبية مقاعد المجلس إذ حصلت على 76 مقعداً من أصل 132 مقعداً [11].

وما طرحته حماس هو البرنامج الوطني والإصلاح، ولم تطرح النظام الإسلامي كحكم أو كتشريع اقتصادي أو اجتماعي.

حماس حركة وطنية جهادية إسلامية، والوطنية جزء من العقيدة الدينية كما جاء في ميثاقها - المادة الثانية عشرة.

والحركة شعبية كما جاء في ميثاقها: (وهي حركة شعبية إذ أنها تعبير عملي عن تيار شعبي واسع ومتجذر في صفوف أبناء الشعب الفلسطيني والأمة الإسلامية، يرى في العقيدة والمنطلقات الإسلامية أساساً ثابتاً للعمل ضد عدو يحمل منطلقات عقائدية ومشروعاً مضاداً لكل مشاريع النهوض في الأمة، وتضم حركة "حماس" في صفوفها كل المؤمنين بأفكارها ومبادئها المستعدين لتحمل تبعات الصراع ومواجهة المشروع الصهيوني).

وبما أنها جزء من حركة النهضة الإسلامية، فهي تؤمن بـ (أن هذه النهضة هي المدخل الأساسي لتحرير فلسطين من النهر إلى البحر).

وفلسطين وطن تاريخي قومي للفلسطينين، وهي وقف إسلامي لا يجوز التنازل عن أي جزء منها كما جاء في ميثاقها - المادة الحادية عشرة: (تعتقد حركة المقاومة الإسلامية أن أرض فلسطين أرض وقف إسلامي على أجيال المسلمين إلى يوم القيامة، لا يصح التفريط بها أو بجزء منها أو التنازل عنها أو عن جزء منها، ولا تملك ذلك دولة عربية أو كل الدول العربية، ولا يملك ذلك ملك أو رئيس، أو كل الملوك والرؤساء، ولا تملك ذلك منظمة أو كل المنظمات سواء كانت فلسطينية أو عربية، لأن فلسطين أرض وقف إسلامي على الأجيال الإسلامية إلى يوم القيامة).

وحماس وكذلك الجهاد ضد مسيرة التسوية بين العرب والكيان الإسرائيلي التي انطلقت في مؤتمر مدريد عام 1991، وضد اتفاق "إعلان المبادئ" بين منظمة التحرير والكيان الإسرائيلي الموقع عام 1993..

جاء في المادة الثالثة عشرة من ميثاق حماس: (تتعارض المبادرات، وما يسمى بالحلول السلمية والمؤتمرات الدولية لحل القضية الفلسطينية مع عقيدة حركة المقاومة الإسلامية، فالتفريط في أي جزء من فلسطين تفريط في جزء من الدين، فوطنية حركة المقاومة الإسلامية جزء من دينها..)، (.. ولا حل للقضية الفلسطينية إلا بالجهاد، أما المبادرات والطروحات والمؤتمرات الدولية، فمضيعة للوقت، وعبث من العبث، والشعب الفلسطيني أكرم من أن يعبث بمستقبله، وحقه ومصيره..).

وحماس لا تعترف بأي وجود شرعي لليهود في فلسطين، فالصراع مع العدو الصهيوني هو صراع وجود وليس صراع حدود وهو ما كانت تؤمن به منظمة التحرير قبل حرفها عن مسارها.

وموقف حماس من القوى الوطنية المتنوعة على الساحة الفلسطينية جاء موضحاً في المادة الخامسة والعشرين من ميثاقها: (وتُطمئن كل الاتجاهات الوطنية العاملة على الساحة الفلسطينية، من أجل تحرير فلسطين، بأنها لها سند وعون، ولن تكون إلا كذلك، قولاً وعملاً حاضراً ومستقبلاً، تجمع ولا تفرق، تصون ولا تبدد، توحد ولا تجزئ، تثمن كل كلمة طيبة، وجهد مخلص، ومساعٍ حميدة، تغلق الباب في وجه الخلافات الجانبية، ولا تصغي للشائعات والأقوال المغرضة، مع إدراكها لحق الدفاع عن النفس).

فهي تؤمن بتعزيز العمل الوطني المشترك، وترى أن: (ساحة العمل الوطني الفلسطيني تتسع لكل الرؤى والاجتهادات في مقاومة المشروع الصهيوني، وتعتقد أن وحدة العمل الوطني الفلسطيني غاية ينبغي على جميع القوى والفصائل والفعاليات الفلسطينية العمل من أجل الوصول إليها).

وهي على استعداد للعمل مع الجميع لذلك: (تسعى إلى التعاون والتنسيق مع جميع القوى والفصائل والفعاليات العاملة على الساحة، انطلاقاً من قاعدة تغليب القواسم المشتركة ومساحات الاتفاق على مواقع الاختلاف). ولكن العمل المشترك يقوم على أرضية التحرير الكامل:

(أية صيغة للعمل الوطني الفلسطيني المشترك، يجب أن تقوم على أساس الالتزام بالعمل على تحرير فلسطين، وعدم الاعتراف بالعدو الصهيوني، أو إعطائه حق الوجود على أي جزء من فلسطين).

وترفض الاحتراب الداخلي: (أنه مهما بلغت الخلافات في وجهات النظر أو تباينت الاجتهادات في ساحة العمل الوطني، فإنه لا يجوز بحال من الأحوال، لكائن من كان، أن يستخدم العنف أو السلاح، لفض المنازعات أو حل الإشكالات، أو فرض الآراء والتصورات داخل الساحة الفلسطينية).

وهي لا تؤمن بالتمييز وتنظر إلى: (قضايا الشعب الفلسطيني من غير تمييز على أساس ديني أو عرقي أو فئوي، وتؤمن بحق الشعب الفلسطيني، بكل فئاته وطوائفه في الدفاع عن أرضه وتحرير وطنه، وتؤمن بأن الشعب الفلسطيني شعب واحد بمسلميه ومسيحييه).

وترفض التعصب الديني والإثني: (لا تعادي أحداً على أساس المعتقد الديني أو العرق، ولا تناهض أي دولة أو منظمة ما لم تمارس الظلم ضد شعبنا، أو تناصر الاحتلال الصهيوني في ممارساته العدوانية ضد أبناء شعبنا).

كما أنها تؤمن: (بالوحدة العربية والإسلامية وتبارك أي جهد يبذل في هذا المجال).

وتؤمن أيضاً بأهمية: (الحوار مع جميع الحكومات والأحزاب والقوى الدولية بغض النظر عن عقيدتها أو جنسيتها أو نظامها السياسي، ولا مانع لديها من التعاون مع أي جهة لصالح خدمة قضية شعبنا العادلة وحصوله على حقوقه المشروعة، أو تعريف الرأي العام بممارسة الاحتلال الصهيوني، وإجراءاته اللاإنسانية ضد شعبنا الفلسطيني).

***

2- **الجهاد الإسلامي**:

أنشأها عام 1980 د. فتحي الشقاقي [12] في مصر مع مجموعة من الطلاب الجامعيين الذين كانوا يدرسون هناك، وقد انشقت عن حركة الإخوان المسلمين.

حركة الجهاد الإسلامي كحماس في التزامها بالمبادئ وإخلاصها ومصداقيتها في الممارسة. وقد جاء في وثائقها بانها ملتزمة: (بالإسلام عقيدة وشريعة ونظام حياة، وكأداة لتحليل وفهم طبيعة الصراع الذي تخوضه الأمة الإسلامية ضد أعدائها، وكمرجع أساسي في صياغة برنامج العمل الإسلامي للتعبئة والمواجهة).

وتعد فلسطين من النهر إلى البحر أرضاً إسلامية عربية يجب تحريرها من وجود الكيان الصهيوني الباطل، وترفض الاعتراف به مطلقاً.

وترى أن تحرير فلسطين يعني الوحدة والانطلاق نحو النهضة. وبرنامجها في التحرير يقوم على: (تعبئة الجماهير الفلسطينية وإعدادها إعدادا جهادياً، عسكرياً وسياسياً، بكل الوسائل التربوية والتثقيفية والتنظيمية الممكنة، لتأهيلها للقيام بواجبها الجهادي تجاه فلسطين. العمل على توحيد الجهود الإسلامية الملتزمة باتجاه فلسطين، وتوطيد العلاقة مع الحركات الإسلامية والتحررية الصديقة في كافة أنحاء العالم. الدعوة إلى الإسلام بعقيدته وشريعته وآدابه، وإبلاغ تعاليمه نقية شاملة لقطاعات الشعب المختلفة، وإحياء رسالته الحضارية للأمة والإنسانية).

وهدفها البعيد بعد تحرير كامل فلسطين بالجهاد، وتصفية الكيان الصهيوني، يلتقي هدف حماس: (إقامة حكم الإسلام على أرض فلسطين، والذي يكفل تحقيق العدل والحرية والمساواة والشورى)..

* * *

الهوامش

(1) لعب كثير من رجال الدين دوراً ثورياً في معارك التحرير الوطنية ضد الاستعمار الغربي كعمر المختار وعبد الكريم الخطابي وعبد القادر الجزائري وعز الدين القسام..

(2) بعض رجال الدين وشيوخ المساجد والبيروقراطية المشيخية المرتبطة بالحكام الدائرين في فلك الإمبريالية الأمريكية والصهيونية دافعوا عن الحاكم وإن كان فاسداً، وباركوا السلام مع العدو استناداً إلى القرآن، فالسادات ومن دار حوله من رجال الدين وظفوا آية السلم "فإن جنحوا للسلم فاجنح لها" لتسويغ الخيانة!

وبعض الشيوخ التقليديين نظّروا للعمليات الاستشهادية بالانتحار وعدم جواز الدعاء على اليهود، بل منهم من أفتى بعدم جواز الدعاء بالنصر لحزب الله في صده لعدوان تموز عام 2006!

(3) د. علي زيعور: التحليل النفسي للذات العربية - ص 198.

(4) عندما خاض حزب الله معركة التحرير فتح المجال في تشرين الثاني عام 1997 للوطنيين الذين يريدون النضال من أجل الوطن في العمل معه دون الارتباط بأيديولوجية الحزب، عن طريق تشكيله "السرايا اللبنانية لمقاومة الاحتلال الإسرائيلي"، ولكن الإقبال عليها كان ضعيفاً.

وهذه التجربة الديموقراطية يجب تعميقها وأن تأخذ بها حماس والجهاد، فالوطني غير المتدين قد يجد الرغبة في العمل معهما نتيجة الوطنية والمصداقية والإخلاص، فيجد فرصته في الفصيل الملحق وغير الملزم أيديولوجياً، والتزامه يكون إدارياً وعسكرياً ووطنياً.

(5) "آلاف الانتصارات الصغيرة تتحول إلى نصر كبير في النهاية"، من أهم المقولات النظرية في حرب العصابات التي استفاد حزب الله منها ومن نظريات حرب العصابات "الجنرال جياب، حرب الشعب، جيش الشعب، جيفارا، ماو تسي تونغ".. وطورها بما يناسب ظروفه ومعرفته للعدو

الصهيوني. راجع كتاب: "حرب المقاومة الشعبية" لجياب، و"حرب العصابات وسيلة" لجيفارا.

(6) القائد له سمات شخصية عقلية ونفسية وجسمية يؤثر في الناس ويجذبهم إليه بمصداقية خطابه وذكائه وأخلاقه.. وهم يتخذونه مثلاً أعلى "كاريزما"، لثقتهم المطلقة بأنه يستطيع أن يحقق آمالهم، والأهداف التي يسعون إليها.

(7) كان أمن معظم فصائل المقاومة الفلسطينية مخترقاً!

(8) الثورة الفلسطينية لم تمتلك النفس الثوري الطويل، فلم تلتزم بميثاقها الوطني ولا بحرب التحرير الشعبية!

(9) اغتالته الطائرات الصهيونية بقصف صاروخي على سيارته في 22/ 3/ 2004.

(10) المضحك المبكي أن أحد الشيوخ الإسلاميين استنكر قيام امرأة فلسطينية بعملية استشهادية وحدها في عمق الأراضي المحتلة عام 48، وتساءل: هل ذهبت وحدها أم كان معها محرم؟!

(11) شاركت حماس في اللعبة الديمقراطية ببرنامج الإصلاح والمقاومة وإعادة بناء منظمة التحرير، بينما رفضت حركة الجهاد الإسلامي تلك اللعبة، وهي على حق، فقد أخطأت حماس بدخول اللعبة البرلمانية وتشكيل الحكومة لأن ذاك من مفرزات التسوية، ومكان حماس الطبيعي والطليعي في قيادة خندق المقاومة فقط.

ولكن لا يمكن التراجع - ولا سيما بعد أن أرادها الشعب في ذلك الموقع- وتسليم الوضع إلى من يريد تصفية المقاومة والقضية وأمركة وصهينة المنطقة!

ونتيجة الضغوطات أعلنت الحركة أنها ليست ضد إقامة دولة في الضفة والقطاع، وإعلان هدنة مؤقتة لسنوات دون الاعتراف بالكيان الإسرائيلي، بهدف إعادة بناء البنى التحتية التي دمرها الصهاينة، ولملمة الجراح وحل مشاكل الشعب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.. وللاستعداد والتهيؤ لمتابعة مسيرة النضال والتحرير.

وعلى الرغم من التنازلات للمحافظة على الوحدة الوطنية استمر الحصار الداخلي والخارجي والضغوط عليها بهدف إسقاطها لا لكونها تنظيماً دينياً سياسياً، ولكن لأنها وطنية نظيفة ونزيهة ومتمسكة بالثوابت الوطنية التي تخلت عنها سلطة أوسلو ومن دار في فلكها. والقضية قضية صراع بين برنامجين متناقضين كما هو الحال في لبنان.

(12) اغتالته عصابات الموساد الإسرائيلية عام 1995 في مالطة.

* * *

الفصل السادس:

نقاط اللقاء في جدلية الأفكار

إن تتبع جدلية الأفكار المتنوعة والمتعارضة خلال مراحل النهوض، ودراستها وتجاوز الإشكاليات الخلافية المفرقة، للوصول إلى القواسم المشتركة بينها، تكشف عن نقاط مشتركة مقبولة إلى حد ما عند الأكثرية، باستثناء التيار الأصولي التقليدي المتشدد لأن له رؤيته الأحادية التي لا تفيد في التحديث مطلقاً.

وهو ليس مالكاً للحقيقة فهناك كثيرون غيره من تيارات واتجاهات وأصحاب اجتهادات ورؤى تحديثية تجاوزته ولا تقبل مفاهيمه كا مر. فلا بد له عاجلاً أو آجلاً أن يستوعب بأن الكون/ الوجود/ الحياة/ التراث.. كتاب مفتوح ولكل إنسان قراءته ولا يمكن إهمال القراءات مهما تعددت، وإن لم يتفاهم ويتفق مع الآخرين ويحترم كينونتهم وفكرهم وعقلهم، يبق معزولاً!

إن رؤية الواقع كما هو لا تتم بمعزل عن رغبات الإنسان وأمانيه لما يجب أن يكون، ولكن الانطلاق من الفكر إلى الواقع وإسقاط ما هو في الفكر على الواقع يؤدي إلى عالم خيالي مبني على الأوهام، بينما الانطلاق من دراسة الواقع الملموس بتحليله بشكل موضوعي وعلمي، واستيعاب معطياته الثقافية والأيديولوجية، قد يؤدي إلى الوصول لرؤية فكرية مناسبة تحقق بعض الرغبات والأماني.

وبناء على ذلك لا يمكن تجاهل أي فريق أو فكر مهما كان إن قبل بالمشاركة، والساحة العربية مليئة بالأفكار ولا ينقصها أي مزيد ولكنها تحتاج إلى الرؤية الجامعة.

إذا نظرنا إلى الإسلام بصيغته العامة نجد أن له بعداً في تكوين الحضارة العربية الإسلامية، وتغلغلاً في اللغة والثقافة والكتب والبرامج والندوات والمؤتمرات، وله حضوره القوي المتجلي في إقامة الشعائر "الآذان

والصلوات والخطب"، والمواسم "رمضان والحج"، والعادات والتقاليد والمناسبات الدينية: أعياد، أفراح، وفيات..

واستمراريته عبر التاريخ شكل تكويناً في الوعي واللاوعي عند المتدين وصار يلبي حاجة في قلبه ومشاعره وأحاسيسه، لا يملؤها أي خطاب آخر غيره، بل المتدين يبتعد عن أي خطاب يحاول عقلنته، لذلك لا يمكن القفز عن ذلك ولا يمكن تغييبه، والمتدين موجود بيننا وليس في كوكب آخر: أهل، أقرباء، جيران، معارف، أصدقاء، زملاء في العمل، الشارع..

والأمر نفسه يقال عن بقية الأفكار والمفاهيم وأصحابها أياً كان دينهم أو مذهبهم أو طائفتهم أو أيديولوجيتهم.. فهم يعيشون بيننا وليس في كوكب آخر!

إن الوطن للجميع، ولكل الأفكار والأيديولوجيات والمفاهيم والأديان والطوائف، والكل يجب أن يساهم في بنائه السياسي والاقتصادي والاجتماعي والحقوقي والقانوني.. فهذه مسؤولية الجميع، لذلك التفاهم والتقارب بين أبناء الوطن جميعاً حول الأفكار المشتركة ضرورة تاريخية وليس طرحاً مثالياً، لأنه يمكن تحقيقها وتحقيق الكثير إذا تم التنازل عن الأنا النرجسية، والخروج من قوقعة الذاتية والخصوصية والنظرة الأحادية، والتخلص من عقلية إما تطبيق الكل أو معظمه أو لا، دون اكتراث لوجود الآخرين وفكرهم!

لقد بذل المفكرون في المراحل كلها وحتى الآن جهودهم المخلصة بهدف تحقيق النهوض الحقيقي غيرة على الوطن والشعب. كما أن تنوع الأفكار والأطروحات مهما كانت الخلافات فيما بينها ساهمت بمعظمها على أرض الواقع في إغناء جدلية النهوض وحققت إنجازات ومكاسب لا يمكن التنازل عنها مطلقاً. ولكن المفكرين عبر المراحل كلها وحتى الآن لم يصلوا إلى صياغة نظرية معرفية شاملة تقوم على أساس البحث عن القواسم المشتركة لتكون هي العام الجامع، وتترك الإشكاليات لتكون هي الخاص.

وفي هذه المرحلة مرحلة الفرز الطبيعي الذي ساد المنطقة تصير أرضية المقاومة والمصداقية والإخلاص هي الخطوة الأولى المفصلية، وهذا

يتطلب وضع برنامج مرحلي متفق عليه بين القوى يناسب مرحلة الثورة الوطنية الديموقراطية في التحرير والوحدة والنهوض، والأولوية فيه تعميم برنامج المقاومة، وقطع العلاقات مع الكيان الصهيوني، وكل أشكال التطبيع السائدة، وتحرير الدول العربية من التبعية لمشاريع أمركة المنطقة وصهينتها.

وما تحقق من الإنجازات الإيجابية النسبية بين الدول العربية يتم تدعيمه لمتابعة عملية التحديث والنهوض.

والقواسم المشتركة مجرد رؤية تكمن أهميتها في المنهج كمدخل للحوار الديموقراطي الشعبي الصريح حولها لمناقشتها وتعديلها وإغنائها للوصول إلى صياغة نظرية المعرفة العربية للنهوض. وهنا لا بد أن يلعب الإعلام العربي الوطني الأخلاقي الجاد والملتزم دوره الحر والذكي في تكوين الفكر العربي الحديث، والوعي الوطني والقومي في التحرير. وفي الوقت نفسه ليواجه مخططات الإمبرياليات والصهيونية والأنظمة العربية الدائرة في فلكها، وللوقوف في وجه الكثير من المحطات الفضائية ومواقع الإنترنت الغربية والعربية التي وصلت إلى الحضيض في الانهيار الفكري والأخلاقي والقيمي، وما يشكله ذلك من خطورة ولا سيما على النشء الجديد!

وليس المقصود هنا إعطاء الصورة التفصيلية، وإنما طرح الخطوط العريضة العامة التي يمكن أن تتفق عليها التيارات الفكرية المتنوعة بما يتعلق بالدولة والمجتمع والدين والحياة الديموقراطية..

وتلك الخطوط ليست تلفيقية لإرضاء الأطراف المتناقضة، وإنما هي عقلانية تضع الأولويات في سلم مصلحة الوطن وأبنائه.

***

1 - **الدولة وطبيعة النظام**:

نظام الدولة جمهوري دستوري ديموقراطي، يحقق مبدأ المواطنة لكل الشعب. والسلطات الثلاث مستقلة عن بعضها، وسيادة القانون تطبق على الجميع. والسلطة التشريعية مهمتها صياغة الدستور بناء على

النقاط المشتركة، وهو يتضمن الثوابت الوطنية والقومية، وعدّ الدولة القطرية جزءاً من الأمة العربية.

والحديث عن وحدة الأمة ليس طوباوياً، فالاتحاد الأوروبي يتجه نحو الوحدة الكاملة، لخلق كتلة فاعلة دولياً على الصعيد السياسي والاقتصادي والثقافي، على الرغم من عدم توفر المقومات التقليدية لأن روح العصر هي التكتلات الكبيرة، وهذا المفهوم يجب أن يكون دافعاً لدعاة القطرية أو الأنظمة العربية لتكتل نفسها كطبيعة للقرن الواحد والعشرين!

وهنا يجب الفصل بين الأنظمة والمشاعر العروبية/ القومية عند الشعوب العربية، فالعواطف لم تتغير، ولكنها وحدها لا تحل الإشكالية إن لم تتحول إلى فعالية منظمة هادفة على أرض الواقع.

والتاريخ يلعب دوراً خطيراً في تكريس التجزئة، تحت شعارات خصوصيات الشعوب العربية أو إخفاق الفكر القومي أو الخوف من قضية الاضطهاد الديني أو الطائفي أو الإثني.. فالقومية هي التي تضمن حقوق المواطنة كاملة، ولا يوجد شيء اسمه مواطن من الدرجة الثانية مطلقاً.

وإذا كان الجميع يسعون من أجل الشعب لا كشعارات ونظريات وإنما كممارسة وتطبيق حقيقي على الأرض، يجب أن يكون النظام قائماً على العلم والعقل والأفكار النبيلة التي تحقق العدالة والحياة الحرة والكريمة لابن الوطن أياً كان دينه أو طائفته أو فكره أو إثنيته لا فرق بين إنسان وآخر فالكل سواسية.

والدولة مسؤولة عن حرية الجميع وأمنهم وتحريرهم من عقدة الخوف والاضطهاد والقمع التي زرعت في أعماقهم من رجل الدولة والأمن والعسكر.

ومسؤولة عن حماية الحياة الخاصة للإنسان لأنها مقدسة لا يحق لأحد التدخل فيها ما دامت لا تعتدي على حقوق وحرية الآخرين.

وأيضاً حماية الأسرة وصيانتها لأنها نواة المجتمع، والمرأة مساوية للرجل في الحقوق والواجبات.

والدولة مسؤولة عن تحقيق العدالة الاجتماعية والتوزيع العادل للثروات، لأنه لا قيمة للحرية السياسية والديموقراطية إن بقي الإنسان مستلباً ومستغلاً ومستعبداً اقتصادياً، فالاستعباد الاقتصادي سيجلب الاستعباد السياسي حتماً.

لذلك لا بد أن يتضمن الدستور منع الاستغلال بكل أشكاله وعدم استئثار جزء من الأفراد بالثروة الوطنية. والعمل على تأمين متطلبات الحياة لكل مواطن: (السكن والتعلم والعمل، والماء والكهرباء والخدمات المتنوعة، وضمانات المرض والعجز والشيخوخة، والدخل الجيد الذي يؤمن الحياة الجيدة بل والمرفهة..).

كما تلعب الدولة دورها في برمجة الاقتصاد والخطط التنموية وسيطرتها على القطاعات العامة "الكهرباء والماء والثروات الباطنية، والصناعات الكبيرة.."، وليس المقصود بالقطاع العام رأسمالية الدولة وإنما أن يكون للشعب كله لا يحتكره أحد، والعاملون فيه هم المسؤولون عنه.

وإلى جانب القطاع العام هناك القطاع الخاص ذو التوجهات الوطنية والإنسانية. ولكن القطاع الخاص بأنواعه المتعددة الصناعية والزراعية والتجارية والحرفية والمهنية والخدماتية والسياحية.. يحتاج إلى مراقبة ومحاسبة الدولة والمنظمات الجماهيرية لضمان عدم الجشع والغش والاستغلال والنهب والثراء غير الطبيعي، لأن المواطن هو الذي يدفع الثمن. والمراقبة مهمة أيضاً لضمان سلامة الإنتاج الصناعي والغذائي وجودتهما، وكذلك مراقبة تكاليف إنتاج السلعة والربح، والضرائب التصاعدية، وضمان حقوق العمال وعدم استغلالهم: أجورهم، التأمين الصحي والاجتماعي، ساعات العمل والعطل.. وعلى الصعيد التجاري متابعة السوق بدءاً من سعر السلعة في مواقع إنتاجها "داخلياً وخارجياً" وأجور النقل وتحديد الأرباح وسعر المبيع للمستهلك..

إن الجشع البشري لا حدود له (ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب)، ولا يكفي القول بضبط القطاع الخاص والتجارة ومراقبتهما الدائمة، وإنما يتطلب الأمر اختيار المشرف على الرقابة أن يكون حقاً شريفاً عفيفاً، ونزاهته

معروفة من خلال تاريخه وممارساته، وهذا يعني اختيار الرجل المناسب للمكان المناسب في كل قطاعات الحياة.

وليس القطاع الخاص هو وحده المقابل للقطاع العام، حيث يمكن وجود قطاع مشترك إذا اقتضت الضرورة.

إن المواطن إذا ما شعر من خلال الممارسة بأن الدولة من أجله وصارت حقاً ملجأه والحاضن له، فإنه سرعان ما ينتمي إليها باعتزاز وافتخار ويدافع عنها ويتخلى عن الاحتماء بعائلته أو قبيلته أو عشيرته أو طائفته أو مذهبه أو حزبه.. لأن أولئك كانوا ملجأه يوم غابت الدولة عن أداء دورها!

***

2- **الديموقراطية**:

الدستور في الغرب والقوانين تحمي الديموقراطية الليبرالية والنظام الرأسمالي، وجميع المتنافسين في الانتخابات التشريعية يعملون تحت ذاك السقف، ولا يؤثر صعود فريق أو هبوط آخر في الانتخابات على طبيعة النظام لأنه خط أحمر. ولكن تحت ذاك السقف لا تسود الديموقراطية عملياً، وإنما ديكتاتورية المالكين للثروة والممولون للنفقات.

والفوز في الانتخابات يمكن أن يكون عبر شراء الأصوات أو الخداع أو القوة، وهناك أساليب متعددة للوصول إلى السلطة، والذي يصل إلى السلطة قد يفرض ديكتاتوريته وتوجهاته. فالوصول إلى السلطة لا يعني أن الديموقراطية ستسود حتماً، ومثالها الصارخ بوش وفرض إرادته على الشعب الأمريكي الذي طالب هو والحزب الديموقراطي بالانسحاب من العراق ولا آذان صاغية، وأيضاً ثورة الطلاب في فرنسا عام 1968.

والسادات تحت شعار الديموقراطية قلب الوضع مئة وثمانين درجة، وكذلك عرفات، والسلطة اللبنانية.. وكلهم لم يعر المعارضة اهتماماً ولم يرجع إلى الشعب ولم يستفت غير أنصاره!

فاللعبة الديموقراطية خطيرة لذلك يجب ضبط الأمور، حتى لا تصير ديكتاتورية أغلبية الطبقة المستفيدة لأنها تشكل خطراً كبيراً على القضية السياسية والوطنية والاقتصادية والاجتماعية. فالطبقة المالكة للثروة

ولوسائل الإنتاج تمتلك القرار السياسي أيضاً، لذلك تبقى الديموقراطية الشعبية أسلم، مع تحديث الرؤية العربية لها.

والديموقراطية تبدأ من القاعدة الشعبية في الانتخابات النزيهة للمجالس المحلية/ البلديات/ القرى/ المدن.. وكذلك المنظمات والمؤسسات والاتحادات والنقابات المدنية المستقلة عن أي وصاية أو تدخل والتي تمثل مختلف أنشطة الشعب الفكرية والثقافية والسياسية والاجتماعية والمهنية والرياضية والفنية.. وحريتها في التعبير عن الرأي والانتماء عبر وسائل الإعلام الخاصة بها كالصحف.. والحرية هنا هي الحرية الملتزمة والمسؤولة والواعية لحق الشعب كله وضمن مصلحة الوطن، وليست الحرية الفردية السائبة على حساب الآخرين والوطن.

ثم تأتي الانتخابات البرلمانية النزيهة على المقاعد البرلمانية التي تمثل الشعب كله؛ منظماته الجماهيرية من مؤسسات واتحادات وأحزاب وحركات تشمل كل طبقات وشرائح وفئات الشعب من الكتاب والتقنيين والمهنيين والمثقفين والطلاب والصناعيين والفلاحين والعمال وأصحاب الأعمال الحرة.. ومن كلا الجنسين على قدم المساواة، لضمان أفضل طريقة لتمثيل معظم أبناء الشعب. وكذلك توفير الدعاية الانتخابية للجميع بطرق متكافئة ومتوازنة.

وأي تعديل في الدستور بعد الاتفاق عليه، لا يتم عبر ديموقراطية الأغلبية ولا التوافقية التي ترضي جميع الكتل والاتجاهات الصغيرة والكبيرة ودون استثناء أحد أو تهميشه لأن كل واحدة منها تمتلك حق النقض، وإنما يتطلب أيضاً الاستفتاء الشعبي عليه!

والنقد ضرورة حيوية لا غنى عنها بما فيها نقد السلطة والبرامج.. وبديهي ألا يكون معادياً للوطن والاستقلال، وأهداف الأمة في التحرر والنهوض والوحدة المرتبطة بالمشروع القومي النهضوي.. فهناك قيم منصوص عليها في الدستور يلتزم بها الجميع وهي خط أحمر.

***

3- **الإيمان والدين والأخلاق**:

من خلال استعراض التيارات الفكرية تبين أنه لا يمكن تجاهل البعد الروحي في حياة المتدينين ولا تجاهل أو تغييب أفكار كثيرة كانت تفرض نفسها في جدلية الدين والتحديث، والقفز عنها لن يفيد في التقدم شيئاً. لذلك تجب مواجهة كل القضايا الخلافية والتفاهم حولها لضمان سلامة المشروع النهضوي.

إن مناقشة موضوع الإيمان والدين تشمل قضيتين رئيسيتين:

1- الله.

2- الدين: ويقسم إلى قسمين: القسم الأول: مفهوم المطلق والعلاقة معه. والقسم الثاني: التشريعات الدنيوية.

لا بد من التفريق بين الدين والإيمان بالله/ المطلق/ الفكرة المطلقة/ القوة الخلاقة.. فالإيمان يتعلق بوجود الله الخالق للكون وما يحتويه، بينما الدين في قسمه الأول يتعلق بمفهوم الدين عن الله/ العقيدة، والعلاقة معه/ العبادات. أما القسم الثاني من الدين فهو وإن ارتبط جدلياً بالقسم الأول لكنه يتعلق بالعلاقة مع الآخرين أي فقه المعاملات [1] المتعلقة بشؤون الدنيا/ الحياة المادية، حياة المجتمع في قضاياه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحقوقية.. وستأتي مناقشة القسم الثاني عند الحديث عن التيارات الدينية والديموقراطية.

الإيمان بوجود قوة مجهولة الكيفية وراء الكون والحياة والإنسان.. دونما تحديد لصفاتها جامع مشترك لكل الأديان والمذاهب والطوائف، أي جامعة للأكثرية الساحقة. أما تحديد ماهية القوة فهو الدين في قسمه الأول والعلاقة معها، وفيه رؤى مختلفة مما يعني أن ذاك القسم يفرز ويفرق، فقراءة الدين الواحد خلقت فرقاً وطوائف متعددة مختلفة ومتناقضة في كل الأديان. والإشكالية تنشأ إذا غيبت إحدى الرؤى أو كفرت أو استصغرت المخالف في رؤاه وطقوسه.

ويمكن القول لا أحد ينفي وجود تلك القوة ولكن هناك اختلاف حول مفهومها، والمتدين يؤمن بعجز العقل الإنساني عن إدراك حقيقتها، مع ملاحظة صعوبة أن يقتنع البعض بالفكرة المطلقة المجردة بينما يتقبلها

مجسدة بشكل ما أو بصفات ما، وهذا أحد المفاهيم عنها وهي قضية دينية خاصة بمعتنقها.

والمادي أو الملحد الذي يتحدث ممجداً صنع الطبيعة أو يبدي دهشة من عبقريتها أو يستوقفه جمال أمر ما في الوجود أو قوانينه، إنما هو يتحدث بمنهجية إيمانية. والخلاف في التسميات وفضاء الدلالة وليس في الجوهر.

والإشكالية ليست في عدم فصل المادة البسيطة عن ماهيتها وعدم وعيها لذاتها، فالمادة صورة وماهيتها قانونها وهذا صحيح، والوجود والحياة وجدليتهما في تطورهما لهما قوانينهما التي لا تنفصل عنهما، ولكن تلك القوانين ليست هي الله حتماً وليست جدلية المادة هي الله، وهنا الإشكالية وهي تكمن في قضيتين:

القضية الأولى عدّ القوة هي القانون، لكن الإيمان بوجود المادة الأولى الأزلية/ القديمة، يجعل أزلية المادة كصورة تتضمن أزلية أشكال وصور الوجود كله من ألفه إلى يائه وقوانينه المختزنة فيها بما في ذلك شيفرة جدلية التطور، وهذا غير منطقي!

وهو لا يعلل حتمية وجود الأشكال التي لما تأت بعد، فهل الأشكال القديمة اكتسبت قوانينها الجديدة المختزنة أو غير المختزنة مع تحولها إلى تكوين أشكال جديدة، أو انبثاق أشكال جديدة لم تكن؟!

المادي يجعل المادة الأولى الأزلية هي العلة الأولى القديمة التي لا تفنى إنما تتحول، أما الكون الناشئ فهو المحدث سواء أكان عن طريق الانفجار الكوني الكبير أو الانفجارات الكونية الكبيرة أم غير ذلك!

والفلسفة اليونانية القديمة وكذلك الفلسفة الإسلامية في مقولاتهما عن قدم العالم أو حدوثه، أو الممكن الوجود/ الكون والحياة المخلوقين، وواجب الوجود/ المحرك الأول/ الخالق، كتفسير للعلة الأولى وكحسم للتسلسل اللانهائي بتحديد بداية له.. يمكن أن يعتمد عليها المادي باعتبار المادة الأولى أزلية مجازياً لأنها خارج الزمن وهي مقابل واجب الوجود، وتحولاتها المحدثة زمنياً مقابل ممكنة الوجود!

والقضية الثانية القول بأن المادة لا تعقل ما تفعل وهذا صحيح، ولكن الادعاء بأن كل ما يحدث هو نتيجة عشوائية مطلقة، يجعل العشوائية الكلية تحمل شيفرة برنامج "رياضي" منظم وهذا تناقض غير مقبول!

فكيف تتحول العشوائية وحدها - وهي غير واعية حتماً- إلى الكون بنظامه الدقيق، وما تحتويه الطبيعة من قوانين متآلفة ومترابطة فيما بينها!؟

والمادة المركبة والمعقدة لا تفسر الانسجام بين قوانينها الكثيرة والمعقدة لأنها غير واعية لما يحدث، ولا واعية لانتاجها اللاواعي واللاهادف للكائن الحي الذي يكتسب قوانين جديدة معقدة لم تكن موجودة في المادة السابقة ثم يتطور متجاوزاً مجرد الحركة الميكانيكية، إلى الكائن الحي المتطور وقمته الإنسان المنسجمة قوانينه المتعددة والمعقدة، والتي تصيّره مدركاً وهادفاً لفعله!

العلم يدرس الظاهرة الفيزيائية ويحللها ويبحث في أصولها وقوانينها التي لا تنفصل عنها، إلا أنه لا يستطيع الإجابة عما هو خارج الملموس والمحسوس، وهنا مفترق العقل فهو قد يقفز من الوصف العلمي المجزّأ ليعطي رؤية كلية خاطئة، وهذا لا يحل الإشكالية.. أو قد يبدأ بمحاولة لإدراك الكلية/ الواعية والهادفة والمفارقة خلف وخارج مسار التحول والتآلف والتعقيد اللاواعي في سيمفونية الوجود والحياة!

في الفلسفة الغربية في القرن التاسع عشر تبلور تياران التيار المثالي والتيار المادي؛ فالمثالية "الموضوعية" تطرح أسبقية الإله/ الروح المطلقة/ الفكرة المطلقة/ العقل الكوني/ الإرادة الكلية.. على المادة، وتؤكد على وحدة المظهر المادي/ الشكل، وجوهره/ خصائصه. ولا يمكن للمادة أن تنتج الوعي الإنساني كما لا يمكن للوعي الإنساني أن ينتج المادة. فلا المادة ولا الوعي الإنساني عنها يمكن أن يكون هو العلة الأولى للوجود، وذاك يعني وجود علة أولى/ جوهر أولي مطلق ومفارق للوجود والفكر. وهو عند بعضهم ليس خارج الوجود بل داخله (مذهب وحدة الوجود/ الوجود

والفكر/ الوجود والفكرة المطلقة) كما عند هيغل الذي يمثل قمة الفلسفة المثالية الموضوعية [2].

أما المادية فتطرح أزلية المادة وأبديتها، وهي تقول بأسبقة الوجود المادي على الوعي، أي الوجود الإنساني المادي يسبق الفكرة التي كونها وعيه عنها وهذا أمر بديهي، والإشكالية في القول بأن الوعي الإنساني جرد المادة وفصلها عن ماهيتها/ صفاتها/ خصائصها/ قانونها.. وجعلها خارج الوجود كإله. فهي جعلت الماهية/ القانون معادلاً لمفهوم الله، وهذا غير صحيح، فماهية المادة/ قانونها ليست هي الله!

لذلك الأسبقية/ القلب المادي عند فيورباخ، أبقت الثنائية وهي أقرب إلى مذهب الحلول الصوفي. ولا فرق بين رؤية هيغل والمادية لأن هيغل جعل العلة في وحدة مع الوجود، بينما المادية بل كل الفلسفات المادية أحلتها في الوجود، وإن تجنبت الحديث عن ماهية القوة/ العلة الاولى.

وفكرة وحدة الوجود والحلول تتحدثان عن علاقة الفكرة المطلقة المستمرة بالوجود المادي، ولكنهما لا تخضعان للبرهان العقلي.

لقد تم الفصل بين الإيمان والدين، لأن الإيمان وحده لا يخلق إشكالية ما دام لا يحدد ماهية أو صفات تفصيلية، ويمكن الوصول إلى مفهوم عام يتفق عليه الجميع تكون فيه تلك القوة الخلاقة مثلاً أعلى لقيم الحق والخير والعدل والجمال والحب..

ولكل إنسان الحق والحرية في فهم وتصور تلك القوة وعلاقته معها سواء عن طريق الدين أو الأيديولوجيات المختلفة أو رؤيته الشخصية..

والمادي أو الملحد وإن رفض الفكرة وهي غير ملزمة له، لكنه لن يرفض المنظار القيمي إذا كان يسعى للبحث عن الكمال الإنساني في الحق والخير والعدل.. وهي أهداف قيمية للإنسان والدولة.

لذلك يمكن أن يكون الإيمان ضمن ذاك المفهوم العام في الدستور، وليس المفهوم الخاص الديني، أو الشخصي.

والدين/ العقيدة والعبادات، قضية خاصة بالمتدين [3]. وبما أن الدين خاص فلا يحدد في الدستور دين للدولة، ولا يتعارض ذلك مع تحديد هوية الانتماء

في الدستور إلى الحضارة العربية الإسلامية العقلانية المنفتحة والتعددية والخالية من السلبيات والشوائب.

وليست القضية مجرد شكل كما هو الحال في معظم الدول العربية والإسلامية بل وفي الغرب [4]، فعندما يحدد في الدستور دين للدولة معنى ذلك هناك التزام به، ولكن بما أن الدين (العقائد والعبادات) قضية خاصة، فلا مبرر للتحديد، ولا سيما أن تحديد دين للدولة يمكن أن يستغل ويمكن أن يثير حساسية لا مبرر لها، كما أنه لا يوجد مفهوم واحد متفق عليه عند الجميع، ولا يمكن أن يصل المسلمون بكل طوائفهم واتجاهاتهم التحديثية المتعددة إلى رؤية واحدة تحديثية عن الإسلام، لأن هناك قضايا عديدة ترتبط بالفهم وثقافة القارئ ورؤيته للنص أو خلفياته الأيديولوجية أو انتمائه الطائفي أو المذهبي، أو تحرره من كل ذلك..

والعواطف والمجاملات وإرضاء مشاعر الأكثرية لن تحل الإشكالية، بينما التركيز على فكرة المثل الأعلى والأخلاق يثمر حتماً لأن المجتمع يحتاج إلى مثل عليا يسعى لتحقيقها.

وما نريده لوحدة المجتمع بكل أطيافه هو ما يتفق عليه أكثريته، وترك المفاهيم المختلف عليها/ المفرقة لأصحابها، ولا يحق لهم تعميمها وفرضها على الآخرين!

وعندما يكون الدين في قسمه الأول خاصاً، ستحل إشكالية الاختلافات والهيمنة في الدين/ الطائفة/ الملة.. ويحترم كل إنسان عقائد الآخرين ويتعامل معهم بإنسانية وأخوة ولباقة، فتتغير الصورة!

والدستور يضمن حرية الإنسان في الانتماء إلى الدين أو رفضه أو تغييره، فلا يحق لأحد أن يتدخل أو يصادر حرية الإنسان في عقيدته وانتماءاته.

والقوانين المستمدة من الدستور تسمح بالنقد الإيجابي العلمي الموضوعي الحيادي المدعوم بالأدلة الملموسة والبراهين العقلية لكل المفاهيم والأفكار دون استثناء حتى الفكر الديني بهدف الوصول إلى الحقيقة، لكنها تمنع النقد السلبي والتعصب والشتائم، ولا تفتح المجال إلى اتخاذ الدين أو الطائفة أداة للتحريض ضد ابن الوطن الآخر، ولا تقبل

بالاتهامات المتشنجة المتبادلة المبنية على الإيمان أو الكفر أو التحريف.. والتي قد تأخذ عند طرف ما طابع الازدراء والسخرية والاستهزاء، أو المسبات والشتائم والإهانات والإذلال.. والطرف الآخر لن يقف مكتوف اللسان واليدين بل سيدافع عن نفسه ومعتقداته، وسيهاجم دين الآخر أو طائفته [5].. وسيكيل للآخرين كما يكيلون له فالوضع متبادل حتماً، وكل هذا يؤدي إلى شحن النفوس وتهيئتها للعنف والقتل، فيشل الوضع تماماً ويعود الجميع للوراء ولا يتقدمون خطوة واحدة، ويدخلون في دوامة لا يدرون كيف تنتهي وأين تنتهي. وهذه القضية قصمت ظهر الأمة العربية عبر تاريخها الطويل ولم تثمر إلا الأحقاد والانشقاقات والحروب، وما زالت المعاناة حتى الآن كما حدث ويحدث في لبنان والعراق بل وفي مصر وغيرها.. ولو سادت الروح الإنسانية في النقد الإيجابي، لتغيرت الصورة جذرياً!

وقد قصر كثير من المفكرين الإسلاميين في عدم نقد ما حدث في التاريخ القديم والحديث من انشقاقات ومشاكل وحروب تحت المظلة الدينية أو الطائفية.. وعدم الدعوة الجادة والملزمة بضبط النشاطات الإعلامية العلنية التي فيها تعرض واستفزاز للطرف الآخر!

وبما أن العقائد الدينية والعبادات قضايا خاصة بالمتدين، لذلك لا تدخل في إطار جدلية التراث والتحديث. ولكن المتدين هو حر في نقد أو تحديث معتقداته وفقه تعبده.

كما أن الجماعة التي ينتمي إليها المتدين، من حقها ممارسة أفكارها وعقائدها، ولها الحق أيضاً في مزاولة نشاطاتها الاجتماعية والخيرية والثقافية والمدارس والمعاهد والمراكز الطبية والتعاونية وجمع التبرعات.. بالوسائل السلمية دون فرضها على الآخرين ودون أن تستفز تلك الأنشطة المتنوعة منها أية حساسية عند الآخرين أو تزعج أحداً.

ودور الجمعيات الخيرية في مساعدة الفقير والعاجز والمريض يدعم الترابط والتكافل الاجتماعي والتضامن والأخوة الإنسانية، وإن كان ذاك الدور من مهمات الدولة لأنها مسؤولة عن كل مواطنيها.

***

والمحافظة على حرية العقيدة والدين كقضية خاصة، إضافة إلى أنها تشبع الجانب الروحاني عند المتدين، تساهم في نشر الأخلاق والفضيلة، لأن الدين يزرع الرادع الداخلي/ الوازع، وهذا جيد وفعال وإن ارتبط بإرضاء الله أو بمبدأ الثواب والعقاب.

يقول د. علي زيعور: (ليكن للدين تأثيرات في توجيه الروح إلى الخالق ولمساعدة القاعدة الأخلاقية، ولتكن السلطة لا للدين، بل للدولة) [6].

إن الأخلاق علاقة مع الآخر، ومنبعها قد يكون الدين أو الوعي الحضاري أو الرقي الإنساني والضمير الحي وهو أقوى لأن الذي يمتلكهما يلتزم بالأخلاق ويمارسها عن قناعة تامة وهو يفعل الخير لأنه الخير ودون أي مقابل حتى دون التفكير بالثناء والسمعة الطيبة، ويتجنب الشر لأنه شر وليس خوفاً من العقاب أو السمعة السيئة.

وهناك فرق بين أخلاق تتطلبها العلاقة مع الآخرين ولا يحاسب عليها القانون، وبين أخلاق يفرضها النظام مما يعني أن قسماً من الأخلاق من مهمات النظام/ السلطة كالقضاء على الفساد والسرقة والرشاوى..

ولا تستطيع السلطة زرع الرادع الداخلي فهي تفرض الرادع الخارجي بقوة القانون والعقوبة، ولكن يمكن التلاعب والتحايل على القوانين. وهذا هو الفرق بين أخلاق الدولة وأخلاق الدين وأخلاق الرقي الإنساني، ولكن في مجتمع معقد العلاقات وفاقد للوازع الداخلي، تبرز أهمية الوازع الخارجي "القانون/ السلطة"، فله دور في الردع لا يستهان به.

إن الأخلاق مثل عليا جامعة يؤمن بضرورتها الحتمية كل إنسان وجداني وهي ليست خاصة بأمة أو حضارة وليست ملك فكر دون فكر آخر، ويمكن ربطها جدلياً بفكرة المطلق الحق والخير والعدل، وانعكاس ذلك على ممارسة الفضائل كالصدق والأمانة والإخلاص والالتزام والتواضع ودماثة الخلق في المعاملة واللباقة وعدم الاعتداء على الآخر أو إيذائه أو شتمه أو تحقيره أو السخرية منه أو الاستهزاء أو استغابته..

واحترام الدولة لإنسانية الإنسان هي قيمة أخلاقية وتعني إلى جانب تقديس حريته، تأمين مستلزمات حياته ليؤدي عمله بإخلاص وإبداع، فإن

لم تفعل ذلك فالاحتمالات كثيرة منها إهمال عمله نتيجة الإرهاق في أعمال أخرى لدعم أجره القليل الذي لا يكفي تغطية متطلبات الحياة، ومنها ما هو أسوأ فقد تدفع الحاجة إلى انحراف البعض باتجاه الرشوة أو السرقة أو القتل..

والمجتمع العربي يعاني من أزمة أخلاقية حقيقية، وهي على رأس الأمراض الاجتماعية التي ساهمت إلى جانب عوامل أخرى في تفكك المجتمع وانهياره [7]، فقد انتشرت المفاسد والرذائل في المجتمع الإسلامي/ المسيحي على الرغم من حض الدين على الابتعاد عن ذلك كله!

ويجب على الجميع الفرد والأسرة والدولة، أن يتعاونوا لتجفيف المستنقع الذي تتسع رقعته وتتعمق بالانهيار والانحطاط بكل أشكاله بما في ذلك الفن الساقط!

والتربية الأخلاقية السليمة تبدأ من البيت ومن نظم التعليم التي يجب أن تدرس مادة الأخلاق وأصول التربية في المدارس ليتعلم الطالب الصدق واللباقة واحترام الآخر والإخلاص في العمل والجدية.. وهذا ينجح إن زرعت الأخلاق في داخل الطفل، أما إذا بقيت خوفاً من الخارج وليست نابعة من داخله فهي ستؤدي إلى النفاق والخداع والتزييف والتملق [8]..

كما أن هدف التربية السليمة أيضاً تكوين شخصية الطفل المستقلة والعقلانية والواعية والمعتمدة على نفسها. وهذا يتطلب أن تكون مناهج التعليم مبنية على المناقشة والحوار، وتنمية مواهب الطفل وتشجيعه على التفكير العقلي. لذلك هناك ضرورة لإعادة النظر في أساليب الدراسة ومناهج التعليم القائمة على النظري والحفظ الآلي، وحشو دماغ الطفل بالمعلومات، لأنها لن تؤدي إلى بناء شخصية الطفل ولا العبقرية والإبداع.

***

4- **التيارات الدينية والديموقراطية**:

أدرك كثير من التيارات الدينية ولا سيما المعتدلة والثورية مفهوم العصر وثقافته، فآمنوا بالديموقراطية والتعددية، وقبلوا بالمشاركة على أساس وطني معاد للإمبريالية والصهيونية ومشاريعهما، والقضاء على المفاسد.. وتخلوا عن تطبيق الإسلام في هذه المرحلة [9]. وهذا يعني عملياً أن المعايير التي تفرز الناس ترتبط بالقضية الوطنية/ القومية، والإخلاص والمصداقية والأخلاق.

وذاك الوضع يغني جدلية التراث والتحديث والتحرير، لأن جميع أبناء الوطن على اختلاف أديانهم وطوائفهم وفرقهم سيتمكنون من المشاركة في الحياة السياسية الملتزمة بالدستور، أما الذين يبتعدون عن الحياة السياسية لعزوفهم عنها بطبيعتهم فهذا شأنهم.

إن المتدين ليس مرفوضاً في العقلانية الحديثة كإنسان يحمل فكراً من أي دين كان أو مذهب أو طائفة، لأنه ابن المجتمع ولا يصح تهميشه فهو حر الفكر وله أن يعبر عن رأيه بكل أمان وأن ينتقد وهذا حقه، ومن حقه طرح برنامجه المتعلق بشؤون الدنيا إن كان ملائماً لروح العصر، والتصويت عليه كغيره ممن يحمل أفكاراً مغايرة على قدم المساواة.

كما أن المتدين الثوري الذي يضحي بحياته من أجل الوطن ليس قرباناً للموت فقط، فمن حقه المشاركة في بناء الوطن وقيادته، وكذلك الأمر يقال عن كل من شارك في خندق التضحية من أجل الوطن، فشركاء الخندق هم شركاء في بناء الوطن وقيادته، وكذلك كل من وقف مع تيار المقاومة بمصداقية وإخلاص وإن لم يساهم مباشرة في خندق المقاومة. ولكن التضحية في سبيل الوطن لا تعني مطلقاً أن يفرض المضحي شروطه على الآخرين!

لقد حدثت تجارب كشفت عن زيف ادعاء الديموقراطية؛ ففي الوقت الذي طرحت فيه الديموقراطية في بعض الدول العربية، دخلت حركات دينية تلك اللعبة بحسب الشروط الموضوعة التي سمحت لها بالمشاركة دون أن تستغل الوضع أو تغير من سياسة اللعبة الديموقراطية، ولكن ماذا كانت النتيجة؟!

بعد أن حصلت تلك الحركات على الأكثرية في انتخابات نزيهة أهلتها إلى السلطة، تم الانقلاب عليها أو ضربها أو حياكة المؤامرات لإفشالها [10]، وهذا التصرف اللاأخلاقي يناقض ادعاء الديموقراطية وحرية الفكر والتعبير عنه وممارسته!

والقضية ببساطة أن عقلية السلطة/ الحاكم ما زالت مخدوعة بمكانتها التي تتوهمها، ولم ترد أن تستوعب امتداد التيارات الدينية وشعبيتها، فإذا كانت هناك خطوط حمر تجاه التيارات الدينية المنافسة الأقوى، فلم لا يعلن طي ملف الديموقراطية، لأنه إما الديموقراطية أو الديكتاتورية ولا وسط بينهما، ولكن هل نجحت تجارب إقصاء أو تغييب تيارات لها قواعدها الشعبية!

فمن حق الإسلاميين الضمانات لعدم الغدر بهم نتيجة ما جرى معهم من ظلم وخداع، والتيارات غير الدينية تحتاج أيضاً إلى ضمانات من التيارات الدينية حتى لا تغدر بهم؛ حيث يمكن أن يكون هناك حزب إسلامي وصولي انتهازي يستغل لعبة الديموقراطية للوصول إلى السلطة، وبعد وصوله واستلامه السلطة وتمكنه منها وإمساكه بالأمور بين يديه، يكشف عن حقيقة توجهاته ومخططاته فيغدر بشركاء الديموقراطية ويستفرد بالحكم ويعلن تطبيق النظام الإسلامي بحذافيره/ حكومة ثيوقراطية تمثل وجهة نظره الأحادية التغييبية، التي يظن نفسه بأنه يحمل برنامجها الإلهي المقدس (إن الدين عند الله الإسلام) "آل عمران 18".. وقد يجد المبررات الدينية لانقلابه كالحرب خدعة أو هذا من الكذب الحلال من أجل تطبيق شريعة الله، أو الضرورات تبيح المحظورات، والغاية النبيلة تبرر الوسيلة غير النبيلة متجاهلاً بأن ذاك مبدأ ميكافيلي لا أخلاقي، فالغاية النبيلة يجب أن تكون وسيلتها وطرق تحقيقها نبيلة.

وقد يلجأ إلى القوة "العنف والقمع والسلاح.." لتصفية المعارضة، ومقاتلة المرتدين من المسلمين وسفك دمائهم، وقتل المسيحيين الرافضين لتطبيق الشريعة الإسلامية، ويغلف استبداده وتسلطه وصدامه الدموي بطابع البطولة والشهادة!

إن حدوث ذلك وارد ويخيف الكثيرين، وقد يؤدي إلى حرب أهلية لا يتكهن أحد بنهايتها سوى الخراب والتدمير والقتل والتهجير وتحطيم كل شيء!

لذلك تبرز أهمية وضع ضوابط متفق عليها وجامعة تطمئن الجميع من حدوث مؤامرات تنسف الديموقراطية من جذورها، وتقتل الثقة بين أبناء الوطن الواحد. وهذا يتطلب طرح رؤية جديدة تحدد حقوق وواجبات الجميع لتنجح التعددية والمشاركة الحقيقية في الديموقراطية.

فحتى لا تكون الانتخابات جسراً لأحد يستغلها في الوصول إلى السلطة ثم يتنكر للجميع عند وصوله، يجب أن يلغي كل فريق من برامجه ما يثير الشك عند الآخرين ولا سيما مخططاته المستقبلية إن كانت متعارضة مع دستور القواسم المشتركة، وهذا يشمل الجميع الإسلاميين والعلمانيين والاشتراكيين واليساريين [11]..

فالتيار الديني المرشح نفسه عليه أن يعلن التزامه بالدستور وبأنه لن يغير فيه شيئاً، ويوضح بأن برنامجه يتعلق بالجانب السياسي والاقتصادي والحقوقي والإداري، وأن برنامجه الذي استمده من الدين يمثل وجهة نظره هو، والبرنامج لا يتعلق بالعقيدة والعبادات لأنهما قضية خاصة.

ولا يطرح صيغة عامة مثل "النظام الإسلامي" وينسبها لنفسه، فيصير كأنما هو الممثل الوحيد للإسلام [12]، وهذا استغلال للدين في الدعاية لتحريك مشاعر الناس الدينية ليصوتوا له، ولإسكات الآخرين أو لتصويرهم كأعداء لشرع الله. فلا يحق له أن يرفع شعاراً يحمل صفة "برنامج ديني سماوي مقدس" لأنه يمنح ما يطرحه القوة الإلهية، ولا يحق لأحد النقد أو الاعتراض على حكم الله المقدس، بينما هو في الحقيقة ليس شرع الله إنما هو وجهة نظر المرشح في الدين، والتي تتعارض مع وجهات نظر أخرى لها قراءتها المختلفة عن قراءته.

ويجب التمييز بين فهم النص المؤسِس والنص المؤسَس، وعدم الخلط بين النص وبين شرحه، والتمييز بين العموميات التي لا تؤسس بنياناً تاماً وبين الفكر الذي تممه!

لذلك برنامج المرشح المتدين يخضع للمناقشة والنقد كأي برنامج آخر ولا يحق له الرفض أو الاحتماء بالتابو الذي لا يناقش، لأنه بذلك يتمتع بأخذ حقه في نقد الآخرين، وفي الوقت نفسه يمنع الآخرين من النقد ويحرمهم حقهم الديموقراطي، وهذا ليس بالعدل بل هو الديكتاتورية المقنعة!

فهو حر وله حقه في حمل برنامجه الديني/ الدنيوي، إلى الانتخابات ولكن بتسمية محددة وببرنامج تفصيلي يوضح موقفه من كل القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية وحقوق الإنسان والحرية.. وذاك الوضوح يجعل التصويت على برنامج وليس على التسمية. والكلام نفسه ينطبق على حملة البرامج الاشتراكية والليبرالية.. فعليهم أن يشيروا إلى أنها تمثل وجهة نظرهم هم لأن هناك وجهات نظر كثيرة أخرى للبرامج نفسها التي يرفعون عناوينها.

وهنا يصير الحوار عادلاً وموضوعياً في الجو الديموقراطي لأنه يعتمد على العقل والمنطق والحجة لإثبات أفضلية أي برنامج على برامج الآخرين في جو تنافسي شريف ومشروع بين البرامج المتنوعة والمتناقضة.

وإذا ما تمكن صاحب البرنامج الديني من إقناع الآخرين ببرنامجه وأطروحاته ونجح في الانتخابات يمكنه من تنفيذ برنامجه، ولكن تبقى مناقشة أطروحاته مفتوحة في جو ديمقراطي وموضوعي وضمن أطرها القانونية ومن خلال استقلالية السلطات الثلاث. ومهمة السلطة التشريعية المستقلة تبني ما يصلح ويحقق تقدماً للمجتمع.

وتتجلى عقلانية ومرونة صاحب البرنامج الديني بإيمانه بأن (الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها)، والإيمان بما ذهب إليه بعض رجال الدين من أن أية فكرة تحقق العدل فهي شرع الله، فيقبل بأية أفكار موضوعية وعقلانية وعلمية تفيد المجتمع في التقدم، وتحقق العدالة والخير والحق للشعب كله سواء أكان مصدرها من الدين أم من غيره!

وتبقى الممارسة مقياساً في النجاح والإخفاق، ومن خلال سلطة الإعلام الحر والسلطة التشريعية ومسؤوليتها، تتم مناقشة ومحاسبة ونقد السلطة التنفيذية على ما حققته في مجال الوضع الديموقراطي كحرية

الإنسان وكرامته وراحته النفسية، وبناء القاعدة الاقتصادية ونتائجها كالتنمية وزيادة الدخل القومي وانعكاس ذلك على معيشة المواطن ورفاهيته.. لأن المواطن لا تهمه الشعارات والنظريات ونوع المسؤولين وأيديولوجياتهم، وإن تأثر بذلك لبعض الوقت ولكنه في النهاية يتعامل مع المحسوس، مع ممارسة النظري عليه، وبقدر ما تقترب منه الممارسة بقدر ما ينشد هو إلى نظريتها.

وإن كان هناك ما يستوجب التعديل يعدل، لأن التشريع وسيلة من أجل الإنسان، وليس الإنسان من أجل التشريع.

وضمن تلك الرؤية التحديثية تنتهي إشكالية مفاهيم "الدين والدولة" و"الدين والسياسة" و"الشريعة والقانون" و"الشرعي والمدني"..

* * *

الهوامش

(1) تشمل المعاملات التالي:

الدولة: طبيعة النظام والحكم.

الاقتصاد: وهو قائم في الإسلام على الملكية الخاصة، وموارد الدولة قائمة على الزكاة والصدقات وخراج الأرض، والموارد الطبيعية. وهناك غنائم الحرب التي لم تعد موجودة، والعلاقات التجارية وتتعلق بالأمور المالية بين الناس كالبيوع والإجارة والرهون..

القضايا القضائية: المحاكم وقانون العقوبات الجنائية وقوانين الأحوال الشخصية المتعلقة بقضايا الأسرة من زواج وطلاق ونفقة وميراث..

والإسلاميون التحديثيون تعرضوا لكل تلك القضايا بهدف تحديثها لتناسب العصر.

(2) راجع كتاب: موجز تاريخ الفلسفة - ص 414.

(3) يرفض د. محمد أركون أن يكون الدين خاصاً بصاحبه، وهو ينتقد مقولة "الدين لله والوطن للجميع" لأنها تعني أن الدين خاص يفرق لذلك تبقى كل طائفة مغلقة على نفسها، ويتم اللقاء والتفاهم بينها والآخرين فقط حول شؤون الدنيا كالسياسة والاقتصاد والزراعة والتجارة.. وهو يسمي ذلك "علمنة سلبية" تتهرب من مواجهة الدين، فالدين ليس لله لأنه موجود في كل مكان. ويجب تصحيح النظرة للدين ونقده علمياً والوصول إلى مفهوم موحد، وذاك لن يتم إلا بالنقد العلمي للخطابين وتحريرهما من الدوغمائية المسيجة لهما.

وما يطرحه أركون مثالي جداً، وهي تخص المتدينين وقناعاتهم في الانخراط في مشاريع توحيد الطوائف أو وحدة الأديان، علماً بأن ذلك شبه مستحيل إن لم نقل مستحيل!

على كل سيبقى أصحاب كل دين ومذهب وطائفة على مفاهيمهم وهم أحرار في رؤيتهم، لكن المهم هو التعايش الإنساني معاً بالتساوي التام

دون أية حساسية، والرفض التام لأن يكون الدين هو المفرق بين الناس والمسبب للحقد والكراهية.

(4) نجد ذاك الشكل في أوروبا العلمانية ففي بريطانيا تعد الملكة رئيسة الكنيسة، والدستور الألماني يحدد الديانة الرسمية المعترف بها ويذكر أن المسيحية دين الأغلبية.

أما فرنسا فهي أكثر الدول صراحة في علمنتها منذ أن ألغت سلطة الكنيسة على الدولة، ثم عندما فصلت الدين عن الدولة رسمياً في عام 1905، وقانون العلمانية فيها يقول في أحد مواده: "تضمن الجمهورية حرية المعتقد. وتضمن الممارسة الحرة للشعائر الدينية..".

(5) مواقع الإنترنت والمحطات الفضائية خير دليل على ذلك، فهي تدافع عن أيديولوجيتها وتنتقد أيديولوجية الآخر من منطلق متعصب، وتصل الأمور إلى مستويات سوقية في النقاش، فلا يستطيع الإنسان الذي يحترم نفسه أن يتابع، أو يفكر بالعودة إلى المحطة نفسها أو الموقع!

(6) د. علي زيعور: التحليل النفسي للذات العربية "أنماطها السلوكية والأسطورية" - ص 172.

(7) تسيطر على المجتمع العربي أمراض كثيرة تناولها عدد من المفكرين، راجع على سبيل المثال كتاب: "سيكولوجية المجتمع المتخلف" للد. مصطفى حجازي. وكتاب: "دراسات في العقلية العربية - الخرافة" للد. إبراهيم بدران، د. سلوى الخماش.

وأحصى المفكرون أمراضاً كثيرة في المجتمع العربي: العادات السيئة، التخلف، الجهل، الفساد والنهب والانحطاط المتنوع.. التناقض بين القول والعمل، كثرة الكلام والتنظير وغياب الفعل، الازدواجية، الخرافات كقراءة الغيب والتنجيم والسحر والعفاريت، المفاهيم البالية، الاتكالية، العجز.. الفردية، غلبة الأنا/ النرجسية، الانتهازية، الوصولية.. مفاهيم القبلية والطائفية والمحسوبية..

ووضعوا أيضاً حلولاً كثيرة: العلم، تحديث العقل، المنهج العقلي العلمي، التربية العلمية والأخلاق، العدالة الاجتماعية وسيادة القانون والمحاسبة..

ولكن لم يتغير الوضع!

(8) يتحدث د. هشام شرابي في كتابه: "مقدمات لدراسة المجتمع العربي - ص 105 وما بعد"، عن سلوك الفرد في المجتمع فيذكر الصفات التي يتميز بها: "الشعور بالعجز، التهرب، الاعتماد على الغير".. وينتقد التربية العربية التي تقوم على: "العقاب الجسدي، التخجيل، الاستهزاء"، ويدعو إلى: "أساس التربية لتعليم الأطفال: الصدق والصراحة والتعاون"، وإعطاء الأطفال الحرية وتعليمهم تدبير نفوسهم و"تحمل المسؤولية ومجابهة مشكلاتهم".

إن أخطر ما تتربى عليه الأجيال هو الخوف وعواقبه وخيمة منها أنه يجعل الطاعة العمياء آلية كأمر طبيعي "الزوج، الأب، المسؤول.." وهذا يؤدي إلى خلق شعب خامل مطيع لا ينتقد لا يتذمر لا يعترض!

راجع كتاب: الطاغية للد. إمام عبد الفتاح إمام ص 328 وما بعد.

(9) دخل حزب الله الحياة البرلمانية منذ عام 1992، ومع قوته وتألقه وشعبيته بعد التحرير لم يطرح في الانتخابات تطبيق النظام الإسلامي مع أن خطابه دائماً لم ينفصل عن الخلفية الدينية، وبقي ملتزماً بالحياة الديموقراطية حتى الآن على الرغم مما يجري في الساحة اللبنانية من قبل فريق السلطة غير الشرعية!

كما أن حماس لم تطرح تطبيق النظام الإسلامي، وأعلنت مرات كثيرة أن برنامجها القضاء على الفساد وتحقيق العدالة الاجتماعية وبرنامج المقاومة وثقافتها..

وقد هاجم تنظيمُ القاعدة على لسان رجلها الثاني د. أيمن الظواهري تنظيمَ حماس لأنه لم يعلن تطبيق الشريعة الإسلامية عندما ترأس الحكومة الفلسطينية. وأعاد الكرة عندما سيطرت حماس على قطاع غزة بعد تطهيره من العملاء والفاسدين في جهاز الأمن التابع لسلطة الرئاسة.

(10) على الرغم من أن حماس اكتسحت انتخابات المجلس التشريعي وشكلت حكومة الأكثرية، فقد حاصرها الجميع بدءاً من حركة فتح وسلطة

الرئاسة وجهازها الأمني، ومروراً بالأنظمة العربية والصهاينة وانتهاء بأوروبا وأمريكا لإسقاطها أيضاً من الخارطة السياسية!

وأكثر من هذا ستعيد سلطة محمود عباس الانتخابات التشريعية مشترطة على من يريد ترشيح نفسه أن يكون موافقاً على الاعتراف بالعدو الصهيوني وفق اتفاقيات أوسلو!

والانتخابات البرلمانية أيضاً أوصلت الجبهة الإسلامية للإنقاذ في الجزائر إلى السلطة بطرق ديموقراطية نزيهة، ولكن السلطة رفضت النتيجة وحاربت الجبهة بغية حذفها من الخارطة السياسية!

وفي مصر تم التلاعب في الانتخابات الأخيرة التي اكتسحها فوز الإخوان المسلمين، ولم تتوقف السلطة المصرية عن ملاحقة الإخوان واعتقالاتهم..

وتم في آذار عام 2007 تعديل المادة الخامسة من الدستور المتعلقة بتشكيل الأحزاب في مصر، فمنعت قيام أو تأسيس أي حزب على أساس ديني "يقوم النظام السياسي فى جمهورية مصر العربية على أساس تعدد الأحزاب وذلك فى إطار المقومات والمبادئ الأساسية للمجتمع المصري المنصوص عليها فى الدستور. وينظم القانون الأحزاب السياسية. وللمواطنين حق تكوين الأحزاب السياسية وفقاً للقانون. ولا تجوز مباشرة أي نشاط سياسي أو قيام أحزاب سياسية على أية مرجعية دينية أو أساس ديني، أو بناء على التفرقة بسبب الجنس أو الأصل"!

(11) المقولة الماركسية اللينينية بأن مرحلة النضال الوطني تجمع الكل في خندق واحد، ثم بعد التحرير تبدأ غمار الثورة الاجتماعية التي ستفرض الاشتراكية العلمية وديكتاتورية البروليتاريا والاستفراد بالسلطة.. نظرية انتهازية لأنها تنظر إلى غير أتباعها كجسر فقط للعبور إلى التحرير والسلطة. فليست ثورة التحرير هدفها استئثار فئة بالسلطة أو وصولها إليها والتنكر للمشاركين فيها ممن يختلفون معها في أيديولوجيتهم المدنية في السلم، في الوقت الذي ضحوا وقاتلوا ببسالة وكانوا مشروع استشهاد دائم.

(12) في الانتخابات البرلمانية الأخيرة في مصر طرح الإخوان المسلمون شعار "لا حل إلا في الإسلام"، وهكذا شعار فضفاض فيه استغلال لأنه يوحي بأنهم هم وحدهم الممثلون للإسلام، وفي ذلك تجاهل وتغييب لكل التيارات والاتجاهات الأخرى التي تختلف معهم في أمور كثيرة.

* * *

الخاتمة

إن التحديث الحقيقي ثورة لأنه تحرير للعقل والمنهج والرؤية، والمفكر الوطني المخلص والغيور على قضايا أمته ومصالحها ونهضتها أياً كان الثوب الأيديولوجي الذي يرتديه، هو الحامل للرؤية التنويرية في التحديث والتحرير. وهو سياسي وثائر لأنه الصدامي الأول مع الواقع/ الحاضر.

وقد كانت مراحل النهوض تبحث عن هوية للعرب، عن هوية للتحديث، هوية للفكر العربي الحديث، ولكنها لم تسع لتأسيس مدرسة فكرية متكاملة، ولا نظرية معرفة عربية، وحتى على الصعيد الأدبي والفني لم تبدع مدرسة عربية أدبية أو فنية أو نقدية..

والبحث عن أرضية مشتركة لجميع التيارات الفكرية ضرورة ملحة، ولكنه يحتاج إلى ثورة فكرية في المنهج والتحليل، ورؤى جديدة في المفاهيم، والاستفادة من تاريخية النهضة وجدليتها، للوصول إلى النقاط الفكرية المشتركة بين التيارات المتعارضة التي جمعها برنامج المقاومة والإصلاح والديموقراطية، وصوغ نظرية معرفية موحدة للفكر العربي الحديث ضمن الجدلية الثلاثية.

***

لقد كشف صراع التيارات على الصعيد الفكري والثقافي في مراحل النهوض عن تناقضات حادة، والهروب من مواجهة تلك الحقيقة أو القفز عنها أو تغييبها لم توصل التيارات الفكرية إلى حل إشكالية جدلية التراث الديني مع التحديث والتحرير، وتحول الهروب من المواجهة إلى الضياع في دوامة من التحليلات، وتحول الحوار من أجل حل الإشكاليات إلى الحوار من أجل الحوار والبقاء في الحوار المفتوح إلى ما لا نهاية. كما تحول النقاش والنقد إلى هجوم لا علمي ضمن دائرة تكرر فيها الاتهامات المتبادلة بالتحريف أو الانحراف أو الكفر.. وبرزت أنانية "النحن" سيدة الكلام، و"اللعم" سيدة المرواغة. ولم تتحول الكلمة إلى العمل وهو الجوهر، وضاعت ممارسة الأفكار وهي الجوهر، وتميعت مقاييس المصداقية والإخلاص!

وتلك الجدالات هي بصورة عامة استمرار للصراعات التقليدية القديمة منذ بدء النهضة ومعظمها كان ضمن البنى الفوقية ولا سيما بين التيارين الديني الأصولي والتحديثي على اختلاف مشاربه، بينما الشعب بقي معزولاً خارج الموضوع!

ومع أن الجميع يتحدث عن الإنسان بأنه هو الأساس في هذا الوجود وصونه وحفظ كرامته وحريته هو الهدف الذي يجب أن يكون من وراء الحضارة والفكر، لكن الإنسان العربي ما زال غارقاً في الفقر والأمية والجهل وفقدان أبسط حقوق الإنسان في الحرية والأمن والكرامة والعلم والعمل والصحة..!

***

إن البقاء أسرى مقولة المؤامرة الاستعمارية الصهيونية الهادفة إلى تفتيت العرب والمسلمين لم يعد مجدياً، وما استمرار سيطرة تلك المقولة على الشعور واللاشعور عند كثيرين من المفكرين والسياسيين إلا لتبرير الهزائم والانكسارات والسقوط والفساد، فلا شيء يبرر التقصير والإهمال واللامبالاة والفساد، وما صنعه المستعمر حقيقة لا مراء فيها وما يخطط له واضح وعلني، ولكن المهم هو كيف نحبط المؤامرات؟

مَنْ الذي دخل عباءة الإمبريالية والصهيونية، ومن هو الذي شرّع للفساد، ومن هو الذي يقف في وجه التحديث والنهوض، ومن هو الذي يكرس استمرارية التجزئة؟!

إن مواجهة الغرب تعني أن يتحرر العرب من التبعية للغرب وخاصة أمريكا، وألا يكونوا رهائن تقنياته وعالة عليه يتحكم في مصيرهم. فالغرب المتطور علمياً وتكنولوجياً هو نفسه الذي يقهر العرب ويسلب إرادتهم ويريدهم عبيداً في آلية اقتصاده. وما يقدمه للأنظمة العربية التابعة هدفه أن تمارس تلك الأنظمة دورها في حماية مصالحه وتدجين شعبها وتوظيفه في تلك الآلية!

الغرب لا يقدم للعرب أي شيء مجاناً لأنه ليس بجمعية خيرية، والبراجماتية فلسفته ولا استثناء، وما زالت تسيطر عليه العقلية المتعالية والمتغطرسة ونظرة السيد إلى العبد!

والدول العربية تمتلك قدرات مادية ومعنوية هائلة، المادية كالبترول وآلاف المليارات في البنوك الأمريكية والأوروبية والاستثمارات.. والمعنوية كالبعد الحضاري الإسلامي والتاريخي وإرادة الشعب العربي في التحرير والحياة الكريمة وبناء الأمة.. ولكن الأنظمة لا تستغل تلك القدرات بل لا تريد أن تستغلها نتيجة التبعية العمياء والحرص على الكراسي!

لذلك على العربي الحر أن يسعى جاهداً إلى الخروج من الدوائر التي يرسمها صانعو الأحداث في الغرب، ليكون فاعلاً وصانعاً للحدث الذي يخدم مصالح أمته وشعبه، وليس البقاء أسير انفعالات دائرة حدث لم يرسمها هو!

وسعيه لرسم دائرة له تحت أشعة الشمس بحرية وكرامة، يفرض احترام العالم له في عصر التكتلات الكبرى التي لا تحترم إلا القوي!

وهذا يتطلب منه العمل بإخلاص وصدق وأمانة لتحقيق بناء دولة الأمة العربية، دولة المواطنين في ظل نظام سياسي ديموقراطي تعددي يسوده القانون، وبناء القاعدة الاقتصادية القوية "زراعية مبرمجة وصناعية ثقيلة بما فيها الصناعة الحربية كالطائرات والدبابات والصواريخ.."، وبناء الجيش الحديث القادر على حماية الوطن وأبنائه وقيمه الإنسانية، والتحرر من الاستعمار والتبعية؛ التحرر الفكري والسياسي والاجتماعي والاقتصادي..

* * *

المصادر والمراجع

آ- الكتب الورقية:

1- أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي القرشي البغدادي: تلبيس إبليس – حققه وخرّج أحاديثه: خير الدين علي – دار الوعي العربي – بيروت.

2- أدونيس: الثابت والمتحول (بحث في الاتباع والإبداع عند العرب) – الكتاب الأول 1- الأصول – دار العودة – الطبعة الثالثة 1980 – بيروت.

3- أدونيس: الثابت والمتحول (بحث في الاتباع والإبداع عند العرب) – الكتاب الثاني 2- تأصيل الأصول – دار العودة – الطبعة الثانية 1979 – بيروت.

4- أدونيس: الثابت والمتحول (بحث في الاتباع والإبداع عند العرب) – الكتاب الثالث 3- صدمة الحداثة – دار العودة – الطبعة الثانية 1979 – بيروت.

5- إقبال بركة: الحجاب، رؤية معاصرة – دار كيوان – الطبعة الأولى 2003 – دمشق.

6- ألبرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة "1798 – 1939" – ترجمة: كريم عزقول – دار النهار للنشر – الطبعة الثالثة 1977 – بيروت.

7- الأفغاني: الأعمال الكاملة – تحقيق د. محمد عمارة – دار الكتاب العربي – 1968 – القاهرة.

8- السيد ياسين: الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر – دار التنوير – الطبعة الأولى 1982 – بيروت.

9- الطهطاوي: الأعمال الكاملة – تحقيق د. محمد عمارة – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – 1973 – بيروت.

10- د. إمام عبد الفتاح إمام: الطاغية – عالم المعرفة – العدد 183 – آذار 1994 – الكويت.

11- د. أنور عبد الملك: الفكر العربي في معركة النهضة – ترجمة وإعداد بدر الدين عرودكي – دار الآداب – الطبعة الأولى، أيلول 1984 – بيروت.

12- أنيس المقدسي: الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث – دار العلم للملايين – الطبعة الخامسة 1973 – بيروت.

13- جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية – منشورات دار مكتبة الحياة – 1967 – بيروت.

14- د. حسن صعب: تحديث العقل العربي "دراسات حول الثورة الثقافية اللازمة للتقدم العربي في العصر الحديث" – دار العلم للملايين – الطبعة الثانية، تشرين أول 1972 – بيروت.

15- د. حسن صعب: الإنسان العربي وتحدي الثورة العلمية التكنولوجية – دار العلم للملايين – الطبعة الأولى 1973 – بيروت.

16- د. حسن صعب: الإسلام وتحديات العصر – دار العلم للملايين – الطبعة الثالثة – تشرين الثاني 1974 – بيروت.

17- حسين مروة: النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية – الجزء الأول – دار الفارابي – 1978 – بيروت.

18- د. خليل أحمد خليل: مستقبل الفلسفة العربية – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – الطبعة الأولى 1981 – بيروت.

19- زكي الأرسوذي: المؤلفات الكاملة – المجلد الأول – مطابع الإدارة السياسية – 1972 – دمشق.

20- د. زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع – دار الكاتب العربي للطباعة والنشر – 1934 – القاهرة.

21- د. زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي- دار الشروق – أيلول 1971 – بيروت.

22- د. زكي نجيب محمود: المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري – دار الشروق – بيروت.

23- د. زكي نجيب محمود: كتاب العربي – نافذة على فلسفة العصر – الكتاب السابع والعشرون – 15 نيسان 1990 – الكويت.

24- عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – 1975 – بيروت.

25- د. عبد الرحمن بدوي: من تاريخ الإلحاد في الإسلام – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – الطبعة الثانية 1980 – بيروت.
26- عبد الله العروي: الأيديولوجية العربية المعاصرة – ترجمة: محمد عيتاني – دار الحقيقة – الطبعة الثالثة 1979 – بيروت.
27- عبد الله العروي: العرب والفكر التاريخي – دار الحقيقة – الطبعة الثالثة 1980 – بيروت.
28- عبد الله العروي: ثقافتنا في ضوء التاريخ – المركز الثقافي العربي – الطبعة الأولى 1983 – الدار البيضاء – المغرب.
29- عبد الله العروي: أزمة المثقفين العرب "تقليدية.. أم تاريخانية" – ترجمة د. ذوقان قرقوط – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – الطبعة الأولى، كانون الأول 1978 – بيروت.
30- د. عزت قرني: العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة – عالم المعرفة – العدد 30 – حزيران 1980 – الكويت.
31- د. علي زيعور: التحليل النفسي للذات العربية "أنماطها السلوكية والأسطورية" – دار الطليعة – الطبعة الأولى، أيار 1977 – بيروت.
32- د. علي زيعور: قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية – دار الطليعة – الطبعة الأولى، شباط 1982 – بيروت.
33- غازي التوبة: الفكر الإسلامي المعاصر، دراسة وتقويم – الطبعة الأولى 1969 – دار الفكر – دمشق.
34- د. فؤاد زكريا: التفكير العلمي – عالم المعرفة – العدد 3 – 1978 – الكويت.
35- د. فؤاد زكريا: كتاب العربي – العدد السابع عشر – تشرين الأول 1987 – الكويت.
36- محمد أركون: الفكر العربي – ترجمة د. عادل العوا – منشورات عويدات – الطبعة الثالثة 1985 – بيروت، باريس.
37- محمد أركون: الفكر الإسلامي – نقد واجتهاد – ترجمة وتعليق هاشم صالح – لا فوميك، المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر.

38- محمد أركون: قضايا في نقد العقل الديني "كيف نفهم الإسلام اليوم؟" – ترجمة وتعليق: هاشم صالح – دار الطليعة – بيروت.
39- محمد أركون: "من فيصل التفرقة إلى فصل المقال.." أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟ - ترجمة وتعليق هاشم صالح – دار الساقي – الطبعة الثانية 1995 – بيروت.
40- د. محمد أركون: من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي – ترجمة هاشم صالح – دار الساقي – الطبعة الأولى 1991 – بيروت.
41- د. محمد أركون: الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي – ترجمة وتعليق: هاشم صالح – دار الساقي – الطبعة الأولى 1999 – بيروت.
42- د. محمد جابر الأنصاري: تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي "1930 – 1970" – عالم المعرفة – العدد 35 – تشرين الثاني 1980 – الكويت.
43- د. محمد شحرور: الكتاب والقرآن – قراءة معاصرة – دار الأهالي – الطبعة الأولى .1990
44- د. محمد عابد الجابري: تكوين العقل العربي – نقد العقل العربي "1" – "جماعة الدراسات العربية للتاريخ والمجتمع" – دار الطليعة – الطبعة الأولى 1984 – بيروت.
45- د. محمد عابد الجابري: بنية العقل العربي – "دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية" – نقد العقل العربي "2" – مركز دراسات الوحدة العربية - الطبعة الأولى، حزيران 1986 – بيروت.
46- د. محمد عابد الجابري: نحن والتراث – دار الطليعة – 1980 – بيروت.
47- محمد عبده: الأعمال الكاملة – تحقيق د. محمد عمارة – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – 1972 – بيروت.
48- د. محمد علي أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام – دار النهضة العربية – 1970 – بيروت.

49- محمد علي الكبسي: في النهضة والحداثة – حفريات في مفهوم الكتابة والدولة والوطنية والشرعية الدولية – دار الفرقد – الطبعة الثانية 2007 – دمشق.

50- محمد علي الكبسي: قراءات في الفكر الفلسفي المعاصر – دار الفرقد – الطبعة الثانية 2007 – دمشق.

51- د. محمد عمارة: العرب والتحدي – عالم المعرفة – العدد 29 – أيار 1980 – الكويت.

52- د. محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر – طبعة خاصة – دار الرشاد – 1970 – بيروت.

53- مصطفى صادق الرافعي: تحت راية القرآن "المعركة بين القديم والجديد" – ضبطها وصحح أصولها: محمد سعيد عريان – المكتبة التجارية الكبرى – الطبعة السادسة 1966 – مصر.

54- د. مصطفى محمود: القرآن محاولة لفهم عصري – دار الشروق – الطبعة الثانية 1970 – بيروت.

55- د. معن زيادة: معالم على طريق تجديد الفكر العربي – عالم المعرفة – العدد 115 – تموز 1987 – الكويت.

56- منتصر الزيات: الجماعات الإسلامية: رؤية من الداخل – دار مصر المحروسة – الطبعة الأولى 2005 – مصر.

57- موجز تاريخ الفلسفة: تأليف جماعة من الأساتذة السوفييت – تعريب: توفيق إبراهيم سلوم – مراجعة: د. خضر زكريا – حزيران 1980 – دار الجماهير الشعبية بدمشق ودار الفارابي ببيروت.

58- الموسوعة العربية الميسرة – بإشراف محمد شفيق غربال – دار الشعب – القاهرة ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر – الطبعة الثانية 1972.

59- نجيب عازوري: يقظة الأمة العربية – ترجمة وتحقيق: أحمد بو ملحم – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – 1998 – بيروت.

60- د. نور الدين طوالبي: في إشكالية المقدس – ترجمة: وجيه البعيني – منشورات عويدات – بيروت – باريس – ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر – الطبعة الأولى .1988

61- د. هشام شرابي: مقدمات لدراسة المجتمع العربي – (سلوكنا الاجتماعي وبنية العائلة في المجتمع العربي: الاتكالية، العجز، التهرب. الوعي والتغيير – الإنسان العربي والتحدي والحضاري – المثقف العربي والمستقبل) – الدار المتحدة للنشر – الطبعة الثالثة .1984

62- د. هشام شرابي: المثقفون العرب والغرب – دار النهار للنشر – الطبعة الثانية 1978 – بيروت.

63- د. وهبة الزحيلي: الفقه الإسلامي في أسلوبه الجديد – منشورات مديرية الكتب الجامعية 1967 – جامعة دمشق.

64- أدبيات الحركات والأحزاب وفصائل المقاومة الفلسطينية.

* * *

ب- الكتب الإلكترونية:

من الإنترنت:

1- أدبيات الحركات والأحزاب والفصائل من خلال مواقعها على الشبكة.

2- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة – الندوة العالمية للشباب الإسلامي – موقع الكاشف.

3- معجم الشرق الأوسط "العراق، سوريا، لبنان، فلسطين، الأردن" – سعد سعدي.

4- ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

5- في الشعر الجاهلي: طه حسين.

(CD):

1- الموسوعة البريطانية (Britannica – 2007).

2- موسوعة الإنكارتا (Encarta – 2007).

3- موسوعة المكتبة الإسلامية.

4- الموسوعة العربية – الإصدار 2001 – بيروت.

5- مكتبة التاريخ والحضارة الإسلامية – دار التراث – الخطيب – عمان، ومنه: مذكراتي السياسية – السلطان عبد الحميد الثاني – مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة الخامسة.
6- المكتبة الشاملة: الإصدار الثاني – دمشق.
7- مكتبة الملل والعقائد – دار التراث – الخطيب – عمان – 1999.

* * *

بعض الكتب التي ورد ذكرها في الكتاب:

* د. إبراهيم بدران، د. سلوى الخماش: دراسات في العقلية العربية، الخرافة – دار الحقيقة – الطبعة الأولى 1974 – بيروت.
* ابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل – تحقيق: د. محمد رشاد سالم - جامعة الإمام محمد بن سعود – 1979 – الرياض.
* أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن بن عثمان الخياط المعتزلي: كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد - ما قصد به من الكذب على المسلمين والطعن عليهم - مع مقدمة وتحقيق وتعليقات للدكتور نيبرج الأستاذ بجامعة أبسالة من مملكة السويد - مكتبة الدار العربية للكتاب بمصر، وأوراق شرقية ببيروت - الطبعة الثانية 1993 - بيروت.
* أبو حامد محمد بن محمد الغزالي: فضائح الباطنية – حققه وقدم له: عبد الرحمن بدوي – المكتبة العربية، التراث – الدار القومية للطباعة والنشر- 1964 – القاهرة.
* أحمد أمين: ضحى الإسلام – مكتبة النهضة المصرية – الطبعة التاسعة 1964 – القاهرة.
* د. أحمد داود: تاريخ سوريا الحضاري القديم 1- المركز – دار المستقبل – الطبعة الأولى – كانون الثاني 1994 – دمشق.
* د. أحمد سليم سعيدان: مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الإسلام – عالم المعرفة – العدد 131 – تشرين الثاني 1988 – الكويت.
* إدوارد سعيد: الاستتشراق – ترجمة كمال أبو ديب – مؤسسة الأبحاث العربية - 1981 – بيروت.

* بو علي ياسين: الثالوث المحرم (دراسات في الدين والجنس والصراع الطبقي) – دار الطليعة – الطبعة الأولى 1973 – بيروت.
* د. رشاد خليفة: عليها تسعة عشر "الإعجاز العددي في القرآن الكريم" – دار الإرشاد – حمص – سورية.
* سلامة موسى: نظرية التطور وأصل الإنسان – مؤسسة المعارف للطباعة والنشر – 1928 – مصر.
* سلامة موسى: اليوم والغد – مؤسسة المعارف للطباعة والنشر – 1929 – مصر.
* سيغموند فرويد: الطوطم والتابو – ترجمة: بو علي ياسين – دار الحوار – الطبعة الأولى 1983 – سورية – اللاذقية.
* شبلي شميل: فلسفة النشوء والارتقاء – دار مارون عبود – 1983 – بيروت.
* صموئيل هنتنغتون: صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي – ترجمة: محمود خلف، مالك أبو شهيوة – الدار الجماهيرية – 1999.
* صموئيل هنتنغتون: من نحن؟ التحديات التي تواجه الهوية الأمريكية – ترجمة: حسام الدين خضور – دار الرأي للنشر والتوزيع – 2006 – دمشق.
* عبد السلام الترمانيني: الرق، ماضيه وحاضره – عالم المعرفة – العدد 23 – تشرين الثاني 1979 – الكويت.
* عصام الدين حفني ناصف: المسيح في مفهوم معاصر – دار الطليعة – الطبعة الأولى 1979 – بيروت.
* محمد قطب: شبهات حول الإسلام – مكتبة وهبة – الطبعة التاسعة 1966 – مصر.
* محمد الغزالي: حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي – دار نهضة مصر للطباعة والنشر – 1998 – القاهرة.
* د. مصطفى حجازي: التخلف الاجتماعي "سيكولوجية الإنسان المقهور" – معهد الإنماء العربي – الطبعة الثالثة 1984 – بيروت.

* هادي علوي: من تاريخ التعذيب في الإسلام – مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي.

* * *

النهاية

.....